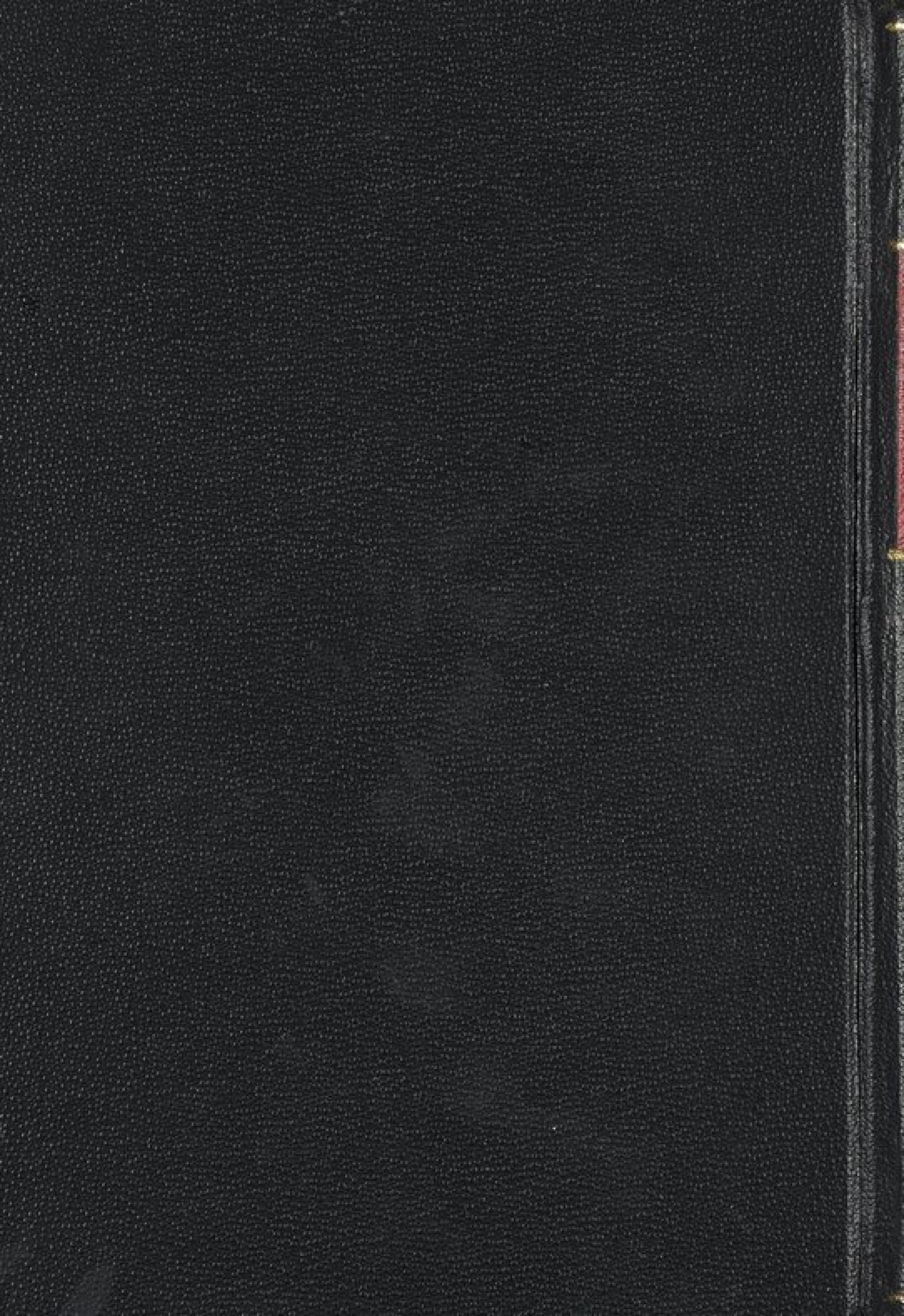




Du'ūn, Tawfīq Faḍl Allāh

توفيق فضل الله ضعون

Min waḥy

مِن وحي السبعين

١٨٨٢ - ١٩٥٢

في

الصِلة بين المغتربين والمقيمين



المؤلف بسن وحي السبعين

سان باولو «البرازيل» وبيروت «لبنان»

طبع في بيروت

١٠٠ شتاؤها ٧٥ خريفها ٥٠ صيفها ٢٥ ربيع الحياة

مَيْتٌ

الآن وقد حم القضاء وأزف موعد تسليم المواد للتنضيد تعاودني الخشية من أن لا أكون قد أبلغت كتابي هذا المنزلة التي رسمها لي خيالي عندما ازمعت القدوم الى لبنان بقصد إصداره .

إنها خشية الرعديد الذي جرّأ نفسه على خوض المعركة قبل أن يبلغ الساحة ، فلما بلغها خارت عزيمته فتردد ورضي « من الغنيمة بعد الجد بالقفل » .

نعم ، لقد شعرت قبل اليوم بعجزي وعدم أهليتي برغم انقضاء سبعة اشهر على وصولي الى لبنان وتنقلي في انحائه دارساً منقباً مستطلعاً ، فان التطور الذي حدث فيه اثناء الاعوام الثلاثة والاربعين التي تغيبت فيها عنه صيره في نظري بلاداً غريبة اجهل كل شيء فيها حتى عاداتها واساليب عيش سكانها وطبائعهم وتفكيرهم واهدافهم في الحياة .

أين ادب « محبة » نجيب نسيم طراد و « برق » بشارة عبد الله الخوري و « حرية » داود مجاعص ؟ لقد اصبح كالحشمة والبساطة والرضا أثراً بعد عين وحل مكانه الا في ما ندر أدب التسلية والرقاعة والمجون تتلهى به المعد قائمةً على التغذية بمعناها السلام ، ولا بدع فدعوة الحانة مستجابة اضعاف دعوة المعبد .

وليت الغلاة يكتفون باعتبار أدب الفكاهة والرقاعة والمجون لوناً من ألوان الادب يقرؤه ويرتاح اليه كل أديب ، ولكن هدفهم على ما لاح لي هو الاجهاز على كل لون سواه . وقد لا يصدق القارىء اذا قلت له إن علمين من اعلام الفكر والادب في المهجر قد جاهرا آخراً بأنهما من مؤيدي هؤلاء الغلاة وأنهما قد شبعا من أدب النصح والارشاد والتوجيه ، فكأنهما أشارا بعدم الاغتسال ما دام لا بدَّ بعده من الاتساخ

فروما لم تنصرف الى الترف واللهو والعبث إلاّ بعد أن أصبحت امبراطورية عزيزة الجانب وبلغت أوج المنعة والسؤدد ، فما الذي بلغناه نحن لكي نبدأ بما انتهت به تلك الامبراطورية العظيمة وكان مدعاة لتداعيها ثم انهيارها وزوالها الى الأبد ؟ .

ولكن ما شكواي هذه وأمامي شكوى طه حسين ووديع فلسطين من زهد الناس في مطالعة الادب الدسم المغذي . وأين ؟ في مصر زعيمة الادب العربي . اما في لبنان فقد راعتني عبارة سعيد تقي الدين التي ذيل بها الصفحة الاولى من نسخ أحد كتبه وهي : « هذا كتاب أهديه لانني لم أجد من يشتريه » !

وأخيراً لم أجد لي مخرجاً من حيرتي وترددي الا بالالتجاء الى المحك فوقع اختياري على أديب مقيم قارع القدم زاول الادب وجلى فيه طيلة عقود من السنين ، لذلك كان حجة في الحكم على عقلية الجمهور وذوقه الادبي . وعندما دفعت اليه مخطوطي سألته ان يعاملني بمثل صراحتي فيطرح جانباً المجاملة التي فطر عليها الشرقيون ويستعين على إبلاغي رأيه الصريح بكلمة « ميت » المركبة من الحروف الاولى المقتطعة من الالفاظ الثلاثة التالية : « ممل » « يحذف » « تافه » . فكان جوابه :

« ولو يا أستاذ ، أنصل الى هذا الحد » ؟ قلت بل قد نتعداه ، وأعني انك اذا وجدت كتابي بمجموعه لا يستحق النشر ان تعتبر غلافه كفناً تضع عليه تلك الكلمة المركبة بكاملها .

وبعد اسبوع اعاد الي مستشاري الكريم مخطوطي فرحت اتصفحه مفتشاً عن الحروف المصطلح عليها فلم اجد لها اثراً . وكان جوابه على شكواي من التزامه قواعد المجاملة الشرقية انه لم يجد موجباً لتدوين اي من هاتيك الحروف وهكذا جرؤت على النشر محملاً اياه المسؤولية دون ان افقد شيئاً من خشيتي السابقة ، وهي ان اكون فريسة غروري وتضليل صديقي الاديب المجهول .

ولكنّ افتراضي التضليل اعاد اليّ الشك في اخلاص صديقي فعدت اليه قصد امتحانه وقلت له : « لقد استهللت كتابي بما كان بيننا ولكنني ابقيت اسمك طي الخفاء فهل يضيرك التصريح به » ؟ وغنيّ عن البيان أنه استشف بذكائه ما رميت اليه فاجاب : « لا ارى موجباً للتصريح الا اذا انت شئته لامر خاص بك لان الاسلوب الذي اخترته هو الاسلوب عينه الذي كنت لأختاره انا لو كنت مكانك . ولو لم تضيّق عليّ الدائرة في التوزيع لكان كتابك الآن في جملة منشوراتي » .

وإزاء هذا التخيير آثرت اذاعة اسم ناقدي تفادياً من ان اظل موضع تهمة ولو باطلة ، فهو الاديب المحقق والناشر المعروف فؤاد حبيش صاحب « دار المكشوف »

قَدَرُ

لولا القدر لقضيت غرقاً وانا بعد في الخامسة من عمري ، وإذن لما ظهر هذا الكتاب الى عالم الوجود .

في اشهر القيظ لا يبقى من نهر البردوني في زحلة سوى اوشال مبعثرة تمدُّها مجار متغلغلة بين الحصى فيعمد الصغار الى اقامة سدود من الحجارة تحصر ما ينساب من مياهها فتكوّن مسابح يطلقون على واحدها اسم « غبّيط » وفصيحه غبيط . وحدث اني في احد الآصال رأيت رفاقاً يعدونني سناً عاكفين على إقامة واحد من هاتيك السدود فخطر لي ان اعاونهم . وما علا الماء القدر الكافي حتى راحوا يتلهون بالعوم وللمرة الاولى في حياتي القصيرة جاريتهم ولكن بدلاً من ان اعوم رسبت .

ولكنّ القدر شاء ان تعثر بي قدم احد الرفاق فكان هذا الاداة التي سخرها لانتشالي من العمق واعادتي الى الحياة .

ولحسن حظ منقذي ندّ عن ذهني اسمه وأبت عليه نبالة طبعه ان يفاخر بصنيعه ويحصيه في عداد ما اتاه من البوادر الدالة على البطولة والإيثار ، والا لما اكتفيت بتجريده من الفضل بل لحملته تبعة كل ما قاسيته فيما بعد وما سببته لجميع من عرفتهم من آلام .

الحياة تبدأ في السبعين

كل صورة يوحي خطوطها وألوانها الخيال ، ولو كان راسمها عبقرياً ، تتضاءل امام صورة الواقع المحسوس ، ولو كان راسمها كاتباً مثلي عادياً . لذلك اعزو كل الفضل في تنبهي الى هذا الموضوع وما قد يقع لي فيه من إصابة الى مداناتي السبعين فعلاً :

أما وأثمن شيء في هذا الوجود هو الحياة فلست اعلم كيف أوفق بين حب الناس لها وحرصهم عليها واستسهال كل صعب لاطالتها ، وما يبدو في سلوك سوادهم من أدلة احتقارها والمجازفة بها اجتناء للذات عابرة لا تشبع ولا تغذي ولا تُعقب سوى الندم .

اما الحرص فلا ادل عليه من قولنا العاميّ المأثور : « ألف عيشة بالكدر ولا نومة تحت الحجر » ، كما ان لا ادل على إيثار اللذة والتمتع من القول المأثور في الغرب : « الحياة قصيرة عريضة خيرٌ منها طويلة ضيقة » . وفي هذا منتهى التناقض بين عقليتين : الواحدة ترى في المجازفة بالحياة جنوناً والثانية في الحرص عليها بلاهة .

والغريب ان مصدر الحرص والمجازفة كليهما واحد ، هو خوف الموت لاعتباره فناء ، وضعف الايمان بالحياة الابدية التي تعد بها الكتب المقدسة الابرار . وكل الفرق بين الحرصاء والمجازفين هو

ان اولئك يؤثرون الاقتصاد وهؤلاء التبذير ، على ان كليهما في ضلال إذ ليس من عاقل يُعمل الفكر ويقارن بين الجحود والايمان ليقدّر ايهما اجدى على الانسان ، حتى في حياته الدنيا هذه ، الا وترجح في نظره كفة الاخير .

ولسنا الآن في هذا بل في ما يحقق مطلب الاول دون ان تكون الحياة عبئاً لان استثقالها مدعاة لسرعة زوالها بفعل التداعي المعنوي الذي يقود الى التداعي المادي . فالقلق واليأس والمثيرات والمثبطات على اختلافها توهن العزائم وتؤثر في الاجهزة والأوعية والانسجة فتبطل عمل بعضها او تخل نظامه ، ومتى اختل عضو أثر في سواه حتى يعم الخلل الجسم باجمعه .

ولما كان المرض موتاً موقتاً ، ومتى أزمن زهّد المرء في الحياة ، فإنني مع الفريق الثاني في استثقاه العيش دون تمتع ، ولكنني لست من القائلين بالافراط الى حد يفقد الحياة لان اللذة الحقيقية ليست في براعمها بل في اثمارها .

والجسم الانساني ككل آلة غير عاقلة عرضة للاختلال او التوقف من جراء عدم الاعتناء او سوء الاستعمال او حادث طارىء . فاذا كان مستوفيَ الشروط من حيث جودة البنية الأصلية والسلامة من العلل الوراثية وتوفر كل ما يحتاج اليه من تغذية ونظافة ورياضة وراحة وزهو ومرح ولهو ، في جو يضمن له الأمن والطمأنينة والاستقرار ، بحيث ينمو نموّاً طبيعياً منتظماً ويجدد بكل ما تقدم ذكره من الوسائل ما يندثر بفعل الجهد المبذول من خلاياه الحيوية ونشاطه العضوي ، كان مفروضاً له البقاء مدة معينة من الزمن ، فكم هي هذه المدة ؟

يجيبنا على هذا السؤال الملك داود صاحب المزامير بقوله : « ستون او سبعون وأشدها ثمانون ، وأكثرها تعب ووجع » ،

مع انه كان أقرب منـــا عهداً الى متوشالح . ووافقه على الحد الادنى العامة في بلادنا بقولهم : « إبن الستين للسكين » . ولما كان المرء في الغالب يستمد احكامه من حسه وواقعه واختباره الشخصي فالمدلي بالرأي المتقدم لم يكن داود الشاب القوي البنيـة العائش مع اغنامه في المراعي الجبلية العدية الهواء الذي اردى فيما بعد جوليات الجبار بحجر واحد اطلقه عليه من مقلاعه ، بـل داود الملك المتقدم في الايام بعد ان استسلم لحياة البذخ والترف وانغمس في الملذات على انواعها وابتلي بسبب افراطه في كل ذلـــك بداء عقام هد قواه ونخر عظامه وأوهن عزيمته الى حد ان ادخل على قلبه القنوط ، لذلك لا يجوز اتخاذ الحد الاقصى الذي وضعه قاعدة ، وقد كذبه بالدليل المحسوس كل من سبقه وعاصره وتلاه ممن بلغوا المئة وفوقها .

وقد بذه في الاصابة يشوع ابن سيراخ بقوله في العدد الثامن من الاصحاح الثامن عشر من سفره : « عدة ايام الانسان عـــلى الاكثر مئة سنة »

وقام في الزمن الاخير احد المتفائلين في الغرب فاصدر كتاباً جعل عنوانه : « الحياة تبدأ في الاربعين » فأنعش بتفاؤله آمـــال الملايين ممن بلغوا تلك السن او جاوزوها .

وعلى ما قدمت ، كان الذي نبهني الى هـذا الموضوع الحيوي دخولي في نطاق السبعين وانا لا ازال اتمتع بحيوية ونشاط وزهو ابن خمسين ، حتى إن احد أصدقائي الادباء ، عندما ابلغته عزمي على إصدار كتابي هذا بمناسبة بلوغي السبعين ، لم يتمالك ان أبدى استغرابه وأعرب لصديق لنا شاعر عن شكـه في صدق قولي ، عازياً إياه الى شغفي بمخالفة الناس في ما تواضعوا عليه ، لاعتقاده أنني على الاكثر بين الخمسين والستين .

واستناداً الى شعوري هذا رأيت ان اتخطى الحد الذي وضعه ذلك الكاتب الغربي بثلاثين عاماً كاملة العدة ، مع اني لم اكن من المعتدلين بل من المفرطين حتى دانيت الخمسين ، ولم اعتدل وأنظّم معيشتي وأتبع القواعد الصحية إلا بعدها .

اما الذي خطر لي فهو ان الانسان لما كان ابن الطبيعة كان مترتباً عليه ان يجاريها ويساوقها ويرضخ لاحكامها . وعلى ذلك كان طبيعياً ان تستتم حياته الفصول الاربعة المعهودة ، وليس مستبعداً ان تكون عدة سني هاتيك الفصول خمسة وعشرين على اقل تقدير : فالأول الشباب الذي يشمل الطفولة والحداثة ، ويقابله الربيع . والثاني الكهولة ، ويقابله الصيف . والثالث الشيخوخة ، ويقابله الخريف . والرابع الهرم ، ويقابله الشتاء الذي قد يطول اكثر من خمسة وعشرين عاماً .

فالشباب سن الطيش والنزق والميوعة وإهدار القوى دون حساب او تفكير ، كأنها معين لا ينضب ، وكم من الذين اذا ما بلغوا الاربعين ادركتهم الشيخوخة او هم ادركوها لتعجلهم في اجتناء اللذات وصح فيهم القول المأثور : « من جار على شبابه جارت عليه شيخوخته » ، او حق لهم ان يقولوا مع القائل :

وماذا يبتغي الشعراء مني وقد جاوزت حد الاربعينا

إن الشاب يشبه الراكب في قطار سريع يمر بالمشاهد كالبرق الخاطف فلا يتملأها ولا يتذوق ما فيها من جمال وتفوته متعة الراحة والاستقرار . وخير ما يستفاد في الشباب الدرس والتحصيل والاكتساب .

وتتلو الشباب الكهولة وهي مرحلة الاستفادة من المشاهدات والاختبارات والدروس العملية .

اما في الشيخوخة فيبدأ المرء في تفهم الامور على حقيقتها

بإطالة مضغها واستخلاص الغذاء الحيوي منها . وفيها يتسع امامه المجال للتعديل من آرائه والرجوع عن أخطائه .

فاذا ما بلغ فصل الهرم اكتمل مبنىً ومعنىً واستوفى نضجه وازداد انتفاعه ونفعه واصبح على اتم ما يكون من الاستعداد لملاقاة وجه ربه مطهراً من اوزار الحياة وآثامها ، إذ في هذا الفصل تهمد العواطف الثائرة وتخمد جذوة الاهواء ويصبح الامر والنهي للعقل الراجح وحده دون منازع .

في هذه السن ينظر الانسان من شاهق الى ماضيه فيتمنى لو هو استطاع العودة اليه بما كسبه من معرفة وحنكة واختبار ليتدرج من جديد في فصوله الاولى كلها ويكون الشاب والكهل والشيخ المثاليين ، مما يثبت ان الشخص نفسه يصبح خير حكم على نفسه فيما مضى ويضحك من سخافاته ونزقه وجهله واندفاعه وتهوُّره فيدين الشابُّ الحدثَ ، والكهلُ الشابَّ ، والشيخُ الكهلَ ، والهرمُ الشيخَ الذي كانه . وقولي هذا يثبت خطأ الشاعر الذي قال :

ألا ليت الشباب يعود يوماً لأخبره بما فعل المشيب

إذ لولا جهل الشباب لما كان ذلك المشيب والوهن اللذان استوجبا الشكوى ، والبادىء اظلم .

اما الشاعر الأعمق تفكيراً والأصوب رأياً فهو القائل :

آلة العمر صحة وشباب فاذا وليّا عن المرء ولّى

لانه وضع الصحة في المقام الاول جاعلًا اياها دعامة الحياة الرئيسية وأن المرء يستطيع معها الاستغناء عن الشباب .

واذا استثنينا الحوادث التي لا يد للانسان في دفعها فسبيله لبلوغ الهرم هو إبعاد هدفه لكي يزداد تشوُّفه وإلا اخمد اليأس في نفسه جذوة العزيمة واستسلم لسلطان الموت قبل الاوان ، إذ للفكر والاعتقاد أثرهما الفعال في الابقاء على الحيوية ، وهما ما نعبر عنه بالقوة المعنوية ،

وقد رمز المسيح اليها إذ عزا الى مقدار حبة خردل من الايمان القدرة على نقل جبل من مكانه .

ولكي نظفر بهذه الغاية يجب ان ننزع من الاذهان فكرة الهدف القديم ونوسخ فيها الاعتقاد بإمكان بلوغ الهدف الجديد ، واضعين لبلوغ المئة وفوقها شروطاً نلقنها للنشء الحديث ، واولها المحافظة على رأس المال الحيوي فلا ينفق منه الا بالمقدار الذي يمكن تعويضه يومياً بالتغذية والرياضة وتنزيه الفكر واطراح الهموم والنوم الصحي العميق ، وثانيها وضع تشريع يصون الناس من انفسهم بتجنيبهم التجارب والحيلولة دون دخولهم فيها . وفي بضعة اجيال يرسخ الاعتقاد الجديد في الاذهان فينسى الناس الحد القديم ، وهكذا يطول العمر ويتمتع كل من « تخطئهم المنية » بمجاوزة المئة ، على الاخص وقد اصبحنا في زمن المخترعات العجيبة التي تعيض الانسان عما قد يفقده من حواسه كالسمع والبصر وتجهزه باسنان أسلم من اسنانه الطبيعية وأقطع .

وقبل كل شيء يجب على المرء منذ حداثته ان يعوّل على نفسه فيتجنب الاسباب التي تمرضه ، يقيناً منه بأنه قد وُجد ليعيش سليما معافىً الى ان يدركه الهرم ، وهو ما يحل بالآلة الصماء بفعل الدثور الطبيعي . ولهذه الغاية يجدر به ان ينفي من ذهنه وجود الطبيب والدواء والمستشفى ، ويعمل القائمون على تربيته وتوجيهه على تمكينه من العيش الصحي المنتظم ، كما يترتب على الحكومات ان تبذل كل ما في وسعها لتنقية الماء والهواء والتربة من الجراثيم المرَضية على اختلافها وتوفير العيش لجميع المواطنين دون استثناء في مساكن صحية تطهرها أشعة الشمس ويتجدد فيها الهواء وتيسر لهم الطعام المغذي والنظافة والارتياض ، وتقلل من وسائل المعالجة بقدر ما تزيد من وسائل الوقاية ، اي ان تعتمد على اطباء يقون الناس شر الامراض بدلاً من ان يعالجوهم بعد ان يصابوا بها . ذلك لان كثرة المستشفيات ووسائل

المعالجة تغري الناس بالتعرض والافراط ، وما الادوية التي يعوّلون عليها سوى ادواء جديدة يمكنوّن لها في جسومهم ،على حد قول المتنبي:

اذا استشفيت من داء بداء فاقتل ما اعلك ما شفاكا

فالحكومة بمثابة اب والأب لا يميز بين اولاده فيتخم بعضهم ويجيع البعض الآخر بل يساوي بينهم ويُعطف كبيرهم على صغيرهم وقويهم على ضعيفهم وغنيهم على فقيرهم .

وأنجع الادوية التي لا تكلف شيئاً هي الزهو والمرح والضحك لانها تضارع العيش في الخلاء واستنشاق الهواء الطلق النقي والتمتع باشعة الشمس المحيية ، في حين ان الكآبة والعبوسة والانقباض تضارع العيش في الاقبية الرطبة المظلمة العفنة التي لا تختلف عن القبور الا بكون سكانها أحياء ، ولكنهم اسوأ حظاً من الاموات .

واخيراً ليوطن الانسان نفسه على ان الحياة ككل شيء خاضعة لناموس الأخذ والعطاء فيتقبل النقمة بمثل ما يتقبل النعمة من رحابة الصدر والتسليم ، متمثلاً بالتاجر الذي يدفع ديونه دون ان يتأفف او يطلق كلمة شكوى لأنه انما يدفع ثمن ما سبق له ان باعه بربح . اما الخطل كله ففي توطيننا النفس على الاخذ دون عطاء ، ولا يجني على الناس كتذكرهم السيئات ونسيانهم الحسنات ، ولا يسعدهم شيء كالعكس

والآن لننظر الى الفائدة التي تنتج عن اطالة العمر، لا للفرد ، إذ لا قيمة له اياً كان في ميزان الأقدار، بل للمجموع الذي ينعكس هناؤه على جميع الافراد :

متى كثر عدد الشيوخ الأقوياء الابدان الأصحاء العقول يصبحون في كل أمة ثروتها الحقيقية وعمادها ومعوّلها في الشدائد والملمات ، بهديهم يسار واليهم يناب فهم البركة وهم ملح الارض وهم الخمرة المعتقة السائغة . فما اسعد الأمة التي يكونون حكامها وشيوخها لان الانسانية

دينهم والحب شرعتهم والسلام والأمن والطمأنينة هدفهم.

ولا عبرة بالشواذ ففي لبنان وأضرابه من البلدان العربية من يطالب بإناطة الامور بالشبان المثقفين باعتبار انهم سالمون من النعرات العنصرية والطائفية والاقليمية والروح الاقطاعية. ولكن فساد الشيوخ في هذه البلدان عائد الى عهود الحكم الاجنبي الذي افسد ليستغل وفرق ليسود وقد زال الآن هذا الحكم كما ستزول الاجيال التي افسدها وتحل مكانها اجيال صالحة تسير عاماً فعاماً من حسن الى احسن حتى يأتي يوم تتحقق فيه الأماني .

وكأن الأقدار شاءت ان تهيء لي في لبنان نفسه مثالاً عملياً يؤيد رأيي فقد سمعت بعد اسابيع من وصولي بشيخ يقيم في معلقة زحلة يدعى ملحم قازان جاوز المئة ولا يزال متمتعاً بصحة الجسم والعقل فسعيت اليه وإذا به يجيبني على تحيتي باللغة البرتوغالية برغم انقضاء خمسين عاماً على عودته من البرازيل التي قضى فيها احد عشر عاماً وتعلم بعض مفردات لغتها بالسماع مع أن الزمن ينسي المتعلمين ما حصلوه بالدراسة القانونية في الجامعات عدة سنوات. وعلى قلة رأس مال هذا الشيخ الجليل من العلم ابدى لي من ادلة الذكاء والوعي وسلامة المنطق ما ادهشني وجعلني اعتقد أنه لو كان من المتعلمين لكان من الافذاذ الذين يصلحون للزعامة وقيادة الشعوب .

ومما ادهشني برهانه العمليّ الساذج الذي افسد به حجة احد البرازيليين بأن اللغة العربية تكتب عكساً ، وهو ان الآكل اذا اعدّ لقمة لا يدخلها الى فمه بظاهر اصابعه بل بباطنها . وقد اعترف له ذلك البرازيليّ بالغلبة علناً وفاز منه بالرهان المتفق عليه .

هذا ما سمعته من ذلك الشيخ الجليل فدهشت لتوارد الافكار بينه وبين صديقي المحقق الاستاذ توفيق داود قربان الذي سبق له منذ بضع سنوات ان حجّ آنسة برازيلية ثقيفة اعترضت الاعتراض عينه

بقوله إن باطن الكف يشبه في الجسم الانسانيّ الصدر وظاهرها الظهر . ومعلوم ان من يسير باتجاه صدره يكون بحكم من يسير الى الأمام فاذا هو سار باتجاه ظهره كان بحكم من يسير الى الوراء. ولهذا ترَين يا آنسة اننا ونحن نكتب من اليمين الى اليسار تنتقل ايدينا في اتجاه باطن الكف الذي يمثل الصدر اما انتم الذين تكتبون من اليسار الى اليمين فتنتقل ايديكم في اتجاه ظاهر الكف ولذلك كنتم انتم المخالفين للوضع الطبيعيّ ! وإزاء هذا البرهان القاطع لم يسع تلك الآنسة المهذبة الا أن تعترف له بأن الذين يسيرون في كتابتهم الى الأمام هم العرب لا الافرنج !

وشيخنا القازانيّ لا يزال حاد الذهن مرهف الحسّ لا تنقصه العزيمة ولا يعوزه النشاط ، يقضي وقته مطالعاً حيناً ومفكراً آخر ، فاذا ما ملّ الجلوس استلقى على سريره المحاذي لنافذة مفتوحة تطلّ على السهل متكئاً على مرفقه الأيسر وفي يمناه منظار يوجهه بين الفينة والفينة نحو الحقل الذي يعمل فيه حفدته على مسافة الفي متر فيعلم ماذا يفعله كلّ منهم ، ويراهم عند الظهيرة ملتفين حول الطعام في ظل الأشجار ، ثم قائلين الى ان يحين موعد العودة الى العمل فيوالي مراقبتهم حتى المساء إذ يرافقهم عائدين .

وهو كنسيبه نعمة قازان في عاصمة البرازيل شاعرٌ بالفطرة يتذوّق الجمال ويجيد وصفه فقد دعاني مرةً للجلوس في القاعة المشرفة على السهل وراح يصف لي محاسنه ومفاتنه مشبهاً إياه ببساط ابدعت يد الطبيعة ويد الانسان في نسجه وتخطيطه وتلوينه وتوشيته وتنميقه.

هذا هو الشيخ المثاليّ الذي هيأت لي الاقدار التعرف اليه فكان البرهان الحيّ الناطق على صحة النظرية التي بسطتها وشرحتها في هذا المقال

حكاية هذا الكتاب

رويت في كتابي « ذكرى الهجرة » كيف عرضت ظروف قاهرة افسدت عليّ متعة احتراف الادب كهواية اذ هي قطعت موردي التجاري الضئيل الذي لم اكن اطمع بأكثر منه فحلّ بي ما حل بجنود طارق بن زياد يوم أغرق المراكب التي حملتهم الى الشاطىء الاسباني وخاطبهم بقوله : « البحر وراءكم والعدوُّ امامكم » . والتفتُ فاذا بيدي فارغة الا من القلم الذي عبثاً حاولت التملص من مأزق شقه . وكانت مفزعَتي الكبرى الصحيفةُ التي لا حياة لها إلا من موردِ الاعلانات المستكداة غالباً ببذل ماء الجبين اومن بابها الاجتماعيّ وقوامه المظاهر التي ندر أن تمتّ الى الحقيقة بصلة ، ولكنّ الاجر عليها يزداد بقدر بُعدها عن الواقع . وطغى علينا فورَ انتهاء الحرب سيلٌ من الصحف والمجلاّت المصرية واللبنانية والسورية ، ومعظمها ، بفضل التعاون ، مما يعجز الجهد الفرديّ عن مداناته ، فضلاً عن محاكاته .

وراحت الامور تتأزّم وتحول دون التفكير فضلاً عن المباشرة فقد بدأ يطغى علينا سيلٌ آخر أشدُّ عتوّاً وطموّاً من سيل الصحف والمجلات وأعني سيل الصحفيين الذين استهواهم ما بلغهم عن وطنية وأريحية أثريائنا باقتنائهم دارَين لمفوّضيتنا وقنصليتنا في ريو دي جانيرو

وداراً أخرى لقنصليتنا في سان باولو ، ومظاهر البذخ الشرقيّ التي استقبلوا بها سفارتنا الاولى الى بلاد البرازيل الكريمة وما اقاموه لمثلينا السياسيينّ ووفد الكتائب الذي تلاهم من المآدب والحفلات التي برزت بكل جلالها وأبهتها في رسوم أنيقة على صفحات الجرائد والمجلات ، وكلها مما يُغري ويسيل له اللعاب ، فقد أناف ما أنفق في هذه السبل كلها على مليون ليرة لبنانية ، او ما كان كافياً لانشاء محطة عالمية للاذاعة اللبنانية المطوّبة الذكر .

اما وهذا ما بدا لهم فلا لومَ عليهم اذا هم استنتجوا ان زملاءَهم العاملين في هذا الحقل الممرع يعومون في بحر من الذهب ، وهم بالنظر الى جدب حقلهم يعتبرون فوزهم ولو ببعض الفضلات نعمة سابغة . وقد أبيت وسواي من الزملاء إلاّ ان نقرّهم على زعمهم ونشدّ على ارساطنا لكي لا نفسد عليهم لذة حلمهم الذهبي هذا بالشكوى او المنّ ، متمثلين بقول القائل :

أبى دهرنا إسعافنا في نفوسنا ... وأسعفنا في من نحبُّ ونُكرمُ
فقلنا له نُعماكَ فيهم أتمّها ... ودع أمرنا إن المهمّ المقدّمُ

على ان ما سكتنا عنه نحن شعر به وقاله عنا بعض القادرين الحسّاسين الذين لم يلبثوا ان رأوا من الخرق الجودَ بالألوف على أدباء مجهولين منهم ، لم يسبق لهم ان قاموا نحوهم بأية خدمة ، والبخل بالمئات على أدبائهم الذين رافقوهم السنين الطوال وأظهروا فضائلهم وشاركوهم في السرّاء والضرّاء ، بينما هم يعلمون حق العلم أنهم ليسوا اقلّ حاجة من أولئك الزائرين .

لقد جاءَنا اولئك الاخوان لاجئين فوجدوا الملجأ الامين فعبوا حتى الارتواء وذهبوا بسلام ولكنهم لم يدلوُنا على مكان نلجأ بدورنا اليه .

ولكن اخيراً انقطع سيل القادمين فاتسع امامي مجال التفكير

وتبدَّت لي يد العناية في ما حدث فانقلبت شكواي الى شكر اذ لولا التريث لما اهتديت الى المناسبة المثلى لاصدار هذا الكتاب الذي اردت له السِمَن فابت الاقدار الا ان يأتيَ اعجفَ هزيلا .

غير ان هناك أحجية تحتاج الى تفسير هي أنه بسبب عودتي الى لبنان جاء كتابي هذا ثلاثمئة وعشرين مرة أضخم منه لو انا اصدرته في البرازيل بثماني مئة صفحة ، اذ ان مراعاة النسبة بين مساحة القطرين تقضي بأن يأتي في لبنان صفحة واحدة لا غير لان البرازيل تتسع لأكثر من ثماني مئة لبناني .

ولم اكتفِ بهذه البحبوحة أمتع بها القارىء بل انا زدتها بالحرص على المجال ان يشغله الا" المفيد والمفكه مؤدياً المعاني بأقل ما يمكن من الالفاظ ومقتصراً على ما يقتضيه سياق الكلام من الشروح والرسوم

وللقدر ان يتيح لي مستقبلاً إصدار « العهد الجديد » منه باللغات البرتوغالية والاسبانية والانكليزية لفائدة المتحدرين من أصل سوري" او لبناني" وحملهم بالاقناع والتشويق على زيارة وطني آبائهم وأجدادهم الفتانين والتمتع والاستجمام في ربوعها كلما سنحت لهم الفرص .

اما التضحية الكبرى التي سامني اياها ضيق المجال ، ولم أرَ لي مندوحة عن تحمل ألمها ومضضها ، فهي اضطراري الى إغفال ذكر جل" من جدَّدت عودتي ما كان بينهم وبيني من مختلف الوشائج والصلات الحميمة التي نشأت واستحكمت في سوريا ولبنان ومصر والسودان ، وسوى البلدين الاخيرين من المهاجر . ومثلهم اصحاب الوجوه والاسماء الجديدة الذين لقيت فيهم اخواناً لا يقلون عن اولئك في كل ما يدلُّ على نبالة الطبع وصدق الود" حتى التبس علي" الامر ولم يبقَ امامي سوى ذاكرتي الضعيفة أتهمها بالعجز عن التمييز بين القديم والجديد . ذلك ان عدد هذين الفريقين الكريمين يُحصى بالمئات وذكر ما كان لهم من اياد يملأ عشرات الصفحات وانا لا

املك منها الا بقدر ما يملك المؤتمن المحاسب مما اؤتمن عليه . وهكذا قضى عليَّ ضيق المجال البغيض بالبخل حتى بالجزاء البخس وهو العلالة التي برر بها المتنبي عجزه عن الوفاء بقوله :

لا خيل عندكَ تُهديها ولا مال فليسعد النطق ان لم تُسعد الحالُ

وجلُّ ما أسوّغه لنفسي ، دون ان يُكتب لي فيه ايُّ فضل ، هو استثناء الافذاذ الذين لا اندادَ لهم وأصحاب الصلة الوثيقة بمواضيع هذا الكتاب ويقتضي سياق الكلام ذكرهم والتنويه بفضلهم .

ولما كان هؤلاء بطبيعة الحال نزراً فسأظل بإزاء الاكثرية الساحقة بحكم المفلس الذي لا يعرف الى الوفاء واستعادة الاعتبار سبيلا .

اما الأنسباء الذين يقدّسون صلات القربى ويرعون حقوقها فقد ابقت الأيام منهم على نزر لا يجاوز اصابع اليد عدّاً . وكان اول من لقيته ابن الخال باترو يني بابادوبولس فسعيد اسعد جحا الضعونيّ الوالدة فصنوه بهيج مراد البارودي فأديب ميخائيل ضعون ثم اخوه الأكبر الياس .

ولما كانت اسرتنا مهدّدة بالانقراض من لبنان بعامل الهجرة من جهة ومن الجهة الثانية لقلة منجبي الذكور بينها فلهذا الأخير فضل إحياء ذكرها إذ هو والد لثلاثة شبان هم ميشال الموظف في وزارة التربية فجان وحبيب العاملان في حقل التجارة . اما في حاصبيا منبت الأسرة فقد اثبت الاستقراء أنه لم يبقَ منها مخبر.

اما اجرى من ذكرت في مضمار الثقافة وسعة الاطلاع والتضلع من اللغتين الانكليزية والفرنسية بحيث يصلح للمناصب العالية فبهيج البارودي ، ولا بدعَ فهو شبل ذلك الاسد .

حقيقة لا خيال

لا يعرف العدلَ من لا يسوم نفسه ما يسومه الآخرين ، ولا يدرك للغيرية معنىً من يؤثر نفسه بما ينكره على سواه . ومن اجمل ما قيل بالمعنى الأول : « من ساواك بنفسه ما ظلمك » ، إذ قصارى المرء ان يستسيغ لسواه ما يستسيغه لنفسه .

وعلى هذه القاعدة رأيت ان أُقيم للقارىء عبرة من نفسي وأقرب الناس إليّ ، فضلاً عمن جمعتني بهم الأقدار من إخواني في الانسانية طيلة نصف قرن كامل ، دون ان اكتب في ذلك لنفسي فضلاً إذ ان ازهد التضحيات هي ان ينصب الانسان نفسه مثلاً يتعظ به سواه. ومهما بذل في هذا السبيل يظل مقصّراً بازاء رسل الانسانية الذين ضحوا باغلى ما في الحياة ، وهو الحياة نفسها ، ليسعدوا الآخرين ، والأُساة الذين تعرّضوا للموت بتلويثهم ذواتهم ليجرّبوا في انفسهم فعلَ ما اخترعوه من علاجات توسموا فيها القابليةَ لتخفيف آلام المصابين بأمراضٍ عضالة او إنالتهم الشفاء التامّ .

وكان في إمكاني ان أبلغ غرضي هذا عن طريق الرواية فأستعرض حياتي باسم مستعار فأكون بمحكم من يتخذ سواه دريئةً تقيه ما قد ترشقه به الألسنة والأبصار والأقلام من سهام اللوم والازدراء، او أفعلَ باسمي الصريح على ان يُنشرَ ما اكتبه بعد موتي فأشبه من يعتصم

بجرمة الموت اتقاء ما يتعرّض له الحيّ ،مع احتفاظه بطموحه للانبعاث والظفر بخلود الذكر . ولكنّ الذي اراه هو ان اللجوء الى ايٍّ من هذين المخرَجين جبانة ادبية لم تُركَّب في طبعي .

ولما كانت العبرة بالنية فإني لأُشفق حتى على الشخص الوهميّ الذي يخلقه خيالُ الروائيّ ليلصقَ به معايبه ونزواته ويسيّره بمشيئته ويُنطقه بما يعتلج في نفسه ويلبسه حلةً من آرائه وأمانيه ويحمّله تبعةَ ما يقترفه من آثام . والذي يروعني بالأكثر ليس الصاق الفرية بالسوى ، ايا كان ، واتخاذه كبشاً للمُحرَقة، بل التنصلُ من التبعة وخدع العدالة وتحويـل سيف النقمة عن عنق المجرم الحقيقيّ الى عنق البريء ، ولو كان هذا اسماً بلا مسمى .

وأين الواقع الذي يبدو فيه وجه الحقيقة سافراً باديَ العالم راضح القسمات مما يخلقه الخيال وتموّهه الميولُ والأهواء والاغراض .وشتان بين المصطنع والطبيعيّ ، والصورة والأصل ،والتمثال الجامد الصامت الذي نحرّكه كما نشاء وننطقه بما نريد ، والشخص الناطق النابض بالحياة المسيطر على إرادته وشعوره والمغبوط على ما يجتنيه والمسؤول عما يجنيه

وكم قرأتُ وقرأ سواي من نقدٍ لما تتمخّض بـــه القرائح وتلده الأقلام من الأخيلة والصور الكلامية التي لا تنطبق على الواقع والتي لا تمتُّ الى الحقيقـة والمعقول بصلة فتخطىء القصد وتضـلُّ السبيل ، وبالتالي تفقد مزية الاقناع بأصالتها والصلاحية لأن تتخذ عبرةً وعظة

وكيف يصحُّ ان يترك الانسانُ اقرب شيء في متناوله ، او بالاحرى في يده ، ليفتش في رحاب الخيال عن المختلق المزعوم ،وهو إذا صدق وأخلص وتنزّه عن الأهواء والاغراضِ وجد في نفسه خيرَ مادّةٍ مطواع يصوغ منها ما شاء من قوالبَ واشكالٍ وخطوط وألوان

وقد سبق ابن سينا فدلّ الانسان على عظمة حقيقته بقوله :

وتزعمُ انك جِرمٌ صغيرٌ وفيكَ انطوى العالمُ الأكبرُ

فكما ان في النقطة معنى البحر فإنّ المرء ليجدُ في نفسه عالماً يغنيه عن الارتياد والاستقراء، إذ ما من شيء في هذا الوجود تقع عليه عينه وتسمعه او تسمع به أذنه ويدركه بحسه إلاّ وهو موجودٌ في تلك القطرة التي هي شخصيته .

وعلى هذا ادعو إخواني الروائيين والقصّاصين لأن يكونوا شجعاناً صرحاء فيكشفوا عما في نفوسهم لكي لا يظلّوا اسفاراً مقفلةً لا يتبيّن منها الرائي سوى ضخامة احجامها وما يزين غلافاتها من زخارف ونقوش. فاذا ما استجيبت دعوتي وتحققت أمنيتي أصبح لنا كسوانا من الشعوب أدبٌ واقعيّ لا يُقاس به الأدب المصطَنع .

وأخيراً فلمن شاء ان يشبّهني في كتابي هذا بشجرةٍ توقف نموُّها فأصبحت لا تزهو بزهر ولا تزدان بثمر ، ولكنها وهي بعد قائمةٌ ينتفع بظلها ومتى هوت فبحطبها .

وما كتابي هذا بشقّه الاول او عهده القديم سوى صورةٍ من العصر الذي عشت فيه وهو يختلف عن شقه الثاني او عهده الجديد اختلافاً كبيراً يفسح امامَ القارىء مجال المقارنةِ بين ماضي آبائه وأجداده وما آل اليه حاله فيتهيأ له سبيل الاستنتاج والاستفادة اقتداء او ارعواء في شتى الميادين .

العهد القديم

اشرحي

ما الماضي سوى مقياس للحاضر وبالمقارنة بينهما نستنتج ما اذا كنا قد تقدّمنا أم تأخرنا ، لذلك تبذل الشعوب كلّ ما تستطيعه من جهد ومال في تقصي تاريخ أسلافها والتنقيب عمـا خلفوه من مآثر وآثار تنطق بما كانوا عليه من نبوغ وارتقاء وما اتوه من بوادر البطولة والتضحية الدالة على المروءة وصلابة العزيمة وبُعد الهمة ونبالة الطباع ومكارم الاخلاق . فاذا تبدى لها بالمقارنة أنها لا تزال متخلفةً جدّت في اللحاق ، او مجليةً اعتزّت بآتيها واطمأنت الى انها احسنت الاتجار بالوزنة العجفاء التي تسلمتها .

وقدْ رأيت أن أغتنم إشفائي على السبعين لأقيم من نفسي مقياساً حياً للماضي القريب الذي عشته في الشرق والغرب لأن التدرُّج في

سلّم التطوُر والارتقاء بلغ في العقود الاخيرة من السنين حدًّا جعل زماني الاول مضارعاً لأقدم عصور التاريخ المعروفة حتى ليعدل العامُ الواحد منها قرناً بأكمله . وليس في قولي شيء من المغالاة إذ كم مرّت بالانسانية من عصور جمود لم تنتقل فيها خطوةً واحدةً الى الامام بحيث كان الحفيد لا يختلف في شيء عن جدّ جدّه في خُلقه وإدراكه وتفكيره وأسلوب معيشته ، واليومَ أصبح المرء اذا تخلف عن ركب الحضارة الجادّ في المسير بسرعة الطائرة وقاس بيئته منذ عام واحد ببيئته الحاضرة شكّ في أنه الشخص عينه وحلّ عنده أنه أصبح أثراً من آثار العهود البائدة .

لقد عشت سني حداثتي في بلدٍ كانت وسيلة الانتقال الوحيدة فيها السير على الاقدام وندر أن تُستخدم الدوابُ الا لحمل الاثقال والاسفار البعيدة المحفوفة بالأخطار ، حتى ان لدات الزوجة وجاراتها في ذلك العهد كنّ اذا اتفق لزوجها أن قام برحلة الى دمشق وعاد منها سالماً يُقبلن عليها مهنئاتٍ ومنشدات : « وجوزك يالمليحة راح عالشام وحدو » . فأصبحنا اليوم على وشك أن ننتقل حتى ضمن نطاق المدينة التي نسكنها بالطائرات العمودية ، وفي المنازل في المصاعد وعلى الأدراج المتحرّكة .

في ذلك الزمان لم يكن في البيوت ماء جارٍ وكانت وسائل الاستضاءة قاصرةً على السُرُج والشموع ومصابيح زيت الكاز . واليوم اذا انقطع الماء ساعات او النور الكهربائيُ لحظات شكونا وبكينا وسئمنا العيش كما سئمه زهير بن ابي سلمى .

أما الاستقاء فمن المجرى المكشوف القذر تُلقى فيه النُفايات على انواعها لذلك كان الفوز بالماء النقيّ نصيب المبكرّات بجرارهن والناس بعدُ نيام .

والوسائل الصحية العصرية معدومة عن آخرها والكُناسة تُطرح

في مزابل تتوسط الأحياء الآهلة التي تعجُّ بالسكان .

وكان الشيء النادر الخدمُ في البيوت ، فضلاً عن الطهاة والماشطات وتبريد الماء يقوم بتغطية الجرار لكي لا تنفذ اليها حرارة الجو ، وبالثلج الطبيعي احياناً ، اذا وُجد .

اما سينما ذلك العهد فكان « صندوق الفرجة » المتنقل يحمله صاحبه على ظهره ومعه منصب يقيمه فوقه ومقعد يجلس عليه المتفرجون لقاء بضع نحاسات ويطلّون من خلال زجاجات مكبرة ويبدأ صاحب الصندوق يدير مقبضاً متصلاً بدرَج فتروح تنبسط امامهم على جدار الصندوق الخلفي رسومُ فوارس العصور الغابرة واحداً واحداً وهم شاكو السلاح وممتطون خيولهم المطهمة ، ويعلن هو عن كل فارس يبدو للمشاهدين قائلاً : « تفرّج يا حبيبي على عنتر ابن شدّاد او الزير ابو ليلى المهلهل او ابو زيد الهلالي او دياب ابن غانم راعي الخضرا » . ويتلو كلاًّ من أولئك الابطال مَن كلف بها من الحسان ولعينيها يهون عليه أن يلقى الموت باسماً . فأصبحت سينما اليوم بهواً فخماً فسيحاً يجلس فيه مئات النظّارة على مقاعد وثيرة وتبدو امامهم المشاهد احياناً بالألوان الطبيعية وأشخاصها يتحرّكون وينطقون . ولم ارتح البتة لرؤيتي صندوقاً من ذلك العهد البائد في حيّ فرن الشبّاك لانه افسد حكمي عليه بالانقراض

ومِرناء اليوم (وهو اللفظ الذي اصاب في اطلاقه على « التلفيزيون » عبد الرحمان باشا المهدي السوداني وقد اشتقه من فعل « رنا » الذي يفيد الرؤية والسماع في وقت معاً) لا يختلف في جوهره عن « خيال الظل » وهو كناية عن تمثيل يقوم به شخص واحد من وراء ستار ابيض شفّاف يُنصب في دارٍ عمومية او قاعة منزلية رحبة ويتخذ اشخاصه من أشباح مقتطعة من الكرتون يحرّكها تبعاً لمقتضيات الدور باسياخ حديدية مثبتة في رؤوسها وينطق بلسانها بمختلف النبرات

واللهجات . وهي عملية تقتضي من المهارة والدقة اضعاف ما يحتاج اليه اليوم عارض الرسوم المتحرّكة .

ولا نجد في ذلك العهد أثراً للثلاّجة والهاتف والمذياع ، وسواها الشيء الكثير مما يزعم جلُّ معاصريَّ أن لا سبيل الى العيش بدونه ، ناسين او متناسين انّ آباءهم وأجدادهم الذين لم يتمتعوا بأيّ من هذه « النعم » عاشوا اسعد منهم حالاً وأهنأ بالاً وأنجبوهم لكي يطاولوهم ويزدروهم وينسبوا اليهم بعد عشرات السنين ومئاتها الجهلَ والعجزَ وقلة الحيلة . وأنا اؤكد لجميع اولئك المفاخرين بتفوُّقهم المعتدّين بذكائهم ، مع أنّ ليس بينهم مخترعٌ واحـــد ، انهم لا يتمتعون بمستحدثات عهدهم على اختلافها جزءا من تمتع اسلافهم بهاتيك الملاهي البدائية الساذجة . وعلى ذلك فانا اعيش مستغنياً عن جُلّ ما يزعمون أنهم يتمتعون به تضامناً مني مع أولئك الآباء والأجداد دون ان أشعر بشيء من النقص او الغبن .

إنّ الشاعر الذي قال :

مـن تردّى برداء	ما رآه لأبيهِ
سوف يأتيهِ زمانٌ	يتمنى الموت فيهِ

لم يقصـــد انكار التطوُّر والارتقاء وإنما يؤخذ من قوله أنه من اعداء الطفرة والمغالاة في الجنوح عما الفه الآباء والأجداد الى حد السخرية منهم ، ورحم الله ابا العلاء القائل :

وقبيحٌ بنا وإن قدُمَ العهدُ هوانُ الآباء والأجدادِ

ومعنى التدرُّج أن يأخذ بالجديد الاحداثُ الليّنو العود القابلون بطبيعتهم للتكيُّف فيألفونه ويصبح عندهم ملكةً ، وهذا مـــا لا يستطيعه الذين قسا عودهم ورسخت فيهم الملكات الى حد ان أصبحت جزءا من كيانهم ، فاذا هم خالفوها بدَوا كالقبيح المتحالي .

والقاعدة الطبيعية هي ان يقتفي الأبناء خطى الآباء ويعملوا بوحيهم

فيسيروا بتمهل يقيهم العثار . اما سير الآباء خلف الابناء فمخالف للقاعدة الطبيعية ولذلك لا يعين عليه الطبع . وكم هو قبيح بالأب ان يقلد ابنه وبالأم ان تقلد ابنتها ، ذاك في تعلم الرقص وهو حطبة يستحيل عليها ان تميس كالغصن الرطيب ، وهذه في التصابي بعد ان أصبحت زهرةً متفتحةً لا قِبل لها بأن تعود برعمة .

اما مضمار الانطلاق والاسترجال الذي جلّت فيه المرأة العصرية الى حد يكاد لا يصدّق فأقابله بما كان يقصه علينا في صغرنا كبارنا وهو أن عصر جَدّاتهم كان عصر خفر وصون الى حد انه لم يكن يسمح للخطيب بأن يرى حتى خفّ خطيبته التي كان يعشقها بالسماع اذ هو كان يستعير للتثبت من محاسنها عيني امه او احدى نسيباته . وكثيراً ما اتفق ان كذّبت العين ما سبق الى الأذن من رائع الوصف فاتّهم الشابُ أمه او نسيبته بالتواطوء عليه . ومما رُوي لنا عن أحدهم أنه عندما رفع القناع عن وجه خطيبته بعد ان أصبحت زوجه شرعاً وعرفاً وجده ابعد شيء عما وُصف به ، ولكن بعد التحرّي تبيّن له انه كان فريسة خداع اهل العروس الذين دسّوا أختها مكانها .

فأين هذا الذي يحسبه ابناء عصرنا حديثَ خرافة مما صرنا اليه ، لا اليوم بل من زهاء ثلاثين عاماً ، وسجله الشاعر القرويّ في مطلع إحدى روائعه النقدية الصائبة بقوله :

لحدِّ الركبتين تشمّرينا بربّكِ أيَّ نهرٍ تعبرينا

اما اليوم فلم يعد يقول شيئاً لأنه صُعق مثلي والقى سلاحه ، ولنا أسوةٌ بمن خاب قبلنا من دعاة الاصلاح

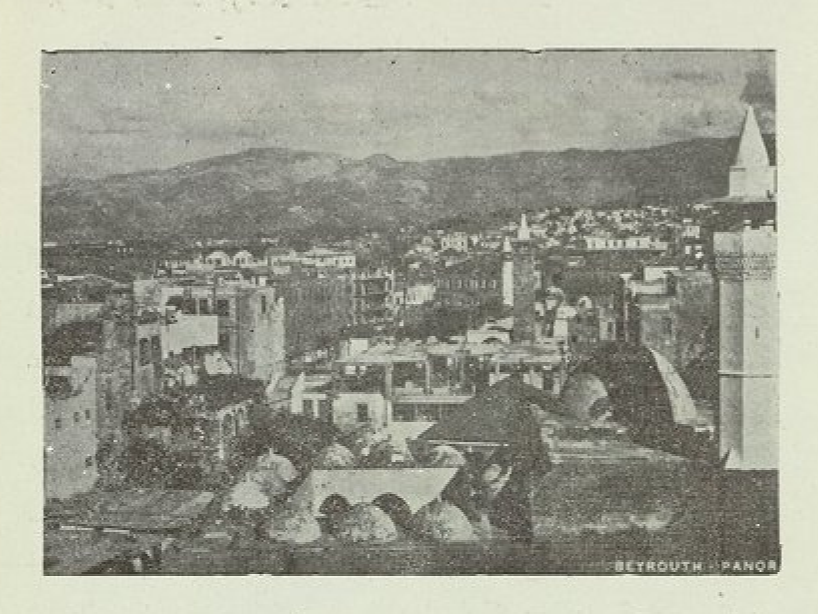
هذا يا قارئي العزيز قليلٌ من كثير مما اراه انا رجل الماضي الذي يعيش في الزمن الحاضر دون ان اتعدى في السرعة ركوبَ القطار الذي استُحدث في بلادنا على عهدي وركبه والدي من قبلي . ولو لم يتوفّه الله قبل مجيء السيارة لأبيت ركوبها قبلَ ان يسبقني هو اليه .

اما الطائرة فما شأني بها وأنا من عهد الحمير ؟

اما من الوجهتين الأخلاقية والاجتماعية فأؤكد ان ما من موبقة تُرتكب اليوم إلا كان ابناء زماني يرتكبون مثلها ولكن على قلة واستحياء بينما يكاد ارتكاب المعاصي يعمُّ ويصبح من دواعي الاعتزاز والافتخار كما أصبح التمسك بالفضائل من مستوجبات الخجل والاستتار

والمؤلم حقاً اننا قد استسلمنا بكليتنا للمال واتخذناه من دون الله معبوداً فأصبح تفلتُنا من جاذبيته اصعب من تفلتنا من جاذبية الارض دون استثناء من نذروا العفة والفقر .

« درة تاج آل عثمان »



(مشهد من مدينة بيروت مسقط رأسي)

نشأتُ وبيروت في خيالي مدينة السحر والجمال وحبي لها عاطفيٌ يكذّب السمعَ والبصر في ما قد يكبح من جماحه او يديل من حدّته وشدّته . فصح بي في حبها القول المأثور : « والأذن تعشق قبل العين حيانا »

وكانت محدّثتي عنها شقيقتي التي سبقتني الى معرفتها فلا تني كلما عادت منها تشنّف سمعي بأوصافها ، مطريةً ما شاء لها الاطراء بحرها وجبلها وجمال ابنيتها ومتنزّهاتها ولطفَ اهلها وظَرفهم وسحر حفلاتهم ومجالسهم الأدبية والفنية وطرافة مداعباتهم ولهوهم .

وبديهيٌ ان تلك الصوَر لم تكن تسلم من شائبة الغلوّ ولكنه غلوٌ

مغتفرٌ لفتاة لم يكن في مقدورها ان تتعدّى الدائرة الضيقة التي حدّدها لها حرصُ الأقرباء او ترتاد أُفقاً ارحب من ذاك الذي أحاطها به احترامهم للتقاليد ورعيهم للعادات .

ولكن اخيراً جاء دوري فأممتها في احد ايام خريف ١٨٩٥ ورحت منذ اليوم التالي لوصولي أطوف في ارجائها مستطلعاً مستقرئاً وظللت أؤمها عاماً بعد عام وأقضي فيها الأيامَ والأسابيع والاشهر حتى آخرِ عهدي بها وهو احد ايام خريف ١٩٠٩ دون ان الحظ فيها ، في تلك الفترة غير القصيرة من الزمن ، تطوّراً يُذكر فكأنها تمثالٌ لا حياة فيه تعينه على الحركة والنمو ، فباستثناء بعض القصور والدور المحاطة بحدائق بديعة التنسيق كانت ابنيتها عادية لا تستلفت النظر ، وفي جلّ احيائها ما يُخجل من المباني الرثة المتداعية القائمة الى جانبي ازقة ضيقة متعرّجة ، وليس فيها من الساحات ما يستأهل شرف هذه التسمية سوى ساحة البرج ، وكانت تضيق بحديقة « المنشية » التي تتوسطها . اما معظم وسطها التجاريّ فقد كان يمتاز بالضيق والرثاثة والقذارة ، ووسائل الانتقال فيها لا تعدو الأقدام للمكرهين على التعرُّض للغبار الثائر صيفاً والوحل المتطاير شتاء ، او المركبات التي تجرُّها الخيول يركبها القادرون فيسلمون ويكون فريستهم المشاة الذين يتعرضون لِما تقدّم ذكره من المحرجات ، وكثيراً ما كنت احدَ هاتيك الفرائس في تنقلاتي بين الكلية الاميركية في رأس بيروت ومحط رحالي في وسط المدينة ، ومع كل ذلك استأهلت لقب «درّة تاج آل عثمان» . فاذا كانت وهذه اوصافها درّةً فلست ادري ماهي الصدفة .

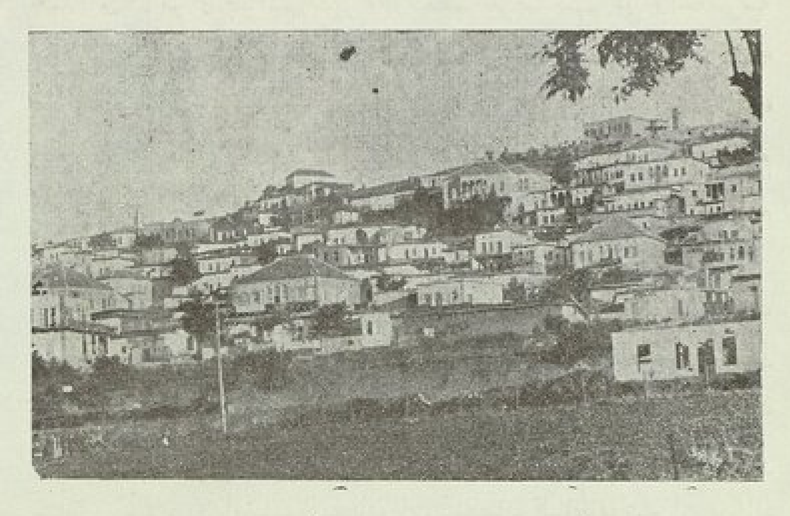
ولكنّ شيئاً مما ذكرت لم يكن ليرخص قيمتها في نظري لأنني ما كنت قد عرفت قبلها سوى معلقة زحلة ، وهذه كبلدة ريفية متواضعة لم تكن لتصلح صدفةً لها .

على انّ ما كان حريّاً بان يغض من محاسنها ويفقدها خلابتها هو

ما تكشفت لي عنه من فقدان العدل والنظام والأمن مما كان يُمِضُّ السكان في سرّهم ولا يكتفون بنفيه في جهرهم بل يعكسونه بتسبيحهم بحمد أُلي الأمر وإطرائهم لسهرهم وتيقظهم حرصاً منهم على راحة الرعية ورفاهها ، كاتبين الفضلَ في هاتيك النعم كلها لطاغية ذلك العهد الموبوء عبد الحميد الثاني الذي لقب بحق « بالسلطان الأحمر » ، والى القارىء قطعة من البيان « العالي » كتبت في تمجيده عام ١٩٠٤ بمناسبة إنعام الله ، على رعيته لا عليه ، بمولود جديد ، إذ لم يكن جائزاً ان ينعم أحدٌ على جلالته بشيء ولو كان المنعم اللهُ عز جلاله :

«انعم الله تعالى أمس على الامة العثمانية جمعاء بأكرم مولود من أشرف سلالة تحدّر منها القابض بيمينه على صولجان السلطنة العثمانية والمتقلد زمام شؤونها السنية ، مليك البرَّين وخاقان البحرَين المحفوف بملائكة السلام والنصر والمطأطئة امام عرشه الانور هامة الدهر . ألا وهو سيدنا ومولانا بلا امتنان السلطان ابن السلطان السلطان عبد الحميد خان الذي أنام الأنام في مهد من الأمن فرتعت الرعية في أيامه بالعزّ والانعام فلا بدعَ إنْ هي اعدّت ما اعدّته لجلالته من اسباب التكريم والتمجيد ودعت لملكه السعيد بدوام العزّ والتأييد »

وبقيت بيروت عروس احلامي أوثر الاقامة فيها وأستسيغ كلّ ما تعافه نفسي من مساوئها لكي لا يفوتني التمتع بهاتيك المجالس الأدبية التي كانت تُعقد فيها وتضم خيرة رجال الفكر والأدب والظرف ، ولأن ما رسخ في ذهني من مفاتنها كان الأسبق وقد عجز عن محوه واقعُ السمع والبصر كما قدّمت .



(مشهد من معلقة زحلة حيث نشأت ورديت)

والحق يقال ان المعلقة فردوس ارضي ، أفليست هي عروس السهل المتصلة بزحلة عروس الجبل ؟ أليست آية الجمال والجلال بأبنيتها المدرّجة وطرقها المصعدة المتعرجة ، ينساب الى يمينها فرع من البردوني قامت تحته الرياض الظليلة التي يخترقها نهر البردوني نفسه فيشطرها شطرين ويجعل من اشجارها الباسقة سربين من العرائس الدائمة التوائي في صفحته الصافية ، او صفين من الجبابرة يذودان عن حياضه ويحنان به إكباراً واجلالاً وهو لا ينفك عن السير باندفاعه وتهداره المخيف شتاء وبطئه وخريره العذب صيفاً ، جارياً على حصباء كالدُرّ تداعب مياهه الصافية النسمات البليلة التي تتهادى ابداً بين معاطف ذلك الوادي الفتّان ؟ والى يسارها البيادر التي هي ملاعب أنسٍ ولهوٍ وصفو في معظم ايام العام وتصبح اوفرَ جمالاً رفتنةً إذا ما جُمعت فيها اكداس المحاصيل وقام

الفتيان والفتيات والأولاد يمهّدونها بنوارجهم ويوسعونها دوساً وضغطاً حتى تتحوّل بالتذرية الى اكوام حبوب ذهبية . وما كان احلى هاتيك الاكداس والأكوام يستظلُّ بها المتعبون والقائلون والعاشقون .

ووراء البيادر التلال المزركشة بالكروم البديعة التنسيق التائهة بما تحمله من العناقيد الدرية التي ذهبت الطبيعة في صوغها كلّ مذهب وخلعت عليها من زاهي الألوان وفاتنها حللاً لم يتشح بمثلها محبَّب

وما الطف هاتيك الخيام المعلقة المبثوثة في انحائها ينقطع اليها المصطافون يعيشون منها على سذاجتها في قصور فهي مقيلهم ومبيتهم لا يغادرونها إلا لاقتطاف الاثمار الشهية والتمتع بالصيد لاهين عن كلّ ما يمرّر العيشَ وينقضُ المضاجع من التزاحم والتكالب الدائرة رحاهما في الأوساط التي نسميها اصطلاحاً متمدنة . فإذا ما شعروا بالعطش وردوا خيرَ ما يشفي الغليل من العيون والسواقي الجارية في أنحائها والمتبارية بعذوبتها وصفائها تبارياً في سرعتها وإبطائها .

وأمامها صفحةٌ هي أجمل من كل ما ابتدعه الفكر وأبلغ ما خطته يد الانسان على وجه ذلك السهل الخصيب من البساتين التي تنمو فيها انواع الأشجار المثمرة والخضر الشهية ، تتلوها الزروع المتماوجة المتحولة رويداً من نضرة الرجاء وخضرته الى صفرة البلوغ او سمرته .

والمقيمون ينامون على السطوح صيفاً تحت سماء صافية مرصعة بالبدر والنجوم وينهضون عند الفجر فيؤمون الساحة ليلتهموا الفواكه الشهية الآتية لساعتها من السهل ، فاذا ما جاء الشتاء أتى دور التمتع بالسهر والسمر حول الموقد في جوّ يشيع فيه الصفو ويزينه ارتفاع الكلفة وراجت سوق الالعاب والنكات والاحاديث العائلية التي تنتهي بالتربع حول مائدة مثقلة بكل شهيّ من الحلوى والفاكهة .

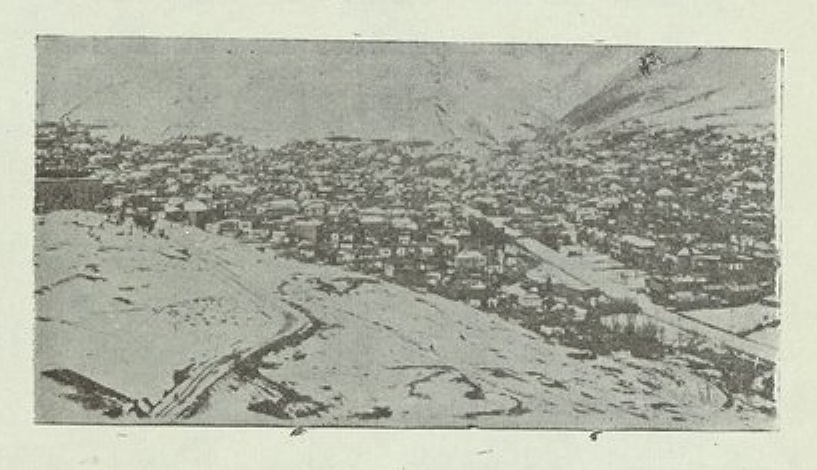
والعيش سهل والكسب الذي يفي بالحاجة ميسور لتوفر الصحة ووفرة النشاط ، وأسباب الرغد تحصى بالعشرات والحيل على إحلاء الحياة

لا عداد لها ولا نفاد ، فمن سيارينَ على ضفاف النهر والجداول والسواقي والعيون في الكروم والبساتين وعلى الصفة في زحلة ، الى رحلات دورية الى البلدان والقرى المجاورة وكلها تتبارى حسناً وتتيه جمالاً ، على الاخص في ايام المواسم والاعياد اذ تؤمها الجموع من مختلف الانحاء وفي جميعها يجد الزائر المأوى والقرى وحسن الوفادة كأنه تعوّض عن اهلٍ باهل واخوانٍ باخوان في حين انه كثيراً ما لا يعرف مضيفه

أفليس هذا هو التضامن الانسانيّ الذي يَنشده الغيريون والاشتراكية الحقة التي يتبجح بتعشقها الأنانيون ؟

هذا هو الفردوس الذي فقدته وما عشت في مكان الا حننت اليه .

عروس الجبل



(مشهد شتوي رائع من زحلة عروس الجبل ومعقل الحرية)

إذا اعتبرنا المعلقة بمثابة اللباس اليومي" كانت زحلة لباس العيد ، او كانت تلك غرفة الطعام كانت هذه غرفة الاستقبال . لا بل ان سكان المعلقة كانوا يشعرون شعور بني اسرائيل في مصر ايام كانت هذه لهم ارض العبودية فاذا ما انتقلوا الى زحلة خالوا انفسهم كبني اسرائيل عندما

انتقلوا الى ارض الموعد التي تفيض لبناً وعسلاً .

وما ذلك لان زحلة كانت الافضل من حيث توفر حاجيات المعيشة وسهولة الحصول عليها بل بالعكس لان المعلقة كانت لزحلة كالأهراء لكل ما تحتاج اليه هذه من حبوب وبقول وخضر ووقود ، او بمثابة الميناء لكل ما يرد من الخارج من الحاجيات الأخرى ، فكل شيء كان يجب ان يبلغها قبل زحلة ، كما انها كانت الممرّ الوحيد الذي لم يكن للزحليين بدّ من اجتيازه الى بساتينهم وحقولهم في السهل حيث يزرعون ويجتنون ويحصدون ، والى دار حكومتها كقصبة البقاع حيث يجرون المعاملات المختلفة ويؤدون الضرائب والرسوم عما يملكون ويجتنون ، والى سوريا والعراق وبر الأناضول لاستجلاب الأغنام .

ولكنّ السبب الحقيقيّ الذي كان يزين زحلة في اعين اهل المعلقة هو ان هذه كانت موطن الظلم والاستعباد حيث تطأطىء الرؤوس وتحنى الركب ويُصفع الخدُّ الايمن فيحوّل الأيسر ، بينما كانت زحلة معقل الاباء وموطن العزّة والكرامة ، فيها يتنشق المرء نسيم الحرية ملء رئتيه ويُؤمن بالآية القائلة إن الله خلق الانسان على صورته ومثاله . لذلك كان الحد الذي يفصل بينهما حداً بين النعيم والجحيم

هذه هي زحلة التي كان يؤمها سكان المعلقة ايام الآحاد والأعياد صيفاً فيتضاعف تمتعهم ، لا لأن بلدتهم يعوزها الجمال بل لانها كانت تنقصها الحرية ففي زحلة كانت تُشحذ العزائم وتتغذّى الارواح وتنتعش النفوس ، حتى إن موظفي الدولة من ادناهم الى اعلاهم كانوا ينالون فيها البرء التامّ من غطرستهم وقسوتهم وفحتهم ويتحوّلون من ذئاب خاطفة الى حملان وديعة .

هذا هو فضل زحلة على المعلقة ، وهو فضل لا يعدله كلُّ ما في الارض مما يكسو الجسوم ويملأ البطون ، لان النفوس اذا ذلّت فعلى الراحة والتمتع والهناء السلام ولو كان المقام في النعيم .

فنن من شجرة سلالية

(في ان الارث سم يتركه المورّث للوارث)

كانت جدّتي لابي امرأة حكيمة مدبّرة صارمة في تربية بنيها صبورة على المكروه لانها بعد ان ذهب جدي يوسف ضحية حوادث سنة ١٨٦٠ في حاصبيا تاركاً لها اربعة ايتام اكبرهم في الثامنة ، وهم اعمامي اسكندر ومهنا واندراوس ووالدي فضل‌الله ، وهو ثالثهم ، قدمت بهم مع من قدموا الى بيروت من منكوبي وادي التيم واستطاعت بما خبأته لليوم الأسود وما اصابها من التعويضات أن تربيهم تربية صالحة وتزوّدهم بقسط لا بأس به من العلم الذي فتح امامهم طريق العمل والارتزاق

اما جدّي لأمي فكان يونانياً من جزيرة قبرص يُدعى يني بابادوبولس ، قدم منها الى دمشق ككاتم اسرار للبطريرك الانطاكي للروم الارثوذكس ايام كان جميع اساقفة الكرسيّ من اليونان . وبعد ان اقترن بفتاة من أسرة عبود انتقل الى بيروت كوكيل للبطريركية وحلّ داراً تتسع لسكنه وعمله واستضافة المطارنة ، يتصل بها عند مدخلها صفّ من الغرف لمبيت من يصحبهم من الاتباع والخدم ، امامه فناء رحب وخلفه حديقة للخضر والازهار والاشجار المثمرة.

وأنشأ في سوق الحميدية مكتبة اطلق عليها اسمه وأنجب ثلاثة

ذكور وثلاث إناث ثالثتهم ماريغو والدتي. وكان شديد التعلق بوطنه ولغتـــه بحيث اكسب اولاده جميعهم الرعوية اليونانية وعلمهم لغة هوميروس. وظلّ على اتصال وثيق بأنسبائه في قبرص يراسلهم ويراسلونه، واستمرّت هذه الصلة وانتقلت من بعده الى بنيه وحفدته

وكان يباري في صلاحه وتقاه خيرة ناذري العفة والفقر من عاية رجال الكهنوت كما اشتهر واصبح مضربَ المثل في الصبر وطول الاناة وصون اللسان الى حد انه اذا اتفق ان اخرجه حادثٌ ما عن وقاره فقال بلكنته اليونانية «يخزي كوّته شيطان» تناقلت الالسنة النبأ وأجمع عارفوه على ان ينبي في ذلك اليوم سبّ الدين!

وخلفه في ادارة المكتبة بكره عبده وجرى على خطته في يوننة اولاده جنسيةً ولغةً، وكان على حق اذ ان الناس كانوا في ذلـك العهد يهربون من الرعوية العثمانية هرب السليم من الاجرب. ولم يشذّ منهم سوى قسطنطين ولكنه بدلاً من ان يتترّك استعرب فانصرف الى الادب والصحافة ثم انغمس في السياسة وتعرّض لمثل مصير صديقه الحميم باترو باولي ورفاقه البررة ففرّ الى الحجاز ولجأ الى المغفور له الملـك الحسين فلقي عنده حظوةً. وهناك اطلق لحيته وأصبح يعرف بالشيخ قسطنطين ورافق صديقه الحميم امين الريحاني في بعض رحلته في بلاد العرب واليمن.

ويعنيني من هذه الشجرة ثمرتان هما خالاي نقولا وإفجنيا لما كان لهما من اثر في حياتي وما في سيرتهما من عبرة لسواي:

لقد جنى عليهما وهما بعد في سن الزهو والطيش إرثٌ لا بأس بـه في ذلـك العهد انتهى اليهما بأكمله من خالٍ لهما اسمه اسكندر عبود بفضل تنزّل بقية أشقائهما عن أنصبتهم فيه فتمتعا به عن المرحوم وعاشا عيشة بذخ وترف حتى اتيا عليه في سنوات معدودة. ذلك أن خالي اصبح بعد تلك البحبوحة العارضة يستقلُّ كلَّ كسب ويستهين بكل

عمل ويرى من الغضاضة أن يعلوه من كان بالامس دونه برغم اهليته ككاتب حسن الخط والانشاء ملمّ بالحسابات التجارية . وخالتي التي كانت على جانب من الجمال باتت لا تجد لها كفوءاً بين الطلاب العديدين الذين كانوا يطرحون قلوبهم على قدميها فلا تقابلها الا بالاعراض والازدراء . وبحكم إملاقهما معاً راحا يعيشان شبه عيّلين على أخيهما الاكبر حتى جاء خالتي خاطباً شخصٌ اسمه حبيب النجار من أسرة طرابلسية يحترف المحاماة في الاسكندرية فرأت فيه وقد لان منها الجانب وقسا العود الزوجَ المنشود ولكنها ترملت بعد ايامٍ معدودة ، لا فقداً بل هجراً ، إذ أن ذلك الزوج المرتجَل كان من دناءة الطبع بحيث هجرها عائداً الى مقرّ عمله في القطر المصريّ وعجزت عن ردّه كلُ حيلة ووسيلة ، وفي جملتها توسط الاهل والأنسباء الذين زارتهم الزوجة المهجورة في مقرّهم في طرابلس وعادت وكلُ عزائها أنهم تنصلوا من سلوك الزوج الشائن وشاطروها ألمها واستياءها منه .

ولم تتحمل اعصابها صدمة الهجر تتلو صدمة الفقر فأصبحت نارية الطبع حادة المزاج الى درجة لا تُطاق فتغضب لسبب ولغير سبب وتصاب بصداع شديد يلازمها اياماً ولا ينجع في ازالته علاج . على انها كانت اذا ما زايلها تصفو ويعود اليها زهوُها فتعقد مع مهجورتين مثلها مجالس تروج فيها بينهنّ سوق الدعابة والتعاير والتفاخر وبناء القصور في الهواء بأساليب رقاعية تشوق وتروق اذ كانت كلٌ منهنّ تنافس ندّتيها مؤكدةً لها ان زوجها الهاجر لا شكَّ عائدٌ اليها تائباً مسترضياً فيسكنها بيتاً فخماً مستكملاً اسباب الرفاهية ويغدق عليها آنق الملابس وأثمن الحلى .

وكان خالي نقولا آيةً في النظافة والاناقة واللباقة والترتيب شديد العناية بمظهره وهندامه يداوي إملاقه بمراعاة قواعد الاقتصاد الى ابعد حد ممكن فلا يعتمد على احد في ما يستطيعه كتنظيف ملابسه ورتقها

وكيها وحلاقة ذقنه ومسح حذائه وطهي بعض ما تشتهيه نفسه من المآكل بأقل نفقة ممكنة ، كما كان يُعدّ لفائفه من ارخص انواع التبغ التركيّ المهروم ويجعلها من النحافة بحيث تشبه منقب الاسنان

وكان مركبه نعلاه حتى في رحلاته الى الجبل صيفاً حاملاً حقيبة يدوية يودعها كلّ ما يحتاج اليه حتى الابرة والخيطان والكستبان والمقص ومفتاح علب المحفوظات ويقصد كلّ أسبوع الى ناحية فيتمتع تمتعاً حقيقياً بنفقة زهيدة يبذل اضعافها القادرون دون ان يظفروا بجزء زهيد من تمتعه .

ومن افضاله عليّ اني اخذت عنه الشيء الكثير من صفاته واساليب عيشه وأصبحت بذلك مخولاً .

مراحل حياتي

مولدي – بموجب تاريخ مدوَّن في صفحة مهملة من توراة قديمة كانت عندنا وُلدت في الحادي والعشرين من الشهر العاشر من سنة ١٨٨٣ ولكن بعد زمن أكدت لي نسيبةٌ حضرت ولادتي أن هذا التاريخ مغلوطٌ فيه وأنني وُلدت فعلاً في الشهر الثالث لا العاشر من ذلك العام فلم اتردّد في إقرار قولها وإلغاء التاريخ المدوّن في توراتنا ، اولاً لانني لا ارى شيئاً من الحكمة في التصابي واختزال أية مدة من العمر لعلمي أن كلَّ ما يمكن أن أجتنيه من ارتكاب مثل هذه السخافة الشائعة لا يعدو أن اعيشَ ما عشتُ مخدوعاً وخادعاً وأموت قبل أجلي المحتوم وأبكى شاباً وأنا كهل او كهلاً وانا شيخ ، وثانياً لان الفرق بين التاريخين زهيد ولا يمكن ان يهمَّ احداً من الناس ان اكون قد ولدت في النصف الاول او الاخير من عام ١٨٨٣ .

المهم انه في احد هذين التاريخين المتقاربين من ذلك العام اتيت الى هذا الوجود وكانت ولادتي في مدينة بيروت وسُميت توفيقاً فكنت في عداد الكثيرين الذين تخالف اسماؤهم مسمياتهم .

هجرتي الاولى – ولكن قبل انقضاء العام الثاني على ولادتي قضت الاقدار بأن تكون نشأتي في بلدة خاملة بدلاً من ان تكون في مدينة زاهرة لان والدي كان قد اعتزل مضمار التجارة وآثر مكرهاً العيش في تلك البلدة من شق القصبة .

دراستي الابتدائية – دخلت وانا بعد في الرابعة مدرسةً ابتدائية فلم يكن الحفظ صعباً عليَّ برغم عقم وسائل التعليم في ذلك العهد . وبعد عامٍ وبعض عام اقتادني رفاقي الى بيتنا مكتوفاً إيذاناً بتخرُّجي من المدرسة الارثوذكسية . وعندما رأتني والدتي اعتنقتني ودموع الفرح تطفر من عينيها ثم حلّت وثاقي ووزعت على رفاقي حفنات من الزبيب والقضامة

وغبَّ وفاة والدتي دخلت المدرسة الانجيلية حيث مجال التحصيل ارحب وفيها لبثت خمس سنوات أهّلت نفسي في ختامها لدخول الكلية السورية الانجيلية في ذلك العهد والجامعة الاميركية اليوم.

دراستي الثانوية – دخلت الكلية قبل ان ابلغ الثانية عشرة، وكان ذلك في خريف سنة ١٨٩٥ . ولأسباب سيأتي ذكرها غادرتها في نهاية السنة المدرسية ولم أعد اليها الا سنة ١٩٠٢ ، وفي صيف سنة ١٩٠٣ نلت شهادتها الاستعدادية . وفي غضون مدة الانقطاع عن الدرس قمت برحلة قصيرة الى الاسكندرية سيأتي ذكرها .

هجرتي الثانية الى القطر المصري – في خريف سنة ١٩٠٣ أممت القاهرة حيث لبثت حتى العشرين من شهر تموز سنة ١٩٠٤ ، وهو اليوم الذي ركبت فيه القطار قاصداً الخرطوم كموظف في حكومة السودان .

هجرتي الثالثة الى السودان – قضيت في هذا القطر عشر سنوات أقمت جلَّ السبع الاولى منها في الخرطوم والثلاث الاخيرة في بورت سودان . تُستثنى من المدة الاولى اربعة عشر شهراً وهي الزمن الذي استغرقته مأموريتان وقتيتان قمت بهما : الاولى في واو حاضرة مديرية بحر الغزال والثانية في مركز رفاعة من اعمال مديرية النيل الازرق ويستثنى ايضاً عامٌ كامل هو مجموع العطلات الثلاث التي قضيتها في ربوع لبنان في غضون السنوات ١٩٠٥ و ١٩٠٧ و ١٩٠٩ . وتُستثنى

من المدة الاخيرة عطلة شهر قضيته في الخرطوم وأربعة اشهر قضيتها في بروكسل عاصمة بلجكا سنة ١٩١٢ .

هجرتي الرابعة الى البرازيل – في شهر شباط سنة ١٩١٤ اعتزلت الخدمة نهائياً وغادرت السودان قاصداً بروكسل ثانية حيث قضيت خمسة اشهر ومنها بطريق امستردام في هولندا الى البرازيل التي وصلتها في الثالث عشر من الشهر العاشر من ذلك العام عينه .

هجرتي الخامسة الى تشيلي – بعد أن قضيت في سان باولو حوالي عشرين عاماً اقترنت في غضونها وأنجبت، وأممت مراراً العاصمة الاتحادية وبعض الحواضر والبلدان الشمالية والجنوبية تسنت لي هجرة خامسة الى جمهورية تشيلي بطريق بوينوسايرس عاصمة الارجنتين حيث قضيت ثلاثة اسابيع ، وكان ذلك في شهر شباط سنة ١٩٣٤ ، وعدت منها بطريق مضيق مغاليانس في شهر نيسان سنة ١٩٣٧ ، بعد أن اقمت طويلاً في عاصمتها سنتياغو وذرعتها شمالاً وجنوباً وأممت عدداً كبيراً من مدنها وقراهـــا .

وفي سان باولو حططت ثانية عصا الترحال حتى كانت رحلتي الاخيرة الى لبنان ، ولست ادري مـــا يخبئه لي القدر ، خلا الرحلة النهائية المحتومة .

من الاجمال الى التفصيل

(مساوىء الانتساب وما يولده من مساوىء)

كيف نشأت – كان والدي في عهده وفي محيطه من خيرة الكتاب والمنشئين ، حسن الخط عارفاً بالحساب ضليعاً من علم الحقوق مما أهّله للوظيفة الحكومية التي شغلها في المعلقة وأضاف اليها بدرايته ودربته

بضع مهن فرعية تدرُّ عليه بعض الكسب علاوة على مرتبه الذي لم يكن يفي بحاجته ، وكان فوق ذلك محدّثاً لسناً وراويةً ذا حافظة نادرة ، كما كان يجيد الانشاء ويحسن الضرب على العود . ولكنني اذكر ان كسبه كان يتراوح تراوحاً هائلاً فيلعب احياناً بالذهب وتفوته في سواها الفضة ، وكنت انا وسواي من افراد العيلة ننعم ونشقى تبعاً لذلك التراوح .

وكانت مزايا والدي الآنفة الذكر ينعكس تأثيرها عليّ وينالني بفضلها ما لم أكن استحقه من عطف ورعاية الجيران والأصدقاء والمعارف ، فقد كنت ابن الافندي وكفى.

ولم اكن مقصراً في استغلال منزلة والدي في قلوب القوم فكنت منذ حداثتي احضر كل اجتماع ولا تفوتني وليمة او جلسة طرب ، ولا يثنيني شيء عن التباري في مضمار البحث او الجدل على قلة بضاعتي وضعف رأيي وركاكة أسلوبي فينالني من والدي ما لا أرضاه ولكن على غير طائل . وكنت في كل ذلك مستثنىً عن جميع اترابي من ابناء الموظفين الآخرين وسواهم من مختلف الطبقات . وهكذا نشأت مستقلّ الرأي بشيء كثير من الغطرسة والعناد والدعوى الضارّة الممقوتة وهي داء خبيث فتّاك قمت على معالجته منذ بلغت سن الادراك حتى اليوم ، وانا اعلم وإن جهل او تجاهل الناس أنه لا تزال فيّ منه بقية

اما الداء الآخر الذي تأصل في نفسي منذ حداثتي فهو ازدراء بيئتي والطموح الى العيش في البيئة البيروتية التي رسمت منها في ذهني اجملَ صورةٍ تستهوي الحدثَ الذي كنته ، متخذاً الوانها الخلاّبة مما كان يقع في سمعي من اوصافها على ما قدّمت ، بحيث كنت في معلقة زحلة العاثرة جسماً وظلاً وفي بيروت الزاهرة روحاً وعقلاً ، فما كان اشبهني بنبتة لم تكد تبرز الى الوجود وتستقبل اوراقها النورَ والهواء حتى اقتُلعت وغُرست في تربة جديدة. إنها بالطبع لا يمكن أن تنمو النموّ

المطلوب ، وهذا ما حدث لي في مستهل عهدي بالنموّ والتطوُّر فلا عجب أنني عندما بلغت العاشرة كنتُ أؤرّخ رسائلي الى انسبائي البعيدين هكذا : عن « جهنم » !

آرائي ومبادئي – اما آرائي ومبادئي فقد استمددتها من سماء الخيال التي كنت دائماً وأبداً محلّقاً فيها ، وعلى هذا الشكل عشت في محيطي غريباً أحدّث الناس بلغة لا يفهمونها وأسمع منهم مـــا لا اجد له في قاموسي مرادفاً او تفسيراً : كنت اكره الكذبَ وهو في عرفهم « ملح الرجال » ، والاخلافَ وقاعدتهم المأثورة فيه : « الف قلبه ولا غلبه » ، والعبودية وآيتهم في احتمالها : « الايد اللي ما بتقدر تعضها بوسها وإدعي عليها بالكسر » و « الارض الواطيه بتشرب ميتها وميه غيرهـا » . فلا عجب إذن أنني كنت بينهم عنوان البلاهة يشفقون بسببي على والدي وهو بدوره يشفق عليّ ويتنبأ لي بسوء المصير اذا انا لم أقلع عن عنادي وأجارِ الناس في مـا لا يرون سبيلاً الى العيش بدونه من المرونة الخلقية والرياء المألوف . وقد صحت نبوءته عليّ لا في ذلك المحيط الساذَج فقط بل في كل مكان نزلته وصقع حللته ، ولا استثني بيروت عروس احلامي !

يكفي لاثبات ما تقدّم كمثال على الشذوذ الذي كنت ارتكبه وُيكتب لي كأكبر الجرائم أن والدي كان احياناً يوصيني بتضليل من قد يجيء في طلبه فكنت بدلاً من ذلك أُصارح القادمَ قائلاً إن والدي في البيت وقد اوصاني بأن أنكر وجوده

وكنت ابعدَ الناس عن المسايرة التي يُعبّر عنها بحسن السلوك فأكشف للناس كذبهم وأُصارحهم بما تبدّى لي فيهم من عيوب فأوقع والدي في مآزق وأجرُّ عليه عداوات وينالني منه التقريع وأحياناً الضرب وأنا راضٍ كل الرضى عن كل ما يصيبني في سبيل الحقيقة التي قلّ نصراؤها في ذلك العهد ولا يزالون على ما رأيت وأرى حتى اليوم قليلين

والانصاف يقضي بالقول إنني في ما تقدّم عنيت السوادَ ولا بدّ لي من استثناء بعض أرباب العيال الذين كانوا في طليعــة الآخذين باسباب الارتقاء وقائمين على تهذيب اولادهم ذكوراً واناثاً في المدارس وفي كليات بيروت وسواها ، وكان الكثيرون منهم قد بدأوا يرتدون الملابس الافرنجيــة غير عابئين بما يصوّب اليهم من سهام النقــد ويتعرّضون له من الرقاعة المحرجة بسبب تغييرهم زيّهم الوطنيّ ولبسهم « المزّمك » . وفي طليعة ما اذكره كمقياس لاستهجان الرأي العامّ ذلك التطوُّر الذي كان جارياً بسرعـــة مدهشة بين طبقتي الوجهاء والموظفين ان لاعب النرد كانت اذا سنحت له فرصة للتفوُّق على خصمه بلعبة اعانه عليها « الزهر » يخاطب نفسه بلهجة تهكمية قائلاً : « لـبّسه باصي فرنجي » !

وقد عرفت الكثيرين من الشبان الذين اصابوا قسطاً وافراً من العلم وتحلّوا بالأدب العالي والتهذيب الصحيح ونشأت بينهم وبيني صلات ودٍّ مكينة لم يقوَ البعد على فصمها ، وفي طليعتهم موسى حنا غور الذي أصبح فيما بعد وزيراً .

وكانت زحلة طبعاً الاسبق الى الأخذ باسباب الارتقاء لما سبق لي ان ذكرته من العوامل والوسائل التي كانت المعلقة محرومةً منها .

على انه تبدّى لي فيما بعد أنني كنت متسرّعاً في الحكم على محيطي البدائيّ الذي نشأت فيه إذ اثبت لي الاختبار وأرتني عين العقل في كل مكان أممته او استوطنته ان الناس على اختلاف مراتبهم ومظاهرهم كالناس الذين عرفتهم في ايام حداثتي ويختلفون كلّ الاختلاف عن الصورة التي رسمتها منهم في ذهني . ولسوء طالعي وجدت في المدنيين كلّ عيوب القرويين بينما انا عهدت في هؤلاء خلالاً لم اجدها في أولئك ، وفي طليعة هذه الخلال السذاجة والمروءة وصدق الود . وبعد ان أصبحت بعيداً عن موطن حـداثتي ، لا أؤمه الا زائراً ، تحوّل في

نظري الى نعيم وغدوت اشعر شعور جدنا الاول بعد ان طرد من الفردوس .

ولكن ما الحيلة وقد شاء لي القدر أن أعرض عن نصح والدي لأحرز قسطاً من العلم وأدأب وأعيش في وسط متمدن . ومع اني أممت مختلف الاقطار في قارات اربع من هذا المعمور وعاشرت وعاملت شتى الطبقات التي احرزت نصيباً وافراً من العلم والغنى والجاه أراني وقد بلغت الحد الاعلى الذي وضعه داود لفسحة العمر - على خلو عصر ذلك النبي والملك من جل شوائب المدنية الحديثة - لا ازال متطلعاً متلمساً لعلي أظفر ولو بخيال المدنية الصحيحة التي قضيت ربيع الحياة أتخيلها وصيفها وشتاءها انشدها

وبعد سعي متواصل وجهد قاتل ظفرت برأس مال زهيد من العلم زدته اضعافاً بالمطالعة والتنقيب والاقتباس والدرس على نفسي لكي احيا في النهاية حياة مكتبية مضنية مضنكة ، عائشاً لغيري خادماً مصالح ومآرب سواي لقاء مورد ضئيل يكاد لا يفي بالكفاف او كسب اعجف لا يعدو أن يمسك الرمق ويستر العري ، وإذا سخا منه المرء يوماً بما يسد مطلباً كمالياً عاد عليه إسرافه بالحرمان من الضروري اياماً .

هذا هو اختباري ، لذلك اراني نادماً لانني لم اتبع نصح والدي الذي اشار علي كمختبر مخلص بان انصرف الى صناعة تدر علي كسباً اعيش منه بهناءة بعيداً عن ضوضاء المدنية والعظمة الفارغة والاطماع العاثرة ، مما يتعرض له كل طالب مجد في اي فرع من فروع الاعمال الخارجة عن نطاقي الزراعة والصناعة حيث الحرية الحقيقية والكسب المشروع ، وإلا كان العمل عبودية والكسب بماء الوجه لا بعرق الجبين .

والغريب أني تعلمت صناعات عدة وحذقت بعضها ولكنني ابيت الاشتغال بها عملياً إلا بخسارة لوالدي أرغمته اخيراً على ان يلقي

لي الحبلَ على الغارب ويبذل من جهده وكسبه لينيلني بغيتي وهي أن اكون كاتباً حاسباً . اذكر من هـذه الصناعات الصياغة والنجارة والحدادة والخياطة والسكافة ، وهـذه الاخيرة تعلمتها في بيروت على طريقة نظرية ارستوقراطية ولم أزاولها وأحذقها إلا على حساب والدي ومنها استفدت في القاهرة ولكن بكل تكتم لئلا يراني او يدري بي احد اصدقائي او أنسبائي القادرين فأذوب امامه ، لسخافتي ، خجلاً ! وقـد كان ذلك الى امد قصير لم يجاوز بضعة اسابيع ونتيجة عاصفة استياء او ثورة قنوط هبت في نفسي بعد اخفاقي المتكرّر في السعي وراء وظيفة في حكومة السودان ، لا لعجزي بل أنفةً مني أن أباري او أزاحم المئات من الطلاّب المتهافتين على وظيفة واحدة بعد مضيّ أشهر لم يذرّ فيه لوظيفة قرن او يُفتح لهـا باب ، وليس بين أولئك المتهافتين إلاّ كلّ معدم تستثير حاله شفقتي وتحرّم عليّ ولو بالفكر أن انتزع تلك البلغة الحقيرة من فمه

وأبرز مـا اذكره من حوادث اشتغالي بتلك المهنة أنه كان لي صديق أديب مثقف ولبق مهذب من اهل اليسار يُدعى حبيب حنا فريجه لقيني يوماً وكنت مُضرباً عن العمل موصداً الدكان فراح يرجو مني أن أصنع له حذاء أفرغ فيه جهدي على أن اتقاضاه ما شئت . ومـا زال بي حتى لنت وأصخت الى ملتمسه ، ومع اني سمته ضعفي السعر العاديّ أبى الاّ أن يزيد عليه فارضاً على نفسه ليرةً فرنسوية بدلاً من اربعة ريالات . وعملاً بالمثل القائل : « لا تطعمِ العبدَ الكراع فيطمع في الذراع » زدت على شرطي الاول شرطاً آخر هو أن يجالسني فنتجاذب اطراف الاحاديث ونتناشد الاشعار طيلة المدة التي يستغرقها العمل فلم يكتفِ بالقبول بهذا الشرط الاضافيّ بل هو راح يستجلب من مقهى مجاور القهوة والاراكيل ومن مطعم يحاذيه الغذاء ولازمني على هذا الشكل ثلاثة ايام متوالية كانت كافية لانجاز الحذاء الانيق

فاحتذاه وراح يتبختر به عارضاً اياه على الابصار ومجيبا سائليه المعجبين بأنه من صنع الياس ساروفيم في بيروت ، وكان هذا اشهر حذّائيها .

إشتراكيتي – كانت المعلقة بلدة فقيرة ومع ذلك كان الأغنى منا فيها كثيراً عديدهم بحيث يصح القول نسبياً إنني ربيت فقيراً . وهل ما هو ادلُّ على فقر السكان من اكتفاء بعضهم بأكل الخبز « بطلم » وكل الفرق بينهما ان الاول رقيق والثاني سميك ؟ ولكنني أذكر أنني كنت اشتراكياً منذ حداثتي فكنت اعتبر فقرنا غنىً بإزاء فقر بعض الناس ، ولم يكن يفصلني عن البرهان المحسوس سوى زقاق ضيق : بين الثالثة والخـامسة كنت اقايض ابن جيراننا سليم الاسطمبولي على رغيفي « الكماج » برغيفه « المرقوق » وكانت لذته وهمية لانخداعه بأن خبز بيت الافندي « يجب » ان يكون اطيب ، وكنت آتيه بنصيب من طعامي الذي كان يعتبره طعامَ الآلهة لكي يسمح لي بان اغمس بضع لقمات في مقلاته كلما افلح في إلانة قلب والدته بدموعه لكي تعطيه بيضةً يقليها بقليل من الزيت على لهيب اغصـان الكرمة اليابسة .

عنادي – ولرفيق اللعب هذا يدٌ عليَّ لا أنساها هي أنه آساني يوماً وأطعمني في سُجني . وحكاية هذا السجن هي انه في صيف احد الاعوام ، وكنت بعد في الخامسة ، قدمت لتمضية بضعة اسابيع في مصيفنا خالتي إفجنيا التي سبق لي وصفها فوجدت كلَّ شيء عندنا على عكس ما تريد ، وبنوع خاصّ ابن أختها الشرس الأبله العنيد وهو أنا ، فأخذت على عاتقها تكييفي واسعافي بالتهذيب والتأديب والتليين والتشذيب وراحت تصطدم بي في معارك حامية الوطيس لم تخرج من ايٍّ منها ظافرة حتى ضاقت بي ذرعاً ولجأت يوماً الى معاقبتي بالسجن ولم تجد لتنفيذ رغبتها سوى المطبخ القائم الى يسار المنزل وامامه سطح يطلُّ على الغياض فرضيت بالحكم وعوَّلت على اتخاذ ذلك السجن المرتجل لي مسكنا لأنني ما كنتُ مستعداً للاعتذار واعلان التوبة اللذين

فرضتها عليّ لقاء إطلاق سراحي ، وهكذا رششت ارضه الترابية بالماء وكنسته وجلست امام النافذة . وكان الوقت اصيلاً وذلك اليوم يومَ اقتبال والدتي زيارة صديقاتها نساء الموظفين وكنّ جميعهنّ ، مسلمات ومسيحيات ، يقدمنَ متحجّبات مؤتزرات ، ولم تمرّ بي واحدة منهنّ إلا رأتني واستفسرت بعد دخولها سبب سجني فتشفع لي فلا تلاقي من والدتي سوى التلبية العاجلة، اما خالتي فكانت ترفض كلّ شفاعة وتصر على بقائي حتى « ينكسر رأسي » . وإني اعترف بأن الجوع هو القصاص الوحيد الذي كان ليجد منفذاً الى حصن عنادي ولكنّ الذي وقاني شرّه وعاقبته المذلة هو رفيقي الصغير سليم الاسطمبولي الذي حالفني على خالتي وأتاني بما سدّ جوعي وبذلك اعانني على الصمود حتى الى اليوم التالي ، مما اكره أخيراً خالتي على قبول شفاعة الزائرات وهن منصرفات ، وهكذا نجوت من السجن ومذلة الندامة .

طيشي ونزقي — في جملة الادلة على أني كنت مبتلىً بالطيش والنزق حتى بعد إدراكي سنّ الرشد وصيرورتي بموجب الشرع والعرف رجلا مسؤولاً هو أنني لم اصبر طويلاً على موظف يُدعى حنا افندي كان يختلف الى قاعة لعبة البليار في الخرطوم ويؤثر على اللعب إبداء الملحوظات لي ولمنازلي . ونظراً الى ولعي بهذه اللعبة ككل حديث عهد بها ، مقترناً الى ادّعائي ، لم يكن حنا افندي في رأيي ممن يحق لهم الوقوف مني موقف المعلم بل هو ربما كان دوني تمرُّساً بتلك اللعبة ومعرفةً بقواعدها وإلماماً بأسرارها فنبهته مراراً فلم يرتدع الى أن تهدّدته يوماً بالضرب فثارت فيه روح الفضول وأراد ان يعلم كيف يكون الضرب فما كان مني الا ان القيت الصولجان جانباً وسرت نحوه وهو واقف في مكانه وامسكت بكلتا يديه بيسراي وكلت له باليمين صفعتين حاميتين فأطلق صيحة استفظاع واستنكار وتوعدني برفع الأمر الى الحاكم العامّ فلم اعبأ بوعيده بل ضاعفت الذنب لكي يستأهل العرض

امام ذلك المقام العالي . ولكنني لم البث ان صحوت من نشوة الغضب فشعرت بألم عميق وراح ضميري يبكتني بشدة تفوق أيّ قصاص يمكن ان ينالني لو ان حنا افندي نفذ وعيده ، غير انه لم يفعل وانتهى ذلك الحادث بصلح « شريف » شفي حنا افندي بعده من داء الفضول.

واتفق أن هاجمت ذات ليلة منزل الجيران قافزاً من فوق الجدار الفاصل بين الفناءين بواسطة سلم وتبعني مساكنٌ لي ومقصدنا إسكات معربد كان يصيح ويغلظ القول لمساكنيه فيمنعنا الرقاد . وكان بينه وبيني عراك لم يكن فيه الفائز ولكنّ جولاتنا العديدة كانت قد اوصلتنا الى الباب الخارجيّ فنادى الخفير فلبى هذا النداء وجاء ليمثل العدالة ويقتادنا الى دائرة الامن ونحن بملابسنا الليلية الممزقة ، على ما في ذلك من الاستهانة «بمقامنا السامي»، فلجأت الى الحيلة واستعنت برفيقي وتمكنت اخيراً من الافلات ودخول المنزل . وفي اليوم التالي تدخل بعض ذوي النفوذ فأصلحوا ذات البين وكنت راضياً كلّ الرضا اولاً لانهم اقنعوا المعتدى عليه بأن يزورني في منزلي لانه كان بصياحه وإقلاقه راحتي المسبب ، وثانياً لانني علمت ما كنت أجهله وهو أن عملي كان جريمةً لا تُغتفر ويزيدها خطورةً أنها ارُتكبت ضد احد أنجال الزبير باشا الذي كانت له عند الانكليز رعاية خاصة انتقلت بعده الى أعقابه .

ولي قبل ذلك العهد وبعده ما لا يقع تحت حصر من الحوادث التي اوقعتني في مآزق حرجة لم انجُ منها الا لأن معظم الناس كانوا اكرم مني خُلقاً وأرحب صدراً وأوفر إغضاء وصفحاً .

بذخي وتبذيري — لقد بذخت فقيراً بذخ الأغنياء ، ومما لا يزال عالقاً بذهني من جرائم صباي أنني كنت احلم بأن ارتدي يوماً زيّاً كان دارجاً عند المتحذلقين وهو بذلة كحلية بصدرة حمراء وأزرار مبرقشة ، ويستهويني زيّ آخر هو بذلة بسترة ذات ذيل تعرف « ببونجور » . فعندما ترعرعت كان الفضل لوالدي في الحيلولة دون

لبسي هذه وكان قد بطل زيٌّ تلك . ولم يفتني دور حديثي النعمة فقد ابتعت يوماً محفظةَ نقود جلدية تتضمن اثني عشر بيتاً بشكل أهلة يتسع واحدها لجنيه ذهبيٍّ وكنت اتباهى بها ملآنةً وأعرضها على الابصار كما يعرض « زملائي » اليوم خواتمهم الماسيــة ، متوسلين الى ذلــك بالاكثار من الاشارات ولو في غير محلها . وتدرّجت في تخير انواع اللفائف التركية حتى انتهيت بالاكسترا إكسترا أعلى الأجناس وكان ثمن العلبة المتضمنة عشرين لفافة نصف ريال ، حتى إن كبار الاغنياء من أصدقائي كانوا يؤنبونني على ذلك الاسراف الذي لم اكن استطيعه الا في العطلات القصيرة التي كنت اصرفها في لبنان .

وفي الخرطوم كانت احياناً تعضني حاجـة فيضيق صدري واشكو الفقر باثاً شكواي صديقاً حميماً لي يدعى عزيز جهشان فكان يرفـّه عني بلهجته البيروتية قائلاً : « يا طوفيق ،لو قسمنا الناس الى اربعة وعشرين طبقة لما جئت انت في الاثنتي عشرة الثانية بل الاولى !

قسوتي في المصارحة — كنت ذات يوم اتغدى وصديقي نسيب فيلبيدس على مائدة اصدقاء لنا عزّاب يعيشون في منزل مشترك على ما كان مألوفاً في ذلك العهد وكان في جملتهم شابٌّ يُدعى سعيد سعاده وهو نسيب سعيد باشا شقير الشهير إلا انه حذف كنيته من اسمه دفعاً للالتباس . وكان سعيد هذا متولياً رئاسة احد الأقلام في وزارة المالية ولم تكن وظيفته لتستكثر على ذكائه واستعداده ولكن ربما كان بين من هم دونه في الرتبة والمرتب من لا يقلون عنه استيهالاً لتلك الوظيفة إلا انهم كان ينقصهم نسبه .

وبينما نحن نتجاذب اطراف الاحاديث قال سعيد إنه ابتاع دراجةً بسعر بخس للغاية وإنها وقعت له بذلك السعر لان مستجلبها هو احد المستخدمين في مكتبه بحيث يهمه رضاه . وكان المستخدم الذي ذكره ضئيل المرتب ومضطرًا ان يعول بمساعدة اخيه الاكبر أمه الشيخة

وشقيقتين لهما لذلك كان يتوسل الى زيادة كسبه باستجلاب بضع درّاجات في الشهر يبيعها بربح معتدل فباع من صاحبنا درّاجةً برأس مالها او ربما بخسارة .

حالما انهى سعيد سعادة شقير كلامه وقفت وأنبته على إساءته استعمال نفوذه وقبوله ما يعتبر بحكم الرشوة من فتىً محتاج وكلفته باسم الحق والواجب ان يدفع لذلك الفتى الفرق والا فقد صداقتنا وعطفنا.

فامتعض سعيد وتلعثم ولكنه ما لبث ان استعاد روعه واعترف بخطإه وقطع لنا عهداً بالتعويض .

اذ ذاك وقف فيلبيدس وقد اخذته نشوة الطرب وامّن على ما قلته بحذافيره معترفاً بما عدّه على نفسه جبانةً منعته من التصريح بحقيقة رأيه وكان يود ان يكون السابق الى تلك البادرة التي من اجلها ومن اجل أمثالها يفاخر بأن يكون صديقي .

سذاجتي – ومن الادلة القاطعة على أنني ظللت حتى زمن الرجولة ساذجاً ، او بالاحرى ابله ، الحادثة التالية :

في جملة ما كنا نحتال به في السودان على إذهاب السآمة والضجر مَلءُ اوقات الفراغ بالتراسل مع مجهولين ومجهولات في جميع انحاء العالم ، مستعينين بدليل عامّ على اكتشاف عنواناتهم فنتصل بهم ونخيرهم او يخيروننا في تبادل الرسائل او البطاقات البريدية المصوّرة .

واتفق أن تلقيت يوماً من مراسل يزعم أنه سيدة تقيم في إحدى مدن إيطاليا بطاقةً تعرض عليَّ فيها تبادل البطاقات البريدية المصوّرة نضمنها عبارات مقتضبة باللغة الانكليزية . وعلى اقتضاب العبارات التي كنتُ ابعث بها اليها ابلغتني يوماً ارتياحها الى أسلوبي واقترحت عليَّ أن نجنح الى الاسهاب فلم أتردّد في إجابتها الى ملتمسها ورحت ادبج لها رسائل تدغدغ عواطفها وتثير فضولها ، او بالأحرى تجتذبها الى الشخص المجهول الذي كنته . وأعترف أن الدافع لي على كتابة هاتيك

الرسائل كان شعوري بحاجة الى قلب يخفق لي فينتشلني الحب من وهدة اليأس التي كنت متردياً فيها .

ولم البث ان تلقيت من مراسلتي كتاباً تقول لي فيه إنها انكليزية الأصل اقترنت بنبيل ايطاليّ توفي بعد عامين تاركاً إياها فريسة وحدة قاتلة في الصرح الباذخ الذي خلفه لها ، لولا ابتسامات طفلها المبدّدة ما يكتنفها من ظلمات ، وليس ما يعزيها كالعناية بـه وإرضاعه ، وفي هذا إشارة واضحة الى انها لا تزال في ميعة الصبا . وغنيّ عن البيان ان رسائلي التي تلت هذا النبأ السارّ المشجع اصبحت مليئة بأرق العواطف وأبلغ عبارات التعزية والترفيه ولم يبق سوى مكاشفتها بحبي واستعدادي للحلول مكان المرحوم الراحل ، ولكنني رأيت من الحكمة ان انتظر تشجيعاً من جهتها ، وهذا ما لم انتظره طويلاً اذ ما عتمت ان كتبت إليّ تطلب رسمي ، وبالطبع كان هذا اسرع من جوابي في الوصول الى يدها المبتغاة ، مع رجاء حارّ بان لا تبخل عليّ بالمبادلة . فكان جوابها اعتذاراً عن التأجيل ووعداً بالتلبية العاجلة ما امكن ، وفي الوقت نفسه تدعوني لزيارتها في صرحها الأنيق على ان اكون ضيفها اطول وقت ممكن من مدة إقامتي في اوروبا . فأجبتها بالشكر الحار والوعد المقطوع مع التذكير مجدّداً بالرسم المنتظر وأنا اشعر شعور من اصبح على وشك مغادرة المطهر الى النعيم .

ووصل الرسم المشؤوم الذي اثبت لي بقبحه أنني كنت فريسة سخرية قارعة تمازجها أمرّ خيبة يمكن ان يُمنى بها من عام مثلي طويلاً على جراب الآمال العذاب على شاطىء ذهبيّ

ولا يسألني الا مجنون عن الرسائل التي تلقيتـــها من تلك السيدة الساخرة فان لهيب نار غضبي أحرقها برمتها غير مبقٍ الا على رسمها لكي اذكر ما عشت سذاجتي وسخافتي اللتين أوقعتـاني فريسة بين براثنها وجعلتاني أضحوكةً امام نفسي وأمام كل من يقرأ حكايتي هذه.

على مقعد الدرس

دراستي الابتدائية ـ كانت المدرسة الاولى التي دخلتها الارثوذكسية وكانت مجاورة للكنيسة ، وبعد سنوات انتقلت الى المدرسة الانجيلية ، وكانت مجاورة للكنيسة ايضاً . ولكنني في كليهما كنت أستنكف من جور اكثر المعلمين واضطراري في فصل الشتاء ان أحمل قطعةً من الفحم للايقاد والاستدفاء الذي كان المعلم يتمتع منه بالنصيب الاوفر.

والذي كان يُطمع المعلمين بنا بنوع خاص هو جهل الوالدين الذين كانوا يأتون المعلم بالتلميذ الجديد او المكرَه على التوبة بعد فرار كأنهم يقتادون شاةً للذبح ويخاطبونه قائلين : « لك اللحم والشحم ولنـــا الجلد والعظم » !

على ان زمن عبوديتي لمْ يطل لانني قبل ان أبلغ العاشرة صرت « فرخ معلم » فكان اذا تغيب احد المعلمين أنابني عنه ومثلت دوره مع رفاقي المظلومين الذين كنت حتى الامس القريب في عدادهم ، إثباتاً للقول المأثور : « ويلٌ من عبد اذا ملك » !

ذكريات دراستي الابتدائية

المعلم اسكندر الحداد ـ كان اولَ من اوصى الآباء بتأديب ابنائهم بالعصا سليمان الحكيم وكانت وصيته هذه في عهدي « السعيد » متبعةً في البيت وفي المدرسة . ولم اكن في المدرسة الارثوذكسية

مستثنىً من هذا الحكم ولكن على قلة . غير اني عندما انتقلت الى المدرسة الانجيلية اصبحت القلة في جانب الاستثناء وكان منفذ وصية الملك الحكيم المعلم اسكندر الحداد وهو شابٌ فوق الربعة ممتلىء الجسم في اعتدال ، وكان الى ذلك مزهوًّا بقوته البدنية وجمال طلعته ووسامة محياه ، فقد كان على سمرة بشرته فاحم الشعر مستكمل الشرط الرئيسي في الجمال وهو تناسب الاعضاء . اما معاونه المعلم نجيب فكان طويل القامة رقيق العود ابيض البشرة ازرقَ العينين اعقف الأنف ، وكان يزيده دمامةً « حب الصبا » المنتشر في وجهه بكثرة وبأحجام تتراوح بين العدسة والحمصة .

كان بهو الدرس الوحيد مستطيلاً يشطره كالكرة الارضية خطٌ وهميٌ يحتلُ التلامذة الكبار نصفه المجاور لساحة اللعب والصغار نصفه الثاني المجاور للطريق العمومية

ولما كنت لسوء حظي من المتقدّمين كنت من نصيب المعلم اسكندر ، ولم تكن المدرسة الانجيلية تشذُ عن القاعدة المألوفة في فرض الوَقود على التلاميذ، على ان المعلم اسكندر كان يستأثر بالدفء ويسخرّ احدنا ليأتيه من السوق برغيف وقطعة من الجبن يدسها فيه ثم يقمّره على النار ويتلذّذ بالتهام تلك العلفة الشهية . فاذا ما انتهى بدا كأنه استمد من ذلك الغذاء نشاطاً ينفقه في ضربنا وتعذيبنا محصياً علينا انفاسنا وناظراً بالمجهر الى اقلّ هفوة نرتكبها في الدروس او السلوك فكأنه كان يتطلب منا العصمة في تلك والكمال في هذا . ومع ان والدي لم يكن من المتساهلين في معاملتي كان يستفظع وحشيته حتى انه اخيراً حمله على الاتئاد قسراً بشكايته الى « الخواجه » وتهديده هذا باخراجي من المدرسة اذا هو لم يكره ذلك المعلم الشرس على الاعتدال في ما كان يعتقده تأديباً وتهذيباً .

وكان تدريس البنات يجري في الكنيسة نفسها ، وبينها وبين

المدرسة جدار مشترك يتوسطه باب ، فلم يكن يخلو الأمر من اختلاط بين الجنسين يشترك فيه المعلمون والتلاميذ ، كما لم يكن يفوتنا نحن الصغار ان عين المعلم اسكندر كانت على صغرى المعلمتين الجميلة اللعوب الطروب بينما المعلم نجيب لم يكن يطمع باكثر من عطف الكبرى، على دمامتها، إما احتشاماً واما اعترافاً منه بانحطاط منزلته عن رئيسه المعلم اسكندر .

وتم في احد ايام الصيف الاتفاق على سيران مشترك في « عين الحجر » فتزوّدنا وبكرنا الى ذلك المكان الجميل، فهناك ساحة مستطيلة تتسع للمئات والى جانبها رواق للاستظلال وفي صدرها جرن حجريّ مستطيل تتدفق فيه العين ماء عذباً صافياً اين منه اللجين ، والدوالي المحيطة بتلك الساحة مثقلة بالعناقيد الشهية على اختلاف الوانها وانواعها ، فقضينا ساعات في اللعب واللهو والاكل والشرب حتى شبعنا وروينا واخذ منا التعب مأخذه فرحنا نقيل ونستريح على نية اعادة الكرة في الأصيل .

وفي فترة الاستراحة تلك وقع نظر المعلم اسكندر على صخرة ملساء قائمة في وسط الساقية الجارية من جرن العين وفي أعلاها نتوء مثقوب كأنما بيد صانع ثقباً واسعاً كأنه شدقٌ يدعو المعتدّين بقوتهم البدنية الى محاولة زحزحة ذلك الجرم الثقيل او رفعه ولم يرَ المعلم اسكندر لائقاً به الا ان يكون من المستجيبين فأدخل كفيه في ذلك الثقب حتى المعصمين وشبكهما وراح يحاول رفع تلك الصخرة فلم يفلح حتى في زحزحتها ولم تجدهِ اعادة الكرة فتيلاً برغم ان جميع الابصار كانت متجهةً اليه ، وبينها في الدرجة الاولى اعزُّها عليه !

ولكنه ما كاد يتنحى معترفاً ضمناً بإخفاقه حتى برز الى المضمار المعلم نجيب الذي كنا نحسبه دونه في القوة كما هو دونه في الرتبة الا أنه ما لبث ان كذّب ظننا اذ هو لم يكتفِ بزحزحة تلك الصخرة بل

رفعها عدة اصابع عن الارض فانطلق الهتاف من كل صوب إعجاباً وإيذاناً بتفوُّقه . وكنت انا وسواي من الموتورين متهللين بفوزه على معلمنا الظالم . على ان الاستحسان العـــامّ لم يكن الا ليزيد المعلم اسكندر احتداماً اذ هو اعتبر صنيع معاونـــه تحدّياً له وحطاً من قدره ومساساً بكرامته فانهـال عليه باللوم والتعنيف فأجابه هذا مستهجناً غضبته لغير مبرّر ودعاه لاعادة الكرة لعله يستطيع رفع تلك الصخرة بعد أن زُحزحت من مكانها ولكن المحاولة الثانية كانت فاشلة كسابقتهـا ، واذ ذاك بـدأ التراشق بسهام الطعن ثم اشتبك المتباريان في عراك حامي الوطيس ، مما اوجب تدخل المعلمتين وبعض كبار التلامذة لحسم الخلاف والفصل بـين المتنازلين ، وكان السبب الاكبر في استياء المعلم اسكندر ان معاونه أخجله امام المعلمة الصغرى فاتنة لبه .

المعلم سعيد ابوجمرة — وتلا اسكندر الحداد سعيد ابوجمرة الذي اصبح فيما بعد طبيباً، وبعد ان مارس مهنته زمناً قصيراً في سان باولو صدف عنها الى الصحافة فأنشأ جريدة الافكار التي انتهى امرها بالتوقف عن الصدور بحكم مرسوم قضى بوقف الصحف الأجنبية باسرها .

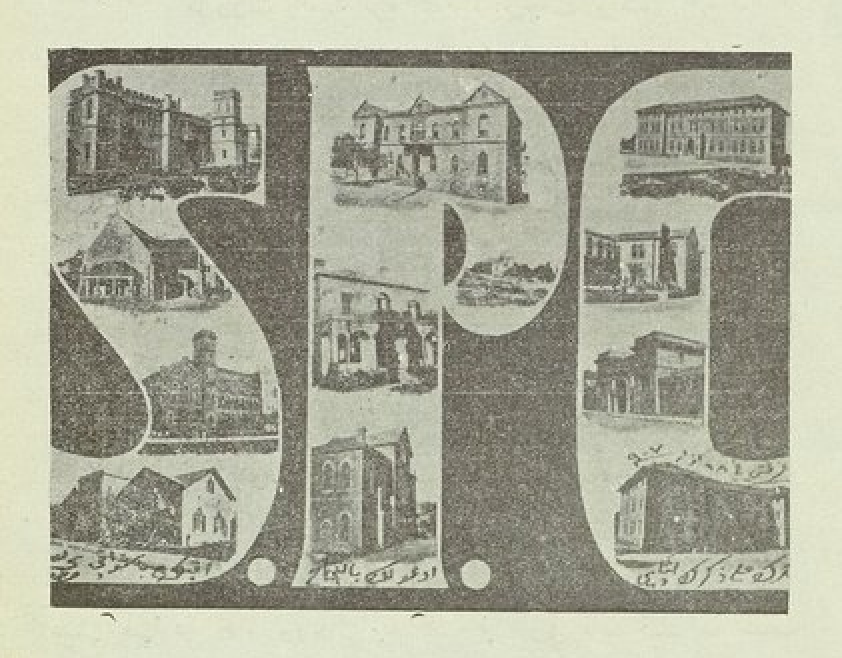
تولى مهنة التدريس في المعلقة حوالي سنة ١٨٩١ وكان شاباً ناضجاً ذا شاربين ضخمين يتعهدهمـا بالتمليس والعقف ويتلقى في المـــدرسة عينها زيارة بعض معارفه وعملائـــه فيأمر لهم بالجلوس ، وبعد ان يتجاذب واياهم اطراف الأحاديث يتناول قرطاساً يخط في اعلاه ارقاماً تتلوها بضعة اسطر تبتديء بكلمتي « غب مرور » ويذيلها الحاضرون بتواقيعهم ثم يدعوني دون سواي من التلاميذ فيعطيني قصاصة تتضمن ملتمساً الى خالته (زوجة ابيه) لكي تسلمني عدداً من الليرات الذهبية فأسير توّاً قاصداً منزله الكائن في بعض الطريق بين المعلقة وزحلة فتفتح لي خالته الباب وتتلقى الملتمس وتستوعب مضمونه ثم تعمد الى جورب

اتخذته كيساً فتفك عقدته وتعد منه المبلغ المطلوب وتدفعه اليّ محذّرة اياي من اضاعته فأطبق عليه كفي وأضع يدي في جيبي وأعود ادراجي فيتلقاه معلمي مني ويسلمه لزوّاره فيودّعون وينصرفون شاكرين وأعود انا الى مكاني وقد قمت بتلك العملية الصيرفية دون اي اجر سوى كلمة « عافاك » المألوفة ، ولم يكن معلمي المهذب يبخل بها عليّ .

المعلم فارس الخوري – كان المعلم فارس الخوري (فارس بك الخوري الشهير اليوم) يلقي عليّ في المعلقة دروساً خصوصية ، وبهذا السبب توثقت بينه وبين والدي عرى صداقة وودّ اكيدَين . واتفق ان قدم بيروت لقضاء بعض المهامّ الخاصة به على اثر انتهاء الدروس في الكلية السورية الانجيلية سنة ١٨٩٦ فعهد اليه والدي بأن يصطحبني معه عند عودته وأبلغني ذلك فشكرت له عنايته وعطفه ولكنني وجهت نظره الى أني رهينة ولا استطيع مغادرة الكلية دون فكاك ، ذلك اني كنت مديناً لعدد من الباعة والمحالّ المجاورة ، وفي طليعتها مطعم « الخال » الذي كنت أستورد منه المآكل الى غرفة البوّاب ، فراح يسدد لائحة الديون التي قدّمتها له حتى كاد لا يبقى في جيبه ما يفي بنفقة عودتنا .

في الكلية السورية الانجيلية

(الجامعة الاميركية اليوم)



(رسوم ابنية الكلية ضمن الحروف الاولى المقتطعة من اسمها)

وهي التي وصفها صديقي الطبيب والشاعر نقولا فياض في مستهل خطابه « المرأة والشعر » الذي القاه فيها منذ نيف ونصف قرن وبلغ في وصفها من الاجادة حدًّا لم يبلغه سواه :

يا منتدى العلم الشريفِ أراكَ اشرفَ منتدى
جدَّدتَ للشرقِ القديمِ شبابه فتجدَّدا
وأعـــدتَ للعلمِ المجيد جماله فتمجَّدا

وجعلتَ دارك بيتَ موسى والمسيح وأحمدا
فنظمت الحان الاخاء وراح دهرُك منشدا
ذُبح التعصبُ في حماك وعند غيرك يُفتدى
يا « إسبسي » الوطن الذي يحمى الهلالِ تأيدا
ما زرت ربعكِ مرةً الا رجعتُ مردّدا
هذي منارةُ رأس بيروتٍ وذا علمُ الهدى

كنت في حوالي الثانية عشرة عندما احرزت في المدرسة الانجيلية قسطاً من العلم يؤهلني لدخول هـــذه الكلية ، وبفضل صلتي الوثيقة بالمبشرين الاميركيين الذين كانوا شبه وكلاء لها في البلدان الثانوية والقرى قُبلت بنصف المرتب (وكان ثماني عشرة ليرة انكليزية) ، وكان ذلك في خريف سنة ١٨٩٥ ، حين لم يكن يزيد مجموع تلامذة دوائرها كلها عن ٢٩٠ .

لم تكن لي اجنحة لأطير لذلك اكتفيت اضطراراً بركوب القطار فأممت اولاً بلدة عاليه حيث كان بعض انسبائي ومنهـا الى بيروت فوصلتها وانا اكاد لا اصدّق اني فيها .

بيروت كانت لي ما كانته ارض الموعد لبني اسرائيل على أنَّ عيشتي فيها على جمالها ورخائها وما لقيته فيها وفي عاليه قبلها من عطف الأنسباء الأعزّاء لم تكن تخلو من تنغيص سببه اني كنت النسيب القرويّ والفتى الطائش الذي لم يكن يرضي احداً لا بسلوكه ولا بحديثه ولا بكيفية تناوله الطعام . ولم يكن يشفع بي سوى العـاطفة التي تدفع انسبائي الى الرفق بي والعمـل بمختلف الاساليب على إصلاح اخطائي وتقويم عوجي حتى إني بتُّ في حيرةٍ كيـف اسلك لكي اتخلص من النقد والتنديد اللذين كانت تأباهما نفسي الحرّة وتنكرهما نزعتي الاستقلالية فكنت أداوي جراح نفسي المتألمـة بالاعتزال تخلصاً من الحلقة وإيقار الآذان واطلاق الالسنة . كلُّ هـذا وانا لا ارى في

ما آتيه امراً إدًّا ، لذلك شعرت بحيف لا يُطاق بعد أن لقيت في بيروت عكسَ الجزاء الذي كنت أُمني به نفسي نظراً الى المنزلة الرفيعة التي احللتها البيروتيين المتمدنين من قلبي الصغير .

وما كان يؤلمني شيء كرأي نسيم طراد زوج خالتي أم نجيب فيَّ فقد كان يجاهر على مسمع مني بأنه يعتبرني شيطاناً في صورة إنسان ويلذ له أن يضيف أُختي أسما طيلة ما بقي له من العمر على أن يتحمل وجودي يوماً واحداً . ولكنَّ الذي كان يرفّه عني بعضَ الشيء هو اعترافي امام نفسي بأنه على حق .

اخيراً ازف اليوم السعيد الذي صحبني فيه عمي مهنا الى الكلية وسلمني لادارتها وعاد ادراجه بعد ان ودّعني واوصاني بالاجتهاد وإحسان السلوك .

بعد الفحص أُدخلت في ادنى الصفوف الاعدادية ولم اتعلم فيه شيئاً يستحق الذكر بالنسبة الى النفقات الطائلة التي حملتها والدي ، خلا المرتب المخفض الذي اداه عمي اسكندر ، لانني كنت مثال الولد الطائش المبذر

كان طعام المدرسة لا يعجبني فأعتاض عنه غالباً بما أستجلبه خلسةً من مآكل المطاعم المجاورة الى غرفة البوّاب الذي كان شيخاً قروياً ساذَجاً يمالئني وسواي من اضرابي على الاساءة لأنفسنا لقاء دريهمات نرشوه بها . وفي غير اوقات الدرس لم أكن أرى الا قربَ الباب الخارجيّ ممتلىء الجيوب بالحلويات الشهية التي كنت ابتاعها من رجل اعمى مبتور الساعد الايسر يُدعى خليلاً يقعد في الباب وبضاعته مصرورة في اوراق ومرصوفة في قفة كبيرة .

فوق ذلك كنت أدفّع ايام الاسبوع استعجالاً ليوم السبت الذي كنت أؤمُ فيه المدينة وأقضي عشيته ويوم الاحد وليله عند انسبائي واعود صباحَ الاثنين كأنني عائد الى قفص فلا ينسيني حزني بسبب العودة سوى تعليلي النفس بالرجوع الى المدينة يومَ السبت التالي .

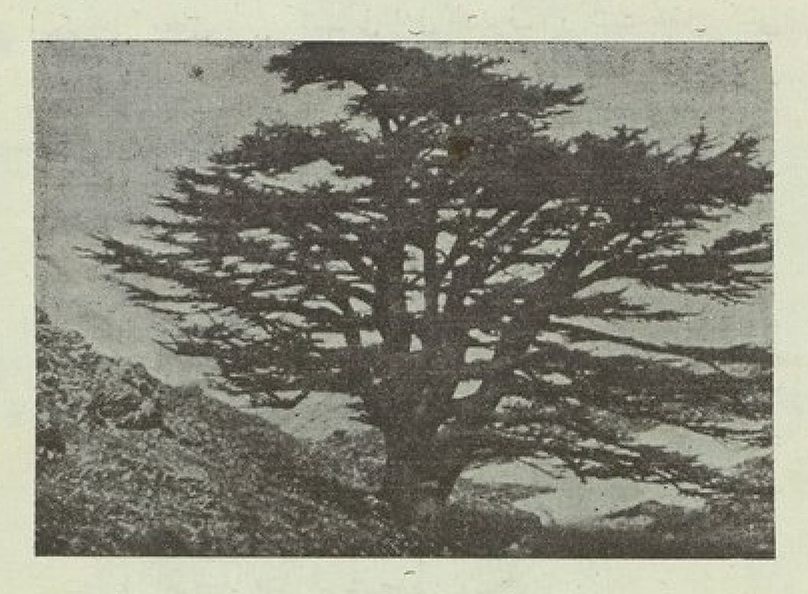
وكانت نكبتي الكبرى يوم أعاقب بحرماني تلـــك الرحلة الاسبوعية بسبب تقصيري وإرغاماً لي على الاجتهاد والتحصيل .

اما رسائلي الى والدي فكانت سطر سلام وطمأنة من جهة صحتي ودروسي وسلوكي ، وسطور تذكير بمطلب قديم لم يؤدَّ بعـد او بسط حاجة جديدة . ولم يكن يؤم احد اصدقائنا بيروت قادماً من المعلقة الا وهو يحمل اليَّ من والدي قيمة مالية مع رسالة ضافية علاوة على ما كان يأتيني به البريد من رسائله المتواليـــة المتضمنة النصـــائح والارشادات واستثـــارة همتي للدرس والتحصيل ، ولكن لم يكن يستقرّ في ذهني منها سوى عبارات التلبية لمطالبي او التعهد بانجازها .

وكانت سنة نجوت فيها من التقصير بأعجوبة ، فلما عدت الى المعلقة أفهمني والدي ان سلوكي لم يكن متفقاً في شيء واللهفةَ التي كنت أبديها لدخول الكلية وتحصيل العلم الذي كنت أدَّعي تعشقه ، لذلك كانت لهفةً زائفة وان العلامات الشهرية التي كان يتلقاها لم تكن تبرّر إعادتي الى ذلك الصرح العلمي ، فرضخت لارادته مكرهاً وأخذت أتلقى دروساً خصوصية على معلم نابه لعلني أصلح مـا أفسدت وأؤهل نفسي لدخول الكلية ثانية .

ودام جهادي هذا الى سنة ١٩٠٢ ، وهي السنة التي دخلت فيهـا الكلية للمرة الثانية والأخيرة ، وكان جهاداً مقترناً بمحـــاولة والدي اقناعي بالعدول عن طلب العلم والانصراف الى صنـــاعة أرغب فيها فتعلمت بضع صناعات على ما تقدم بيانه .

عودتي الى الكلية



(واحدة من اشجار الارز الدهرية الذي اتخذته الكلية شعاراً لها)

إني مدينٌ بتحقق حلمي بالعودة ثانيةً الى الكلية الى عواملَ لم تكن في حسباني ، منها تطوُّع صهري الجديد عزيز قندلفت لدفـــع الرسم السنويّ فأضعف بذلك مقاومة والدي . وكانت الصلات قد ازدادت توثقاً عن ذي قبل بين المبشرين وبيني لِما كنت قد تحليت به من روح التقى بمطالعة الكتاب المقدّس والمواظبة على الصلاة وحضور الاجتماعات الدينية ، حتى إني انتُخبت على حداثة سني رئيساً لجمعية الاجتهاد الروحي في زحلة ، على ما سيأتي بيانه ، فحصلت على شروط افضل اذ قُبل مني ثلث الرسم المفروض .

اما مطلبي فقد كان دخول الصف الخامس في الدائرة الاستعدادية

والفوز بشهادتها ، وكانت في اثناء تغيبي الطويل قد ازداد عدد صفوفها من اربعة الى خمسة ، فمثلت امام رئيسها اذ ذاك الاستاذ هول وأعربت له عن رغبتي فراجع سجل ١٨٩٥ – ١٨٩٦ وبالطبع لم يتمالك أنْ أنكر عليَّ مطلبي لأنني كنت في ادنى الصفوف، وكنت بفضل كسلي وطيشي في المرتبة الثالثة والستين بين تلامذة ذلك الصف الذين لم يكن عددهم على ما اذكر يبلغ السبعين . ولكنني حاولت إقناعه تعلُّلاً بأنني درست على نفسي الشيء الكثير فرأى ان يجاريني فيستند الى محك الامتحان ليتحقق من صدق مدَّعاي،وراح يعرضني على معلمي الفروع المختلفة فلا يتلقى عني سوى أسوإ الشهادات ولذلك نصح لي بالرضوخ لسنة التدرُّج فأدخل الصف التالي لذاك الذي كنت قد انتهيت منه فصارحته اذ ذاك بأن ليس في استطاعتي ان البث في الكلية اكثر من سنة واحدة أؤم بعدها القطر المصريّ التماساً لوظيفة في احدى دوائر الحكومة السودانية ولذلك كان لا بدَّ لي من أن اكون على الأقل حاملاً شهادة الدائرة الاستعدادية ، وأن في صدري من صدق العزيمة ما يعينني على احرازها مهما يقم في سبيلي من عقبات .

فلما رأى مني الاستاذ هول ذلك الاصرار المعزَّز بصدق اللهجة خاطبني بأسلوب جدّيّ ملؤه الثقة والتشجيع قائلاً : « ما دام هذا سلاحك وهذه عزيمتك فلا تخشَ عدوّاً . دونك الصف الخامس فادخله واني واثق من احرازك الشهادة في نهاية العام الدراسي ، ولا تبالِ ولو قصرت في الفروع كلها في الأشهر الأولى » !

وهكذا دخلت الصف الخامس وكنت أضحوكة رفاقي لضعفي وتقصيري اذ برغم اجتهادي الخـــارق ومواظبتي على الدرس حتى في اوقات النزهة واللعب لم يكن يتسع لي الوقت لمطالعة الدروس التي كان اكثرها في الأشهر الأربعة الأولى مراجعات والتي ظللت فيها كلها مقصراً في اربعة فروع حتى جاء امتحان نصف السنة الذي قصرت فيه

في فرع واحد هو الحساب ولكن بفرق عُشر واحد ، وابى المعلم وهو لبيب جريديني ان يجيزني رغبةً منه في تقويتي في هذه المادة وهكذا اضطرني الى البقاء في بيروت دارساً حتى استطعت تقديم امتحان آخر كانت نتيجته اكثر من مرضية .

بعد انتهاء العطلة نصف السنوية عرضت لي عقبة جديدة هي تأخري زهاء أسبوعين بسبب حجر صحيّ كان قد ضُرب على ولاية الشام واقتضاني ان اهرب مع شخص من اهل الحيلة والدهاء معه بغلة كان احياناً يُركبني عليها ومتى بصر باحد الرقباء يخاطبني كابن صديق له يسير برفقته ليتفقد املاك والده في الجبل . وأذكر اننا بتنا الليلة الأولى في قرية على الحدود وفي الصباح اجتزنا التخم اللبنانيّ ولكن الحارس اكتشف امرنا فرشاه ببضع علب من لفائف التبغ . وبتنا الليلة الثانية في حمانا وفي الصباح سرنا قاصدين بحمدون فعاليه وبلغنا هذه عند العصر فبتُّ ليلتي فيها وفي اليوم التالي ركبت القطار الى بيروت . وكان الخوف آخذاً مني مأخذه طيلة مدة الهرب وبعدها حتى كنت أشعر كأن كلّ من اراه إصبعٌ يدلُّ عليّ رجال الأمن وفي كلّ جنديّ متعقباً يوشك ان يقبض عليّ ويعيدني من حيث اتيت . وكان شرُّ من لقيت اتفاقاً في القطار عدد من المعلمات اللواتي عرفتهنَّ في المدرسة الروسية التي كان قد سبق لي ان علمت فيها شهراً واحداً فوثقت بهنّ ورويت لهن تفاصيل رحلتي فرحن يعبثنَ بي ويتهدّدنني بإفشاء سرّي وانا حيناً استعطفهنَّ وحيناً استشيط وأعنفهنَّ حتى وصلت بيروت مجهداً فاقدَ الجلد

وصدمتني حال وصولي عقبةٌ جديدة هي ان صفي كان قد انتقل من علم الحساب الرقميّ الى علم الجبر الرمزيّ فوجدت في بادىء الامر صعوبةً كلية في اللحاق برفاقي ولكنني بفضل الاجتهاد والدرس المتواصل سبقتهم وغدَوت أعين بعضهم على تفهم ذلك العلم الصعب.

واجتزت الامتحان النهائيّ بعلامات لا بأس بها وغادرت الكليـة ولبثت في المدينة منتظراً بفارغ الصبر حلولَ اليوم الذي يجري فيه الاحتفال بتوزيع الشهادات ولكن شاءت الأقدار ان لا أتنـــاول شهادتي على مرأى من الحشد الكبير المجتمع في الكنيسة لأنني تأخرت عن الموعد وكان سبب تأخري إبطاء تحويل كنت انتظره من والدي لان الحصول على الشهادة كان يقتضي ريالاً مجيدياً والصعود على المنبر والتعرُّض لأنظار الجمهور النقادة يستوجب بذلةً لائقة . ولم يكتشف انسبائي إلا في الساعة الأخيرة حاجتي التي كتمتها مختلقاً لسترها مختلف الأعذار فأنقدوني ريالاً وألبسوني برغمي بذلةً مستعارة لنسيب دوني طولاً فأفنيت حيلي لايهام كلّ من يقع عليَّ نظره باني أقصر قامةً او اطول ثوباً .

عندما بلغت الكنيسة كان الاحتفال قد انتهى والحشد آخذاً في الانصراف . وبينما انا اهم بالعودة بخفي حنين بدلاً من الشهادة بصر بي الاستاذ هول فاقتادني الى قاعة العمدة وهناك سلمني شهادتي مهنئاً إياي ومبدياً ارتياحه للصدفة التي قضت عليَّ بالتأخر بحيث تهيأ له ان يعطيني شهادتي على انفراد كما كان حديثنا بشأنها في مستهل تلك السنة المدرسية وبالطبع كان شكري له حاراً ووعدي ثابتاً بأن ابذل جهدي لكي استحق ثقته وأبرهن على انني كنت اهلاً لها .

ذكريات العامين الدراسيين في الكلية

مما لا يزال عالقاً بذهني من حوادث سنة الدراسة الأولى (١٨٩٥ - ١٨٩٦) وعلاقتها ببعض الأساتذة والطلبة ما يلي :

من ابرز ما اذكره محاضرةٌ القاها في بهو الدرس مبشرٌ اميركي قادم من الصين ، جمع بين بداهة المحاضر القدير ورشاقة تعبيره وجزالة

أسلوبه، وبراعة الممثل الذي يشرك البصر في ما يتلقفه السمع اذ هو كان يصف تلك البلاد الشرقية النائية ويُرفق وصفه بمشاهد يعرضها على الأبصار بواسطة الفانوس السحري، حتى إذا ما بلغ الى الأزياء واساليب العيش عمد الى حقيبته فأخرج حلةً صينية ارتداها واعتمر قبعة تتدلى منها جديلة غليظة تنحدر حتى القدمين. ولأنه كان مُسبل الشاربين متهدّلهما بدا لأعيننا صينياً لا غشّ فيه. ثم أتى بقصعة فيها ارزّ مطهيّ فوضعها على المائدة وجلس يتناول علفته مستعيناً على تلقف حبات الأرزّ بعودَين نحيفين يعالجهما بمهارة فائقة. وكان كل ما رواه وعرضه أمامنا من المشاهد طريفاً مفقهاً، فكهاً الى حد اطلق السنتنا بهتاف الاستحسان وألهب أكفنا تصفيقاً.

ومن الأساتذة الوطنيين الذين لا يزال عالقاً بذهني ذكرهم وأثرهم: سليم الخوري من إبل السقي المقيم حتى الآن في البرازيل، وسعيد ابو جمره من الكفير، وكان قد سبق ان علمني سنة في المعلقة على ما تقدّم بيانه ثم اصبح طبيباً وأمّ سان باولو حيث امتهن الصحافة وهو اليوم رئيس جمعية المتخرّجين الشرقيّ. اما ما أثرته عنهما في ذلك العهد فهو ان الأول كان يتمهل في كلامه حتى ليُخيّل لسامعه كأنه يقتلع الكلام من حنجرته اقتلاعاً ويؤثر اللغة الانكليزية لتأنيب المقصرين بأسلوب يحمل على الضحك اكثر منه على الاستياء. وكان الثاني يعالج بثوراً تنبت في خديه بحكّها ببنصره. وكنت أجيد تقليدهما معاً ويطالبني به الرفاق بإلحاح، وما ليتهم مرة إلا كانوا معجبين طربين. واذا كنت قد نجوت من الأول إما لجهله خبري وإما ترفعاً واغضاء فلم اسلم من الثاني الذي ادركته وهو يدرّس سنةً في الدائرة الاستعدادية قبل ان يدخل الدائرة الطبية. فبينما انا ذات يوم أقلّده في حلقة من الرفاق وكلهم عيون وآذان ولضحكهم رنة اغتباط وتهليل اقترب مني وسمعني دون ان اراه وبالطبع لم يرُقْهُ قيامي عنه بالدور الذي خصته

به الطبيعة فرأى الوقت قد حان ليأجرني على خدماتي السابقة فربّت على كتفي داعياً اياي الى غرفته بحجة انـه تلقى كتاباً من والدي يتضمن فقرةً تتعلق بي فكان طبيعياً ان اتبعه بلهفة . على اننا مـا دخلنا الغرفة وأقفل هو الباب حتى تناول عصاً لينة الملمس خشنة الوقع وراح يكيل لي بها على كتفيّ وذراعيّ ضربات مؤلمة ثقةً منه بانها الدواء الوحيد لشفائي من داء المحاكاة ويقول : « حاج بقا جرّصتنا ، بهدلتنا » ! وفي الواقع قام بتلك المهمة الانسانية خير قيام ، عنه وعن زميله السابق الذكر ، لأنني منذ ذلك اليوم برئت من تلك الوظيفة السعدانية وصرت اذا طُلبت مني تأديتها أحيل السائل على سواي لعله يشاطرني ذلك النصيب الكئيب .

وفي ذلك المساء عينه ، عندما تعرّيت للعوم ، لحظ رفـاقي البقعَ الزرقاء التي احدثها الضرب في كتفيّ وذراعيّ واستطلعوني خبرهـا فزعمت أنها رضوضٌ سبّبتها سقطة وظلت حقيقتها مكتومةً حتى اليوم.

وربما كان من قبيل سخرية الاقدار أنني بعد نيف ونصف قرن من هذا الحادث حضرتُ مأدُبةً إكرامية أقيمت لمعلم الأمس وطبيب اليوم بمناسبة انقضاء خمسين عاماً عـلى هجرته الى البرازيل فجزيته عـن تلك العلقة الحامية (بلغة إخواننا المصريين) بالبيتين التاليين :

بلادٌ للجهـدِ ولمنايا بومد من يجهاد او تبيد
فمن يقضي بها خمسين عـاماً ويبقى « جمرةً » فهو « السعيد »

واليوم أعتقد أن جنايته عليّ لم تكن شيئاً يُذكر بالنسبة الى جنايته على الفن لانني كنت أميل فعلاً الى المحاكاة وقد مارستها وحذقتها منذ بدأت أقلد في صغري في المعلقة مبدّى كيس مدير المحطة ووالدته الى حد أنه لو اتفق لأحدهم أن يسمعني أقلدهما بالمأثور من لهجتهما وتعابيرهما دون أن يراني لما صدّق أن المتكلم سواهما .

اما الاساتذة الاميركيون فأذكر منهم وبستر استاذ طب العيون، وحكايتي معه تختلف كل الاختلاف، ذلك أنه فاجأني ذات ليلةٍ حال مغادرتي بيت الخلاء متلبساً بجريمة التدخين وكان عقابها الطرد ولا مردّ، على الأخص للتلامذة المساعدين، فأوقفني أمامه موقف الذلة والاسترحام وسامني من العنَت والارهاق ما لا يُطاق، ولم ابتزّ منه عهداً قاطعاً بعدم رفع أمري الى العمدة حتى أقسمت له بأن لا اعودَ الى مثلها. ولكن لسوء حظي وخيبة فألي كنت من الحانثين المنافقين إذ بررت بقسمي فامتنعت عن مجاراة رفاقي في التدخين في بيت الخلاء ولكنني لم أبطل التدخين في سواه.

وكان رئيس الكلية في ذلك العهد الشيخ الجليل الوقور دانيال بُلسّ الذي ابتدعها خياله الخصب وأوجدها بسعيه وتضحياته وظلّ يرعاها بعين عنايته حتى أدركته الوفاة مذكوراً بصلاحه وتقاه وتفانيه بعد أن قرّ عيناً برؤية ابنه هوَرد يتولى منصبه الرفيع، معتبراً قرار مجلس الأمناء بهذا الشأن اصدق دليل على الاقرار بالفضل وعرفان الجميل وخيرَ مكافأةٍ له على جهاده الطويل.

اما التلميذان اللذان كان يلفت مرآهما النظر ويحمل على الاستهجان فهما نسيب جنبلاط وأمين تقيّ الدين، ولم يكن هذا سوى التلميذ الذي سطع بعد سنواتٍ نجمه فأصبح الشيخ امين تقيّ الدين واشتهر بنظمه الشائق ونثره الرائق، على الاخص في مجلة «الزهور» التي أنشأها في القاهرة بشراكة انطون الجميّل.

كان هذان التلميذان رفيقينا في الصف الاول الاعداديّ وندر بيننا من جاوزت سنه الخامسة عشرة في حين أن أولهما كان في نحو الخامسة والثلاثين والثاني يناهز الخامسة والعشرين، ولكلٍ منهما شاربان لا بأس بهما، وهكذا كانا كجبّارَين يجاوران اقزاماً. وبعد الاستفسار علمنا أن الشيخ أميناً رأى بعد أن أتمّ دروسه وحذق اللغة

العربية على يد أستاذها الاكبر الشيخ عبدالله البستاني أن يتعلم الانكليزية فاضطر الى النزول من عالي سمائه ومجاورة المبتدئين . ومما يؤسف له أن تفوّقه في اللغة العربية لم يُفدْه شيئاً في درس الانكليزية فكأنه كان مُكرَهاً على تعلمها حتى إني على تقصيري كان يبدو لي من المقصرين .
وقد أعاده الى ذاكرتي منذ سنوات ما طالعته اتفاقاً لنسيبيه الشيخين خليل وسعيد ، كما عرفت في سان باولو شاعراً ناشئاً ذا وسامة وأدب وذكاء يُدعى شكيب تقيّ الدين إذ علمت منه أن الشيخ امينا، زميلي في الدراسة منذ ستين عاماً تقريباً ، خاله ، والذلك ينطبق عليه مثلنا العاميّ المشهور . اما الثاني فقد لقيته في سواكن سنة ١٩١٢ وقد اصبح طبيباً في الجيش المصريّ .

اما أهم ما لا يزال عالقاً بذهني من ذكريات عام الدراسة الثاني والاخير (١٩٠٢ – ١٩٠٣) فهو في ما يلي :

عبد الرحمان شاه بندر – رأيته مرةً يعتلي المنبر خطيباً عن صف المنتهين ، وفي جملة ما اورده من الأمثلة على شرود الذهن أن احد محبي العسل الى حد الشغف والهيام دخل يوماً على قوم وبدلاً من أن يلقي عليهم التحية المألوفة وهي « السلام عليكم » قال « عسليكم » !

خطاب في دفتر – وفي الاحتفال الختاميّ للعام الدراسيّ كان العريف الرئيس هوَرد بلسّ فدعا للكلام أستاذاً من أسرة خيرالله فمشى هذا الى المنبر يحمل دفتراً كبيراً ضخماً فأوجس المدعوون والتلامذة خيفةً وراحوا يتساءلون كم من صفحات ذلك الدفتر يَشغل خطاب ذلك الجهبذ وراح هو يتلو ويقلب الصفحة تلوَ الصفحة والسامعون صابرون صبر الكرام حتى انتهى الوقت المحدّد له فنبهه الرئيس همساً ثم رفع بعد ثوانٍ صوته منذراً ولكنّ الخطيب ظلّ عاكفاً على التلاوة كأنّ المعنيّ سواه وكأنه فارس ذلك المضمار الوحيد . ولم يمتثل ويعود الى مكانه إلا بعد أن تقدّم الرئيس نحوه وأبلغه بلهجة جدّية

حاسمة أنه قد تجاوز الوقت بدقائق ومد يده الى الدفتر فأطبقه وأخذ الخطيب بذراعه واقتاده الى مقعده .

اما نقيض هذا الخطيب في دقة الاحساس وخفة الظلّ فقد كان الاميركيّ بورتر أستاذ التاريخ وكان محبوباً من تلامذة الكلية قاطبة إذ كنا بعد أن ننهي دروسنا اليومية نجتمع في الكنيسة لسماع صلاة الشكر المسائية . فاذا ما كان دوره في تأديتها في موسم السباحة لم يكن يتجاهل كسواه لهفتنا فيراعي شعورنا ويتلو فصـلاً قصيراً من الكتاب المقدّس ويقتضب طلبته لكي يطيل لنا امدَ التمتع بالعوم والابتراد. وقد جلى يوماً وحلّق واستحق امتناننا العميق لأنه اختار للتلاوة المزمور المئة والسابع عشر، وهو اقصر المزامير إطلاقاً ، مثبتاً بذلك ثقته بأن الله اعلم بحاجاتنا وأنه اجلُّ من أن يحتاج الى التكرار

عملية جراحية في العراء – كان الطبيب جورج بوست معدوداً بحق أشهر جرّاحي زمانه في الشرق كله وقد رأيته مرةً يجري عمليةً جراحية في ساحة الكلية نفسها على الشكل التالي :

كنت ذات يوم أسير ورفيقاً لي من التلامذة الكبار يُدعى حنا رحمه ، وأصله على ما أرجح من مدينة بشرّي ، ارسله والده المهاجر في اوستراليا لتلقي العلم في الكلية فبصرنا بالجرّاح بوست مقبلاً نحونا فاستوقفه رفيقي وحياه ثم أراه بثرةً حمراء في أعلى خدّه الايمن فما كان منه الا أن طلب من رفيقي منديله ثم أخرج من جيب سترته الداخليّ محفظةً تناول منها مبضعاً نكأ برأسه تلك البثرة بعنف وفقأها دون أن يعبأ بما بدا على عليله من اعراض الالم . ثم مسح مبضعه بالمنديل وأعاده الى صاحبه ليغطي به الجرح وسار في طريقه .

وكان بوست معروفاً قبل تلك الحادثة بعدم مراعاته قواعد النظافة الأولية في ما يجريه من العمليات حتى ليغلب على الظن انه لو اتفق له حادث آخر من نوع ما ذكرت لما تورّع عن استخدام ذلك المبضع

عينه دون أن يطهره ، مما يثبت أنه كان شديد الايمان بهواء لبنان حتى ليعتبره اشدّ فتكاً بالجراثيم من كل المطهرات المعروفة .

وتأييداً للقول المأثور : « التاريخ يعيد نفسه » فالحادث المتقدم يذكرني بعملية أجريت في سان باولو بسكين عاديّ يُستعمل لهرم التبغ الوطنيّ المجدول . ذلك أن واحداً من مهاجرينا الذي اشتهر بالاعتداد بالنفس وادّعاء العلم بكل فنّ ومطلب عاد يوماً صديقاً له يشكو من دمل في إبطه يسمونه «عروس الباط» فزينت له دعواه أن دواء ذلك الدمل البضع ، ولم يكن بعدُ قد نضج ، فأخرج سكينه خفيةً بينما كان معوده يريه إياه وباغته بطعنة نجلاء برأس ذلك السكين الحادّ فأطلق صيحة ألم دوّت لها جوانب المنزل فهرع ذووه لنجدته . واذ رأوه وقد نفذ فيه المقدور أسرعوا فاستدعوا طبيباً طهّر الجرح وضمده . ولحسن حظ ذلك الدعيّ الدّجال وقفت الكارثة عند ذلك الحد فشفعت به سلامة العليل وتقدير حسن النية من جهته والا لأجهز على صديقه وذهب هو ضحيةَ رعونته وهوَسه .

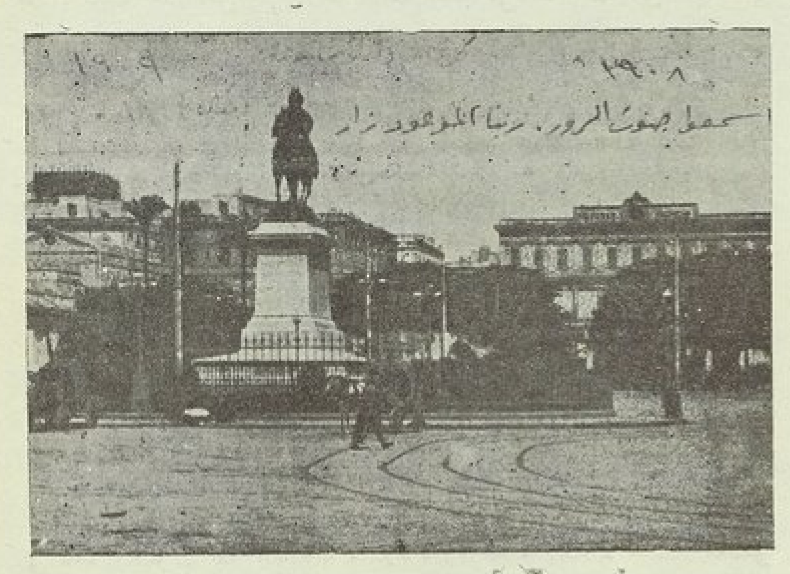
الثورة على الطعام — لم يكن ماك سوَيني محافظ كورك ولا غاندي مسيح الهند اولَ من توسلا بالاضراب عن الطعام تأييداً لمطلب عادل وارهاباً للمستبدين بل كنتُ انا ونفرٌ من رفاقي في الكلية في عهد رئيسها هوَرد بلسّ . على أن الفرق بيننا وبين هذين المجاهدَين هو ان اضرابنا لم يتعدّ بضع ساعات ولم نستغنِ الا عن علفة واحدة.

كان طعام الكلية في معظم ايام الاسبوع تافهاً ويزيده تفاهةً حرص المتعهد وكان رجلاً ربعةً بديناً يُدعى اميناً فلا يحضر سوى نُفاية الأسواق من كل انواع المأكولات فننصرف الى اكل الزيتون دون سواه فيأتي منه بأسوإ الاجناس فنملأ الصحون بالنوى فيأمر الخدَم بإعادة الباقي الى الخوابي على علاته .

وكان المعلمون يشدّدون علينا الرقابة لكي لا نختلس الخبز فنأكله

في قاعات النوم بما نختزنه من الأدام فثرنا مرةً وابينا الدخول الى قاعة المائدة . ونُمي خبر الاضراب الى الرئيس الحكيم فرأى ان يعالج تلك النزوة بالهوادة واللين فأعلن انـه قادمٌ لتناول الطعام ذلك اليوم على مائدتنا فأخذ البعض بذلك التنازل ولكنني وبعضَ الرفاق اصررنا على الاضراب علماً منا ان الغداء كان في ذلك اليوم «مجدّرة» وهي اكلة لا بأس بها كيفما طُهيت. وعلى فرض انها كانت رديئةً فاستساغة الرئيس اياها مرةً واحدة اهون من ان تهوّن علينا التضحية بذوقنا معظم العام. ولكنّ ثورتنا لم تكن فاشلة اذ هي قضت عـلى امين بمراعاة جانب الأمانة واحسان معاملتنا فتم بذلك انتصارنا عليه .

رحلة الى الاسكندرية



(ميدان محمد علي في عروس القطر المصري)

كان أعمامي الثلاثة مذكورين عندي بالخير لحبهم لي وعطفهم عليّ وكان اكبرهم اسكندر ذا علم وذكاء ودراية جمع ثروة لا يستهان بها

ثم اضاع بعضها في معرض شيكاغو والبعض الآخر بالمضاربة في مصفق الاسكندرية وأقام اخيراً في هذا الثغر يستثمر البـــاقي من ثروته في الاتجار بالجوخ الانكليزي والتنباك العجمي ويضارب بحكمة واعتدال

بعد مغادرتي الكلية للمرة الاولى، وكنت في نحو السادسة عشرة، نزلت بيروت وعنّ لي ان أغامر فأؤم الاسكندرية لعلي بفضل نفوذ عمي فيها احصل على عمل يستأهله استعدادي الكبير على زعمي، وما لبثت ان نفّذت فكرتي هذه دون علم من والدي. ولست انسى كم اخفقت في محاولتي الهرب اذ لم اكن احمل جواز سفر وكم كانت سفرتي مزرية ومضحكة لقلة ما في يدي من المال.

وما بلغنا يافا حتى صعد الى الباخرة عددٌ من باعة برتقالها الممتاز فلم أكتفِ منه باقل من دزينة كاملة العدة على ان اللذة التي اجتنيتها من التهام هذا المقدار من البرتقال اليافاوي لم تفِ بالغبن الذي لحقني إذ ان الأقدار قيضت لي صيرفيــاً اعور أقنعني بأن لا قيمــــة في الاسكندرية لقليل المال الذي احمله من العملة العثمانية فبادلني منها عدداً من الفرنكات. ولم اكتشف الغبن الذي أصابني إلا عند بلوغي ميناء الاسكندرية حيث اضطررت ان ادفـــع خمسة فرنكات جزاء نقدياً لكوني مسافراً دون جواز فأديت ذلك الجزاء دون احتجاج ولكنّ المأمور احتجّ على نوع الفرنكات لانها كانت ايطالية ولا سوق لها في القطر المصري فأسقط في يدي اذ لم اكن املك سواها ولكنّ الحمال الذي كان ينقل حقيبتي انتشلني من مأزقي ذاك بسؤاله إياي من أقصد في ذلك الثغر. واذ علم ان «تاجر الجوخ العظيم» في عرفه عمي لم يتردد في دفع المطلوب ثقةً منه بأنه مستردُّه وفوقه، وهكذا حلت معضلتي

ولكن كل هذا لم يكن بالشيء المذكور بازاء دهشة عمي عندما رآني فإنه لم يتمالك ان استحمقني وأنكر عليّ إقدامي على ما لم أؤهل نفسي بأية وسيلة، غيرَ اني لما كنت قد وصلت ولا مردّ شاء ان

يعفيني من القيود المنزلية فأحلني نزلاً ارقد فيه وعين لي مطعماً اتناول فيه طعامي وابرق الى عمي اندراوس في المنيا حيث كان يعمل في ادارة السكة الحديدية (وكان على وشك مبارحتها في عطلة) يستقدمه الى الاسكندرية لكي يراني ويقضي عطلته بقربي . ولم ينقضِ يومان حتى وافاني اليها وقضيت بصحبته اسبوعين حافلين بأسباب التمتع ، وكان خير ما علق بذاكرتي من حوادث تلك الرحلة تمثيل « كامل » المجوني ، ومن الأطايب حلوى « عيش سرايا » . وفي الاسكندرية عرفت ان نبات شوك الأرض اسمه خرشوف وكنت في بادىء الأمر لا اطلبه لجهلي ما هو في حين ان اسمه كان يقع دائماً في سمعي لكثرة إقبال الآكلين عليه . فعندما عرفت ان « الخرشوف » هو « الأرضي شوكي » الذي كنت أحبه لم يعد يفوتني كلما وجدته مدوّناً في لائحة الطعام

وكنت أكولاً الى حد « يخرب البيوت » فلكي أخفف عن كاهل عمي لجأت الى « الركة » وذلك انني كنت أمهد لكل علفة بطلب صحن من المرق أفتُّ فيه رغيفاً من الخبز الافرنجي سدّاً لجانب لا يستهان به من الفراغ بكاف زهيد . وعندما جاء دور الحساب لم يتمالك عمي ان ابدى دهشته لالتهامي من الطعام في أسبوعين ما قيمته اربعة جنيهات ونصف مع ان البالغ لا يصرف مثل هذه القيمة البالغة في شهر فأحاله صاحب المطعم عليّ فكان جوابي ان الحساب في منتهى الضبط ، ولولا « الركة » لمَا وقف عند ذلك الحد . وعندما سردت لعميّ حكاية « الركة » خليّ وقاره واطلق ضحكةً عالية وأدّى الحساب بشهية

وعدت من الاسكندرية اوفرَ ثقةً بجهلي وعدم اهليتي للعمل ولكنني تعوّضت عن خيبتي مشاهدات واختبارات اطلقتُ في وصفها لساني اسابيعَ عديدة على مسمع من رفاقي « المساكين » الذين لا اعمام لهم في الاسكندرية لكي يتمتعوا بنعمة حلولها والعيش فيها بهناءة طيلة أسبوعين كاملين ويعودوا منها محملين هدايا ذات قيمة !

الحلقة الأدبية

المعت في ما سبق الى هذه الحلقة وكان قوامها نجيب حبيقة استاذ البيان في كلية القديس يوسف للآباء اليسوعيين وتلامذته المختارون نقولا فياض ونجيب نسيم طراد ونجيب فرج‌الله طراد وبترو طراد ووليم غرزوزي ، وسواهم كثيرون ممن لا تحضرني أسماؤهم .

إنهم كانوا رسلَ الانسانية والاجتماع الراقي والادب الصحيح : كان كيس كلٍّ منهم كيس الجميع وعيلة كلّ من يتغيب منهم عيلة الجميع ، وهم إخوةٌ لا صبرَ لأحدٍ منهم على فراق الآخر ،وسرعان ما يتملصون من ربقة اعمالهم حتى يجتمعوا في نادٍ او مقهى إذهاباً للسآمة وتجديداً للقوى ، ويأتي بعد العشاء دور التمتع والترفيه فيقضون لياليهم مناوبةً في منازلهم سامرين متطارحين ماجنين . وكان لهوهم على انواعه راقياً بريئاً كاحياء حفلات تلقى فيها المناظرات والخطب الادبية والاجتماعية وتُمثل الروايات التهذيبية، وكان الناس يقبلون عليها ، مجانيةً ومأجورةً، إقبالهم اليوم على المقامرة والعبث والمشاهد الخلاعية المخجلة . وكان هذا دأبهم في بيروت خريفاً وشتاء وربيعاً وفي عاليه وسوق الغرب وسواهما صيفاً ، ولا تفوتهم في هذا الفصل رحلات لطيفة يقومون بها متنقلين بين قرى لبنان الفتانة تارةً مشاةً وتارةً ممتطين الحمير ، ولكنهم كانوا يؤثرون التنقل على الاقدام ارتياضاً واغتناماً للذات لا تتوفر للممتطين

اما الجدُّ والبثُّ والاستيقاظ للحقيقة المرّة ومصارحة النفس بسوء الحال والمآل في عهد لا يسيغ العيشَ فيه سوى التمويه على النفس

واصطناع الرضا والاستحسان المفروضين تحت طائلة الاضطهاد فكانت لازمات يرددها كلُّ امرىء كلما خلا الى نفسه اوجمعته الصدفة بصديق يثق من إخلاصه ، على حد القول العامي : « السن يضحك لهم والدمع بعيوني » . فقد كان نجيب طراد وأضرابه ينشرون المدائح للسلطان والدولة ويبكون في سرّهم مما يظهرونه من رياء هم مُكرهون عليه . فما كان اشبههم ضمن البلاد بأعضاء جمعية الاتحاد والترقي الذين كانوا يعملون خارجها .



نجيب نسيم طراد في كهولته

أما التفرنج بمعناه فيخطىء من يحسب انه وليد حقبة الانتداب التي جاوزت ربع قرن فقد كان المتحذلقون من المتعلمين يتباهون بجهلهم اللغة العربية وتعمقهم في معرفة اللغة الفرنسوية ويؤثرون التعبير بها ويدخلون في احاديثهم الالفاظ العربية بنسبة تنذر بامحاء أم اللغات من قاموسهم في وقت قصير . وكان العدد الاكبر من هؤلاء في بيروت يفوّفون احاديثهم الفرنسوية بنزر من الألفاظ العربية من باب التشكيل . وما كان يؤلمني شيء كسماعي اياهم يتخاطبون ويخاطبونني بذلك الأسلوب المخزي

فطوبى لنا اذن ونحن اقلية ضئيلة في مهجر يطغى علينا سيله ويجرفنا

تياره اذ كنا ولا نزال نعيب على ايّ مواطن المزجَ بين لغتنا ولغة المحيط لعجزه عن التعبير عن بعض الاوضاع او المصطلحات فيلجأ الى الكلمات الاجنبية ، فكيف وقد رأيت كثرة" هائلة من اهل لبنان يتكلمون بالافرنسية . اننا نعتبر من دواعي اعتزازنا وافتخارنا ان نخاطب الاجانب بلغاتهم ونثبت لهم أننا نحذقها مثلهم . ولكن ان نتكلمها او نمزج لغتنا بها فهذا ما ينفر منه الطبع ويمجه الذوق ويأباه الخلق العربي النبيل

وكان خير ما أتمتع به عندما اكون في بيروت هاتيك الجلسات الصباحية اذ يتوارد الأصدقاء الخلصاء الظرفاء معرّجين على رجاء ان يصطحبوا نجيباً الى المدينة فيخيب ظنهم الواحدَ تلوَ الآخر لانه كان يحبر مقالاته لجريدة المحبة ليلاً ولا يبدأ عمله الا بعد عودته من سهرة طويلة . وعبثاً كانت خالتي تحاول إيقاظه استجابة" لالحاح زوّاره الصباحيين ، باستثناء المعلم الياس جرجس الخوري فقد كان نجيب يحبه ويحترمه ويعزُّ عليه ان يخيب رجاءه . لذلك كان اذا ما سمع صوت المعلم الياس يستيقظ من تلقاء نفسه ويستمهله ريثما يغتسل ويرتدي ملابسه فيجلس هذا متوشفاً القهوة ومدخناً واحدة" من لفائفه الاقتصادية ، وفي الوقت نفسه يتحدث الى خالتي ام نجيب في الموضوع الوحيد الذي كان يسترعي كلّ اهتمامها وهو تسوّق الحاجيات المنزلية بأرخص الاسعار . وكان المعلم الياس ممن لا يُشق لهم غبار في مضمار الاقتصاد والتوفير ، لا بخلاً بل اضطراراً لانه كان ربّ عيلة كبيرة يقصر مورده الضئيل عن سد حاجاتها لولا براعته في الاستقصاء والاستقراء والمساومة وخبرته الواسعة في ما يكلفه كل صنف وتعيين الربح القانوني الذي لا يجوز للبائع أن يطمع باكثر منه . وكانت خالتي كثيراً ما تعتمد عليه في تسوّق ما تحتاج اليه ويسعفه تضاعف الكمية على ابتياعه بأرخص سعر ممكن .

رِواقُ الأبطالُ

إن الابطال في العرف العامّ هم أولئك الذين يعظمهم الناس ويمجدونهم ويقيمون لهم الانصاب في الساحات العمومية ويحيطونهم بهالة من الاجلال والتقديس تجسم حسناتهم وتمحو سيئاتهم ، وينسجون لهم من الاعياد التذكارية بروداً فضفاضة تبهر بروائها وزخرفها الابصار فتوهم الرائين أن لابسيها من طينة الآلهة لسلامتهم من العيوب . فهذا قائدٌ حال انتصاره دون مثوله امام محكمة « نورنبورغية » ، وذاك قديس جرف هتاف مطوّبيه همس العارفين بخفاياه ، وهذاك محسان اطلقت عطاياه السخية الالسنة المسبحة بحمده وأبطلت تهم ضحاياه العفاة بأنه إنما جاد بنزرٍ مما ابتزّه من كسبهم الحلال

اما ابطالي فابطال التضحية الصامتة التي لا تلفت الانظار إذ ليس فيها ما يُجتنى فيستوجب الحمد . وكل ما فيها أنها هي العظمة الحقيقية التي تستتر استحياء واحتشاماً ، وتعصمها كفايتها عن تطلب التعظيم والتبجيل والتبويق والتطبيل ، ولذلك يعمى عنها سواد الناس ولا يعنى بها سوى المنقبين عنها في اغوارها العميقة التي تمتنع فيها امتناع المعادن الثمينة تحت طبقات كثيفة من الأتربة والجلامد . فاسمح لي يا قارئي العزيز بأن اقتادك الى رواقي المتواضع حيث أستعرض امامك نخبة من ابطالي ، تاركاً لك حرية الرأي والحكم :

في ميزين الضمير والتكفير

عبده الفصين – كان (ابو امين) يملك بناء حديثاً قائماً على الضفة اللبنانية من فرع البردوني الفاصل بين المعلقة وزحلة . وفي ذلك البناء أنشأ حانة ومتبغة ، وكانت تربطني به وبأولاده صلات متينة أهمها اني في متبغته انخرطت في سلك المدخنين وأنا غير مجاوز الثالثة عشرة من عمري . وفي طليعة ما لا يزال عالقاً بذهني من شؤونه أنه كان في زمن مضى يتجر بالجلود وسواها من لوازم الأسكفة فساءت حاله وافلس واتفق مع دائنيه على معدّل مئوي زهيد دفعه فأبرأوا ذمته ، وعلى الأثر بعث بابنه أمين واثنين آخرين من اولاده الى المكسيك . وشاءت الأقدار ان يصيبوا في تلك البلاد نجاحاً فأسعفوه بمقدار من المال لابتناء منزل وحانوت فما كان منه الا ان حمل ذلك المال الى دائنيه في بيروت مصراً على إيفائهم ما كان قد بقي لهم في ذمته مع فائدته القانونية بعد ان كان قد انقضى على تصفية طابقه زهاء عقد من السنين ، وحال عودته حمّل البريد البراآت الجديدة مرفقاً إياها بكتاب يسأل فيه اولاده ان يطلعوا على تصميم البناء حتى اذا ما اعجبهم شرع في العمل!

ولما كان قد نشأ اولاده على غراره وأشربهم مبادئه القويمة رأوا في هاتيك البراآت التي اعادت الى والدهم اعتباره التجاري خير تصميم لصرح باذخ من الشرف والكرامة فكان جوابهم تحويلاً جديداً بمبلغ اكبر لكي يشرع في البناء الأرضي الزائل .

وقد عرفت فيما بعد بكره اميناً الذي عاد من مهجره لزيارة موطنه وذويه فأوسعت له في قلبي لانه ابلغ والده أمنيته القصوى ومكنه من إتيان تلك البادرة التي سجلت له الفخر ونصبته مثلاً للمقتدين .

في التقوى والرضا والاحتمال

• **أندراوس التويني** – كان يقيم في الجناح الملحق بدار البطريركية الارثوذكسية التي تقدّم وصفها مع زوجه واولاده الاربعة وهم ثلاثة ذكور وأنثى واحدة . وكان وعيلته جيران سكان الدار ولم يُضرْهم يوماً او يحط من قدرهم في نظر كبارنا وصغارنا كونهم فقراء وان الموسرين من اسرة التويني العريقة يتبرّأون منهم ويعتبرونهم دخلاء انتحلوا تلك الكنية المشرّفة تقرُّبا .

نعم ، إن أندراوس التويني كان فقيراً الى المال فقط ولكنه كان من كبار المثرين في الفضائل دون استثناء ، وفي رأسها الرضا الذي لا غنىً حقيقياً بدونه .

كان يبكر الى الصلاة والشكر الذي يديم النعم ويكثّر القليل ، ولا يأوي الى فراشه الا بعد ان يسلم روحه الى خالقها طاهرةً نقيةً من كل شائبة ويعمل نهاره كادحاً فيكسب كسباً حلالاً يضمن الكفاف ويربي اولاده تربيةً صالحةً ويحاول بكل ما في إمكانه ان يكون نافعاً للآخرين ، خدمةً او عطفاً او مؤاساة ، ولا يبخل بفلس الارملة عندما يفيض عن حاجته الماسّة ويجد من هو احوج منه اليه .

اما عمله فكان صنع المعلّل وبيع الجرائد ، وكان يجيد صنعته فيفرض حلواه على اصحاب الذوق السليم فرضاً ، وفي هذا ما فيه من صون الاباء والترفع عن الزلفى .

وعلى صلاحه ورضاه لم يسلم من جور الزمان ، من باب ان « الله يجرب خائفيه » ، فكانت زوجه مصابة بزمانة تقتضي المعالجة الدائمة ، وبكره نخله مصاباً بما هو ادهى وأمرّ ، وأعني داء الكسل الوبيل ، وابنه

الثاني جرجي الذكيّ العامل المجتهد الكاسب يعاني أعراضَ داءٍ عضال لا شفاء له، ولم يسلم سوى الاصغر جبران الذي تعلمّ فعلِم وعلمّ واصبح كاتباً نحريراً وصحفياً قديراً ووزيراً خطيراً، ولم يبلغ شأوَه ايٌّ من افراد الأسرة الذين وُلدوا وعاشوا وماتوا اغنياء. ولعلَّ أسرة تويني الاصيلة اصبحت تدّعي اندراوس بعد ان انجب جبراناً وهذا بدوره انجب غسّاناً.

وكنت في عداد الذين يحبون أندراوس ويُجلُّونه ولا يرَون في بيروت كلها من يدانيه في استيهال الاحترام والاكبار والاجلال الى حد ان يُقام له نصبٌ يرمز الى الفضيلة والكمال الانسانيّ.

في الامانة وصدق الخدمة والولاء

الخادمتان مريم ونسطا – كانت الخدمة المنزلية تكاد تكون خالصة فقد كان الاستخدام ضرباً من التبني لان الخادمة لم تكن ترضى عن «معلمها» او «معلمتها» بديلاً مهما تألبت عليها المغريات فتستمر في خدمتها وتربية اولادهما كواحدة من افراد العيلة. هكذا عرفت خادمتنا مريم ناصيف من حمانا التي اصبحت بعد وفاة والدتي ترعاني وشقيقتي كأمّ ولم تتركنا حتى جاء وقت تركناها نحن فيه ودخلت في خدمة طبيب فاضل من أسرة قدّورة ومع ذلك ظلت تحفظ عهدنا فتشتاقنا كما كنا نشتاقها وتستأذن ربَّ البيت وربته في استقبالنا فيكرماننا كلما زرناها بسبقهما اياها الى استقبالنا وإكرامنا. ومثلها نسطا خادمة بيت خالتي التي ظلت ملازمة «معلمتها» ورافقتها الى باريس وبروكسل ولم تفارقها الا عندما ازمعت موافاة بكرها الى سان باولو.

فأين ما كنا عليه في ذلك العصر السعيد منا اليوم وقـــد سمعت الشكاوى المريرة من كل ربة بيت لقيتها في بيروت وما أثرته في البرازيل حيث بلغ من احدى الخادمات ان قالت ذات يوم لرفيقاتها ، قاصدةً الاثآر لنفسها من صلف بعض السيدات وتعاظمهن في رأيها : «إنهنّ يتحدّثن عنـا في بهو الاستقبال ونحن نتحدث عنهن في المطبخ» !

وبمناسبة ما ذكرته عن مريم ناصيف كان من محاسن الصدف انني بعد اشهر من عودتي الى لبنان اكتشفت ان هـذه المربية التي زالت منذ سنوات عديدة لم يزُل اثرها فقد اكسبتني أختاً بالتربية ، وأيّ أخت ! إنها الآنسة ابتهاج قدّورة المعـــدودة بحق السيدة الاولى في لبنان في مضامير الثقافة والوطنية والاجتماع فقد لقيتها وابنةَ اخيها العالية الثقافة والتهذيب الآنسة زاهية مصطفى قدُورة اتفاقاً على اثر محاضرة القاها في الندوة اللبنانية الاستاذ سامي الكيالي صاحب مجلة « الحديث » الحلبية وعلمت منها انها ابنة ذلك الطبيب الانسانيّ الفاضل اديب قدُورة الذي دخلت مريمنا في خدمته فكانت له كما كانت لنـا مثال الاخلاص والوفاء وربت اولاده حتى وافاها الأجـل بعد خمسة وثلاثين عاماً فحفظ البنون ذكرها وراعوا ، وهم المسلمون ، عقيدتها حتى إنهم في عيد الأموات من كل عام يقيمون في الكنيسة صلاةً تذكارية لراحة نفسها . وذكرت لي الأخت ابتهاج ان اخاها الطبيب نادر لم يكن يعود من سفر الا ويقبّل اولاً يد مريم معللاً تقديمها بعدم خشيته العتب من جهة والدته في حين ان تأخيرها قد يجرح شعورها ! فهل بعد هذا من حس ادق وعاطفة انبل ؟ !

في محل الانتقال لنا « عميرة الحلو »

كنت في أصيل العقد الثاني من عمري يومَ مررت في احد اسواق بيروت الضيقة القذرة في ذلك العهد، حيث كانت تكثر المطابخ الحقيرة

التي تُقدّم الطعام للحمّالين بسعر بخس للغاية هو متليك واحد لكل صحن مشبع ، فاسترعى انتباهي عدوٌ وصياح وضحك وصخب فملت الى موقف حائط أرقب منه ذلك المشهد فإذا بي ارى احد الحمالين هارباً من وجه زميل له يطارده فلم أستهجن تلك المطاردة لانها شيء مألوف بين افراد تلك الطبقة العاملة العارية عن كل علم وتهذيب فإنهم اذا ما أموا تلك السوق بقصد تناول الطعام في مطابخها جلس المتعبون منهم يستريحون ريثما تستكمل المطبوخات نضجها وعكف الأقلُ إعياء على المعاركة والمعابثة إذهاباً لسآمة الانتظار . وكان المشهد الذي تبدّى لي عادياً يتكرّر كلَّ ظهيرة دون استثناء .

اما هاتيك المطابخ فلا تصح تسميتها مطاعم إذ هي كناية عن حوانيت ضيقة قــذرة لا تتسع لأكثر من المعدّات التي يحتاج اليها الطاهي وغير مجهزة بشيء من معدّات الموائد المألوفة ، حتى إن الطبخ نفسه كان يجري في مكان الرصيف من الاسواق المعروفة ، أي أمام الباب حيث تُشبُّ النار في موقد تُنصَب عليه حلّة كبيرة تُسلق فيهـا العظام ونُفاية اللحوم التي لا يصح عليها بيع ولا شراء وتُهال في المرق انواع الخضر المعطوبة والمتهرّئة كالكوسى والباذنجان والبندورة والبطاطا وسواها وإلا لما استطاع أولئك الطهاة أن يقدّموا الصحن المعرّم بمتليك دون أن يكون لهم مورد ربح آخر ، لان كل آكل يأتي مجهّزاً بصحن وبالمقدار الوافي من الخبز .

قلت إني رأيت احد الحمّالين يطارد زميلاً له وقد أخذت عيني في الوقت نفسه حلةً ملآنة قائمة على موقد وقد لجّ بها الغليان وقارب ما فيها النضج . وكأن المطارد يئس من إدراك زميله الهارب من وجهه لكي يكيل له مثل اللكمة التي تلقاها منه فرأى أن يشفي غليله بالرماية فأطلق عليه « الفردة اليسرى من سرمايته » ، ولكن بدلاً من أن تصيب هــذه الهدف سقطت في الحلة وغاصت فيها . ونظراً الى

اشتغال الجميع بمراقبة المتنازلـَين لم يتنبه الى سقوط السرماية إلاي والطاهي وأخذ المطارد يفتش عبثاً عن سرمايته ويتهم زميله الهارب «بأكلها» وزملاؤه المتفرّجون يضحكون ويساعدونه في التفتيش عنها على غير جدوى الى أن اعلن الطاهي استواء الطبخة وأهاب بالزبائن أن يتقدّموا بصحونهم فأقبل هؤلاء عليه بها وطفق هو يملأها لهم بعـــدد معين من المغارف وهم يؤدون له المتاليك ثمن مـا يتلقونه من ذلك الطعام التافه الذي لا يسيغه سوى الجوع المبرّح

ولما كان صاحبنا عالماً بما في قعر الحـــلة كان يغرف بكل حذر ويتحاشى التعمق ، ولكنه في زحمة العمل وقد احتدم وطيس الأخذ والعطاء نسي مسألة السرماية وأخذ يصول بمغرفته ويجول حسب ما تعوّد حتى ابلغها مرةً القاع فعندما اصعدهـا الى السطح كانت السرمـاية في طليعة ما صادته من قعر الحلة فهاله الامر وأسرع فأعادها الى مستقرها ولكنّ الحمال المسكين الذي كان يتلقى المغارف في صحنه حسبهـا وقد لينتها الحرارة البالغة درجة الغليان قطعة لحم كبيرة ناضجة فأحتجَّ بكل شِدّة على حرمانه تلك «الشدّة» زاعماً انها نصيبٌ ساقـــه اليه القدر ، ولكنَّ شجاعة الطاهي ورباطة جأشه وحضور ذهنه أنقذته من تلك الورطة التي اوقعه فيها سوء طـالعه ، ووقته مغبـة افتضاح سرّه الذي كان قد ائتمنني عليه بغمزة معنوية ، فـاجاب ذلـــك المحتجّ المسكين لفوره صائحاً :

«ولاه، العمى في قلبـك ملاً مجنون ، هاي خـيرة الحلة ! ببشلك ما يبيعك ياها» !

ونزل الستار !

ولكن ما ساءني شيء كرؤيتي ان تلك الطبقة الكادحة النـافعة تعيش في عهد الحرية والاستقلال والنور كما كانت تعيش منذ نصف قرن في عهد الاستعباد والاستبداد والمظالم على اختلافها

صدمات قاسية لكبريائي



(مشهد من مدينة بعلبك التاريخية وقلعتها)

لقد اديتُ ووالدي ثمناً باهظاً لما ادخله في روعي صغيراً من عوامل الكبرياء بترديده على مسمع مني أننا متحدرون من أمراء غسان ، ولم يفطن الى الاثر السيء الذي احدثته تأكيداته تلك في نفسي الا بعد فوات الاوان . وشاء ان يصلح ما افسد فراح بعد إخفاقي في الكلية يحاول كبح جماح غروري بسومه إياي المزريات على انواعها ، وفي جملتها إكراهي على الاشتغال بصناعة الاحذية

وتسليم ما ينجز منها الى اصحابه في منازلهم .

وأصبت بأكثر من ذلك في مدينة بعلبـك في نزل بلميرا (تدمر) الذي كان يملكه رجل يوناني يُدعى بيركليس وكانت لنـا صلة ودّ به وبقرينته بفضل آصرة الجنس التي كانت تربطهما بوالدتي . وبعد وفاتها ازداد عطفهما عليّ وكانا كلما زارانا في المعلقة يستعجـلان الوقت الذي ازورهما فيه وأنزل عليهما ، لا ضيفاً بل ابنـــاً . ولكنّ الذي كان يضمره السيد بيركليس فعلاً ، بعد ان شببت واصبحت قـادراً على التعبير باللغة الانكليزية ، هو استخدامي كترجمان لدى السياح الذين كان يتوقع ان استهويهم بقدرتي الى نزله ، وعلى هذا اتفق سراً مـع والدي . وازف اخيرا الموعد المنتظر فعهد والدي الى حوذيّ اسمه ميخائيل بإيصالي الى بعلبك حيث استقبلني الزوجان بيركليس بالترحاب وغاليا ما استطاعا في اكرام وفادتي .

وكان السيد بركليس فخوراً بنزله وكانت المنافسة على اشدها بينه ، باعتبار كونه صاحب « أقـدم نزل في مدينة الشمس » ، وبين زميل له يُدعى انطون عربيد ، صاحب « احدث نزل فيها » . وكان هذا قد عهد بإدارة نزله الحديث الانيق الى ابنه ابرهيم ، وهو شابٌ ذكيٌ حلو الشمائل سبق لي أن زاملته في الكلية . إزاء هذا التفوّق المزدوج كان اعتماد السيد بيركليس عليّ ، لانتشاله من مأزقه ، غبـاوةً مزدوجة ، ولكنني التمس له عـــذراً من انخداعه باهليتي .

ولما كان قد بدأ موسم السياحة راح السيد بيركليس يوفدني يومياً الى المحطة في موعد وصول القطار متوسماً فيّ القدرة على اقتياد اكبر عدد ممكن من السياح الى نزل بلميرا الشهير .

على أني ما كدت أدرك حقيقة ما رمى اليــه السيد بركليس من استقدامي الى نزله حتى تبدّت لي انانيته البشعة ورحت اتبرّم وألقي شكاتي المريرة في سمع الحوذيّ ميخائيل لأنني لم آنس لتلك المهنة التي

ارادها لي ذلك الفندقيّ المرائي تقديراً مني أنه لا بدّ مُبلغها والدي وأن سليل أمراء غسان لا يمكن ان يرضى لابنه بتلك المهانة فيعجل في استقدامي .

وبينما انا في انتظار الفرج كنت اذهب الى المحطة ، لا لاستقبال السياح ودعوتهم لمرافقتي الى نزل بلميوا بل لاقف كمتفرّج بقصد التسلية متوقعاً ان تقود اليّ الصدفة سائحاً ضالاً يستشفُّ قصدي الخفيّ فيلتمس مني بانكسار ان ادلّه على نزل يأوي اليه . وكانت النتيجة دون استثناء فوز زملائي الاجرباء الملحفين وعودتي بخفي حنين لألقى من السيد بيركايس اللومَ والتقريع دون ان يجديني فتيلًا احتجاجي كذباً بقلة عدد السياح وأن القليلين الذين وصلوا جاؤوا قاصدين انزالاً معينة سبق لهم ان حجزوا اماكن فيها .

واخيراً بلغ من هياج الفندقيّ المتصلب انه اقصاني عن المائـــدة العائلية وقضى بأن اتناول علفاتٍ هزيلة تافهة في المطبخ . وإزاء هذه الحـــالة المزرية استجرت بصديقي وزميلي إبرهيم عربيد فما كان منه ومن والده الا أن استقبلاني باذرع مفتوحة. وبلغ من امتناني لهما أني تطوعت للخدمة على المائدة واستجابة مطالب النزلاء في مخادعهم فأحمل اليهم زجاجات الماء الغالي لتدفئة فرشهم . وكان الجميع يكافئونني باكراميات زهيدة كنت لدهشتي لا اتورع عن قبولها . فيا لسليل الغساسنة يمثل دور امراء بني حرفوش عندما حط بهم الدهر فكان واحدهم يأتي الى المعلقة ممتطياً فرساً يقتاده خادم يطرق ابواب المنازل طالباً صدقة لذلك الأمير العظيم الذي يسمو به شرف اصله عن مد يده للسؤال !

وهكذا تحوّلت من جبار يتصدر المآدب الى قزَم يخدم الجلوس اليها ويلبي اوامرهم في مخادعهم ، مما حرك قلب ميخائيل بالشفقة عليّ وحمله على إعادتي دون ان ينتظر موافقة والدي .

وكان يشغل صدر المركبة سائحٌ اميركيّ وزوجته ، لذلك جاورت ميخائيل في مقعده المكشوف متحملاً بردَ الربيع القارص . وباغرائه مثلت دور الترجمان ورحت أجيب السائحَين عن بعض الأسئلة وأدلي اليهما بمعلوماتي عن بعض المشاهد والاماكن الأثرية الواقعة على جانبي الطريق . ولم اكن في داخلي اتوقع على تلك الخدمة ايّ جزاء ولكن ميخائيل اقنعني بوجوب التقاضي ولذلك ما بلغنا النزل الذي حله السائحان قرب محطة المعلقة حتى وقفت منهما موقفاً مذلاً استنتجا منه قصدي ووثقا من إصراري على الظفر بمكافأة على « الخدمة » التي اسديتها اليهما فنفحاني بقطعة فضية قيمتها خمسة شلنات كانت في ذلك العهد ثروة فاقتبلتها بسرور ظاهر شاكراً عليها ولكنني ما كدت أبتعد خطوات عن ذلك المكان الذي خُيّل اليّ أنني بذلت فيه كرامتي لقاء خمسة شلنات حتى شعرت بسهام الخجل تمزّق أحشائي .

* * *

والآن ارى ان المهانة بمعناها لم يكن لها اثر الا في مخيلة الفتى الغرّ الذي كنته . وإني ادين اليوم ذلك اليافع المتعاظم سخفاً وبلاهةً بحيث لم يعرف للعمل الشريف قيمةً وساقه غروره الى احتقار الامثولات التي كان يجب ان يتعلمها من حياة البسطاء الشريفة ، اذ لا عيب ولا عار البتة في اي عمل يقوم به المرء بأمانة ويحسنه ، بل إن الجديرين بالاحتقار والادانة هم السرقة والمزوّرون والمهرّبون ومستغلو جهد وعرق جبين الآخرين ، والحكام ورؤساء الأديان الذين يخونون عهد الأمانة وإحسان الخدمة الذي قطعوه على انفسهم .

بطولتي المزعومة

اذا استثنينا الدعوى التي لا تستند الى دليل ويكذبها الواقع فقد نشأت مسالماً من الطراز الاول ، حتى ليصح في القول أنني كنت من القوم الذين قال فيهم الشاعر :

كأنما الله لم يخلق لخشيته سواهمو من جميع الخلق إنسانا

ومع ذلك عرض لي وأنا في الخامسة عشرة من عمري أن أؤخذ بعامل النخوة فأحاول التشبه بالفوارس الأسطوريين ، كدن كيخوتي سرفانتس مثلاً ، لا بل أفوقهم لأنني شئت ان أغيث دون ان أستغاث وكانواهم في الغالب لا ينجدون الا من يستنجدهم . على أني اشبهتهم في الاقدام والاقتحام وخالفتهم بالعودة « راضياً من الغنيمة بعد الجد بالقفل » ، وحامداً الله على سلامتي مما عرّضت له نفسي من مكروه اذ وجدت من يلطّف من حدتي ويثنيني عن عزمي ، شأن الجبان الذي يطلب النزال ما دام هناك من يصدّه عنه . اما حكاية تلك المغامرة البهلوانية فهي في ما يلي :

كان مأمور الاحراش ذا دولة وسلطان وكان يعتمد على والدي في تعقب مهربي الفحم النباتي تملصاً من دفع العوائد المفروضة عليه . وكان والدي بدوره يبث على المهربين الارصاد ويعتمد على إخلاص وتفاني مخبر من الطائفة الشيعية يقيم مع عيلته في ضاحية الكرك ويرافقه في مطارداته المهربين فيقطع عليهم الطريق ويقتادهم وجمالهم

المحملة الى ساحة المعلقة حيث يباع الفحم بأثمان بخسة تستوفى منها العوائد مع الغرامة الفادحة فلا يبقى لأصحابه المساكين « من الجمل الا اذنه » . وكثيراً ما كان المهربون يلجأون الى المقاومة بقوة السلاح وتجري بينهم وبين والدي واعوانه معارك حامية الوطيس . مع ذلك كنت انا أشفق على اولئك المساكين وأرى في مطاردتهم وسلبهم مورد عيشهم الضئيل غبناً لا يرتاح اليه وجداني واكره لهذا السبب المأمور الذي كان شيخاً دميماً ثعلبيّ السحنة متصلب العاطفة متحجر القلب ، ولا يغريني نصيبي من ذلك الجهد الذي يقوم به والدي باستثنائه

وكان المخبر الشيعيّ يحترم والدي ويجلّه كما يهابه لشجاعته واقدامه ويتلطف به والدي فيدعوه « شريكنا » مجاراةً لابناء ملته الذين اتخذوا من « الشركة » لقباً يدلّ على الاعزاز يعممونه اعتباطاً ولكنهم يكسبونه معنىً خاصاً عندما يوجهونه الى شخص يحبونه فعلاً باخلاص . وبفضل هذه الصلة كانت لي على هذا المخبر دالةٌ تقرب في تأثيرها من نفوذ والدي

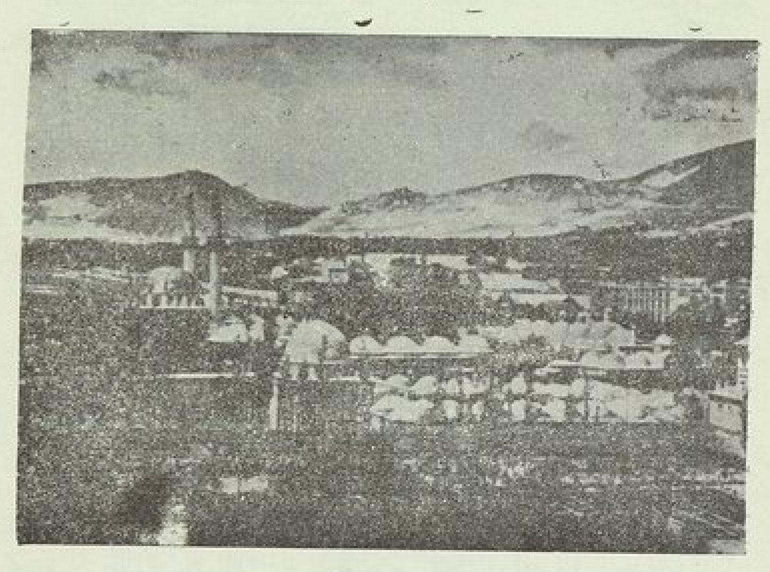
واتفق ان علمت ذات يوم ان المأمور البغيض الى قلبي انتزع حسناء شيعية من حضن ذويها واقتادها الى بيت المخبر عاهداً اليه بالمحافظة عليها ريثما يعود هو من رحلة قصيرة فكبر عليّ الأمر وخلْ عندي ان انقاذ تلك الفريسة الضعيفة من براثن ذلك الشيخ البالي ضرب من البطولة وبادرةٌ من بوادر النخوة العربية فاتخذت لي سلاحاً عصا والدي وخنجره واستثرت همة بعض اترابي لمرافقتي في تلك الحملة الانقاذية فبلغنا المنزل بعد ان خيم الظلام .

وما بصر بي المخبر قادماً مع رفاقي حتى خف لاستقبالي بالترحاب ودعاني للجلوس ولكنني ابيت وأعربت له عن قصدي من تلك الزيارة الليلية فكبر عليه الأمر وراح يتوسل إليّ لكي يحوّلني عن عزمي مؤكداً لي ان تلك الفتاة تبعت المأمور بملء رضاها واختيارها ثقة منها

بوعده اياها بالزواج وانها وديعة عنده يهون عليه ان يفرّط بحياته قبل ان يسلمها وأنا أستشيط وأحتدم وأصرّ على ان اسمع من فمها هي ما يثبت مدّعاه، مؤكداً له أن خنجري يهفو للانغراز في قلب المأمور الطاغية

وانتهى امري بالانصراف بعد أن أجدت تمثيل دوري الى حد إيهام شريكنا الساذج بأنه قد نجا من قبضتي بلطف من الاقدار .

في دمشق



(الكابا في عاصمة الأمويين)

عرفت دمشق سنة ١٩٠١ إذ امتها بصحبة والدي لحضور زفاف شقيقي فيها . وكانت دمشق في خيالي مدينة السحر والجمال ولنا فيها عدد من خيرة الاصدقاء . وخلا مرارة الفراق كانت الأيام الخمسة التي قضيناها سلسلة مآدب ونزهات وحفلات تحلي العيش فلا بدع اني استطبت إقامتي القصيرة لتمتعي في أثنائها بلطف اهل دمشق النادر وسحر حورهم وخفة روحهم وأناقة دورهم وليالي انسهم ولطافة معابثاتهم .

أحرجوني فأخرجوني

كل شيء في هذا الوجود خاضع لسنة الأخذ والعطاء ، حتى إن الروحيات نفسها لا تستثنى من هذا الحكم . وهكذا تصبح النفوس عينها سلعاً يجري عليها ناموس العرض والطلب . فلا يُستغرب والحالة هذه ما كان يجري في بلادنا من هذا القبيل اذ كان يأتينا المرسلون تارةً من انكلترا وتارة من اميركا الشمالية كمبشرين لهداية النفوس الى ملكوت الله . وكانوا يأتون مزوّدين بالعون الروحيّ والماديّ معاً . ومن ينكر ان الغاية تبرّر الواسطة وايُّ حرج في ذلك متى كانت الغاية حسنة ومفيدة للسوى ؟ كذلك لا ينكر ان الاكثرين كانوا يهتدون انتفاعاً والاقلين اقتناعاً . لذلك عندما كان يتعذر على المرسلين ربح النفوس مجاناً كانوا يبتاعونها باساليب مختلفة فيهيئون للبعض سبيل الارتزاق بالعمل ويعينون البعض الآخر على انشاء محالّ للبيع والشراء وسواهم بتعليم اولادهم مجاناً . ومن اطرف اشكال المساعدة ما حدث مرة لحطاب بصر به احد القسوس يحتطب صباح الأحد فحياه ووجه نظره الى جسامه الذنب الذي يرتكبه باشتغاله في اليوم المعد للراحة والعبادة فاعتذر اليه الحطاب بحاجته لاطعام صغاره . واذ ذاك سأله القسيس كم يربح في يومه ، وتبعاً لجوابه ابتاع منه عمل سبعة آحاد بريال مشترطاً عليه ان يكرّسها بومتها للعبادة . فقبل الرجل الهبة شاكراً ووفى بعهده ولكنّ القسيس وجده يوم الأحد الثامن عاملاً

وكان عذره ان الاتفاق المعقود انتهى ولم يُجدَّد . ولما كانت اللغة الانكليزية مشتركة بين الانكليز والأميركان والليرة الانكليزية اشهر من سواها في مضمار التعامل كان جواب الحطاب الحرفيّ : «أنكازلي بأنكازلك» !

وكانت الجمعيات التبشيرية ، وعلى الأخص في اميركا ، تتبرع بالمال اللازم لسد حاجات المعوزين واقتيادهم الى حظيرة الايمان البروتستنتي ، وكان المهتدون بشرط الاكثرية الساحقة . وكانت الكلية السورية الانجيلية تتلقى سنوياً مئات الالوف من الريالات سداً للعجز الناجم عن الحسم الجزئيّ ، وفي بعض الحالات الكليّ ، الذي كان يتمتع به مئات التلاميذ .

ولما كنت منذ صغري أؤم المدرسة البروتستنتية وأحضر الخدمات والاجتماعات الدينية فقد وقعت غنيمة باردة دون أن اعتنق البروتستنتية عن طريق « الاشتراك » . وفي الخامسة عشرة أصبحت من المصلين الدائمين ، وكان هذا مني كافياً لكسب عطف المؤمنين المهتدين وفي طليعتهم ناصر طراد وقرينته اللذان كانا يدعوانني الى منزلهما حيث كانت ُتعقد الاجتماعات .

وفي ذلك المنزل أنشىء فرع لجمعية الاجتهاد الروحيّ وكنت اصغر اعضائه ثم انتُخبت بإلهام الروح القدس رئيساً له فاحتججت بصغر سني وعدم أهليتي بالنسبة الى الكثيرين الذين يفضلونني معرفةً وتمرُّساً ويفوقون والدي سناً فلم يُقبَل تنصلي وحجني رجل ساذَج من صفد مهنته حياكة العبي بقوله إن المسيح كان في السابعة عند ما كان يعظ في الهيكل ، وبالآية : « من افواه الاطفال والرضعان هيأت تسبيحاً » فرضيت مُرغماً لان الرئاسة كانت تقيدني بواجب حضور الاجتماعات الاحدية التي كانت ُتعقد مساءً ، أي في اجمل ساعات النزهة في الغياض وعلى ضفاف البردوني وسواقيه حيث تنتعش النفس ويرقص القلب

وتنتشي الحواس . فأين التنزه في هاتيك الجنان ومشاركة الوف الناس في لهوهم ومرحهم وغنائهم وضحكهم وأكلهم وشربهم من الانحباس في غرفة مع نفر اكثرهم من الكهول والطاعنين في السن الذين ودّعوا زهوَ الحياة ولهوَها وأصبحوا لا يأنسون إلا الى عيش الدعة والسكون والاستعداد لدخول الامجاد السماوية بمطالعة الكتاب المقدّس وسماع الوعظ والترتيل ؟

ولم يكن هــذا مني عن ضعف في العقيدة بل عن استنكاف من الاكتهال في الصبا وتعجل زمن التوبة الصادقة وتوديع ما يتطلبه الشباب من زهو ولهو . يثبت قولي هذا أني كنت ونايلاً ثاني انجال العم ناصر نجول في الاسواق ونبشّر المارّة وأصحاب الحوانيت وننذر الحائدين منهم عن جادّة الصلاح ، بالفكر او بالقول او بالفعل ، وكنا نُشتم ونُلعن ونُطرد معاً فنعذر ونشكر ونبارك ، شاعرَين كأننا أجرنا اجراً عظيماً على اصغر خدمة وكنا من الرابحين .

ومن الامثلة على تمسكي بعرى الدين في ذلك العهد أني كنت قد تعاهدت وقسيسين الواحد اميركيّ والآخر وطنيّ على الاحتفال بعيد الميلاد في بيت ناصر وأن يكون الاجتماع قبل شق الفجر فنزل الثلج وتلاه المطر فأصبح الانتقال متعذراً حتى على الراكب ومع ذلك نهضت في الوقت المعين وسرت برغم نصح والدي وبلغت المكان فلم اجد سوى القسيسين المذكورين وتخلف جميع الذين كنا قد استوعدناهم عن الحضور. ولا تسل عن سرور القس الاميركيّ بي عندما رآني على حداثة سني أثبت أني أفوق الشيوخ تعلقاً بالايمان وأقاوم العناصر وأغامر مغامرة طامع بإكليل المجد .

على أني كنت أحب « الصفة » عشية الاحد ولا أرتضي النعيم العتيد عنها بديلاً . لذلك كنت أنيب عني حيناً وأستغني عن الانابة احياناً ، وإني اشعر اليوم أن ذلك الضغط على غصني اللدن هو الذي

عمل على تقليص ظلّ التقى من نفسي ، وأن تحميلي عِبء الرئاسة في تلك السن هو الذي جرّدني من الصلاحية حتى للعضوية . وهذا يثبت أن مطالبة الانسان بأكثر مما عنده خرقٌ لا يجوز أن يرتكبه من يريد استدامة الدرّ .

رحلتي الثانية الى القطر المصري – على خلوّ وطابي وما لقيته من عناء ومضض في رحلتي الاولى الى الاسكندرية بدت لي نعيماً بالنسبة الى رحلتي الثانية هذه التي قاسيت فيها ما لا أنساه من الآلام النفسية لانني سلمت قيادي لصديق سامني من المحرجات ما لا يعينني على احتماله طبعي ولا خلقي ، في حين أنه لم يكن يقصد سوى خدمتي والترفيه عني . وعذره أنه ساواني بنفسه جهلاً منه لما بينه وبيني من الاختلاف في النظريات والآراء فقد لقيني في الميناء وأنا على وشك ابتياع تذكرة في الدرجة الثالثة فثناني عن عزمي مؤكداً لي إمكانية الحصول في الباخرة على تذكرة بشروط افضل ثم ظهر أنه خدعني لأننا بعد أن صعدنا الى الباخرة صارحني بخطته وهي أنه قد اتخذ للأمر عدته فهيأ لنفسه مبيتاً في مخدع اصدقاء له من المسافرين كما أفسح لي ايضاً في مخدع يضم اربعة أسرّة يشغل اثنين منها صديق وزميل لي في الدراسة ووالدته الشيخة . وعبثاً اعترضت على هذا التدبير وأبديت رغبتي في إبطاله مؤثراً إحراز تذكرة سفر بالطريقة القانونية إذ أكد لي أن انكشاف امرنا يعود علينا كلينا بأسوإ النتائج وأنه من المتمرّسين بفن السفر مجاناً وقد سبق له أن ركب البحر الى قبرص ، وفي الدرجة الاولى لا الثانية ، دون أن يدفع بارة واحدة . ولكنني اصررت على استفظاع عمله ورحت أذكره بقواعد الفلسفة الادبية التي تعلمناها معاً في الكلية فاكتفى بالضحك من سذاجتي وإذ ذاك تبدى لي أن العلم كالبذار لا يكفي فيه أن يكون صالحاً بذاته لان مدى نموّه يتوقف على نوع التربة التي يقع فيها ، لذلك كنت وإياه على طرفي نقيض مع اننا اغترفنا من

معين واحد لا يميز بين المتهلين بل يغدق على الجميع بالسواء .

وبينما كان هو يجلس الى المائدة ويتمتع بالاطايب ثم يصعد بعد كل علقة الى سطح الباخرة مشرعاً سيكاره ومقصياً بجرأته كل شبهة في أن يكون من ركاب « عشت » كنت انا اتحاشى الظهور ويخيّل إليّ كأن الابصار كلها مصوّبة نحوي وكل الاصابع تدلُّ علـيّ متهمةً إياي بالاختلاس .

وقد قضيت الايام الثلاثة التي استغرقها السفر متحاشياً أن يراني احد من عمال الباخرة وحاسباً أن مهمة كل مقبل نحوي منهم القبض علـيّ حتى إني لم اذق في هاتيك الايام كلها إلا ما كان يأتيني به صديقي إشفاقاً منه عليّ أن اموت جوعاً .

وإنْ أنسَ فلا انسى تلك الرعدة التي اخذتني في إحدى الليالي وقد دخلت المخدع ، ولاضطرابي اقفلت الباب عـلى طرف معطفي ورحت أحاول التملّص حاسباً أن احد موظفي الباخرة قد امسك بطرف ردائي ليقتادني للمحاسبة !

محاولاتي الادبية – بدأتُ محاولاتي الأدبية ، إنشاء وتعريباً ، منذ حداثتي ولكنها كانت كلها عقيمة . على أنه اذا حقت لي المفاخرة فبشيء واحد هو أني كنت ولا ازال من أبخل الناس في العلامات التي أعطيها لنفسي وقد أتلفت حتى اليوم عشرة اضعاف ما كتبت ، على اقلّ تقدير ، وإلى ذلك فكثيراً ما ألجأ الى المحك وذلك أني عندما اكون متردّداً أعرض ما اكتبه على اشخاص مختلفي المدارك والقابليات وأغلّب رأيهم على رأيي .

ولم أدرك طور النضج إلا في صيف ١٩٠٥ إبّان العطلة الاولى التي منحتني إياها حكومة السودان فأنشأت في بيروت مقالاً بعنوان « اين السعادة » نال حظ النشر في جريدة المحبة لصاحب امتيازها فضل الله ابي حلقة والتي كان قائماً على تحريرها بأسلوبه العصريّ الشائق ابن خالي

نجيب نسيم طراد، وصادفت ارتياحاً شجعني على إعادة الكرّة فأنشأت مقالاً جعلت عنوانه : « قلب تحت حجر » نقحته وبدّلت فيه ثلاثاً بإشارة من ابن خالتي نفسه حتى بلغ الحد الذي أهله للظهور في صدر تلك الجريدة فركّب لي فرحي جناحين .

وقيّضت الاقدار بأن يكون لهذا المقال شأن لم اكن اتوقعه ، ذلك أني في صيف ١٩٠٧ نشأ تعارف في احد مصايف لبنان بيني وبين أسرة بيروتية بسبب طموحي الى يد إحدى كريماتها وأدّى الى إحكام صلات ود بيني وبين إحدى شقيقاتها ، وكنت قد عرفت أنها تميل الى ابن عم لها يمنعها شقيقها الاكبر من الاقتران به تمسكاً منه بالتقاليد المذهبية لانه ارثوذكسيّ وابن عمه بروتستنتيّ . فلما آنست مني تلك الصديقة نزعةً حرّةً وثورةً لا هوادةَ فيها على التقاليد الموروثة من أي نوع كانت سألتني أن أروي حكاية حالها في مقال أنشره في إحدى الصحف فتستعين به على إلانة قلب شقيقها او تهديده بانقطاعها الى دير. وشدّ ما كانت دهشتها عندما أجبتها بقولي إن سؤلها جاء متأخراً لان المقال الذي تريده مكتوب ومنشور منذ عامين . والحق يقال أن ذلك كان من غرائب الصدف لان مقال « قلب تحت حجر » كان بالمعنى الذي ارادته تماماً فلم يبقَ سوى الحصول على عدد « المحبة » الذي صدر فيه فبعثت أطلبه من صديقي فضل‌الله ابي حلقه فأجابني آسفاً لعدم وجود نسخة الا ضمن المجموعة غيرَ أنه وعدني بالسعي للحصول على واحدة من بعض القرّاء و لم ألبث طويلاً حتى تلقيتها وأودعتها صديقتي كتاباً كان شقيقها يتصفحه قبل الرقاد ، ولاستغرابها الشديد وسرورها الأشدّ رأته بعد ايام يتحوّل من المنع الباتّ تحت التهديد والوعيد الى التخيير والتنصل من المسؤولية .

وقد سرّني كثيراً أنني بعد عامين زرت الزوجين النسيبين في إحدى مدن السودان وهنّأتها تهنئة قلبية بقرانها وبمولودهما الجديد وحياتها

الزوجية السعيدة برغم عيشها في بلاد تقرب من الجحيم .

وأذكر أنني في صيف ١٩٠٧ زرت يوماً إدارة « المحبة » فلقيني صديقي فضل الله ابو حلقة بالترحاب ودار بيننا حديث انتهى بأن ابلغني نبأ وفاة الرجل الكبير سليم شحاده وكلفني أن أروي لقراء المحبة ذلك الحادث الجلل فاعتذرت وتنصلت ولكن على غير جدوى . وعندما احتججت بالجوع بعث فجلب لي غداء فاخراً وأجلسني الى المنضدة وقدم لي المعدات الكتابية اللازمة جهلاً منه بكيفية كتابتي المقالات التي كان اقصرها يقتضيني جهداً متواصلاً طيلة أسبوع كامل . ولست أنسى كم جاهدت وكم تصبب من جبيني العرق البارد وكم ابتهلت الى الله أن يرسل لي من أستعين به على سبك تلك القطعة في قالب يليق «بسمعتي» وبالفقيد الكبير . وكان أن قدم صديقي الشاعر والاديب الياس حنيكاتي فتنفست الصعداء ولكنني كنت كالمستجير من الرمضاء بالنار لأنه أخذ يؤكد لي باسلوبه الشرقي المألوف أنه ليس أهلاً للاشارة عليّ وأنا العن في سرّي الساعة التي اوقعني فيها سوء طالعي في ذلك المأزق .

اخيراً انتهت تلك القطعة المشؤومة التي اذكر أنها لم تجاوز العمود وأرسلت الصفحة الى قلم المراقبة فعادت تنبئني بأن عذابي لما ينته بعد لأن حضرة المراقب لم ترقه البتة إشارتي الى الهلال في معرض وصفي للفقيد فكان جهاد جديد انتهى والحمد لله بانتهاء مهمتي وفك إساري .

ومما لم يرضَ عنه المراقب ايضاً عبارة استهلت بها مرة مقالاً نشرته جريدة المحبة هي « خُلق الانسان ضعيفاً » فأبدلت من هذه العبارة ما يضارعها ولكن ابن خالتي نجيب طراد أبى إلا ان يهتدي الى سبب معقول لحذفها . وبعد أن طال بحثه وتفتيشه وتسآله اكتشف السرّ بواسطة صديقه وزميله الاستاذ جبران فوتيه وهو أن تلك العبارة آية قرآنية .

وظلت منذ صيف ١٩٠٥ حتى سنوات بعدها أواصل « المحبة »

بمقالات مختلفة المواضيع ، وفي سنة ١٩٠٩ نشرت عـــدة مقالات في جريدة البرق التي كان يصدرها صديقي الشاعر الكبير بشاره عبدالله الخوري بتوقيع « إرميا » ، وفي جريدة « الحرية » التي كان يصدرها صديقي الاديب والخطيب المعروف داود مجاعص .

وفي إدارة « البرق » تعرّفت الى الكثيرين من أدباء بيروت في ذلك العهد ، في طليعتهم الشيخ اسكندر العازار ، وحليم دموس الذي أصدر فيما بعد جريدة « الاقلام » ثم « الاحلام » .

اول ما كسبته من قلمي — كان اول ما كسبته من قلمي اربعين قرشاً مصرياً ، لم اقبضها ولكنني وُقّيت شرّ دفعها . ذلك أنه عندما أعلن الدستور في تركيا شاء المتحمسون من موظفي مالية السودان أن يبرقوا الى جمعية الاتحاد والترقي في الاستانة مهنئين وفرضوا على كل مشترك في توقيع برقية التهنئة عشرين قرشاً هي أجرة كلمة واحدة من نصها . وجاءني المولج بجمع المال وفي يده البرقية فتمعنت فيها وقلت له إني أدفع اربعين لا عشرين فاستغرب سخائي ولكنني أزلت استغرابه بحذفي من النص اربع كلمات اعتضت عنها بكلمتين فاستقام المعنى المقصود وازداد وضوحاً .

غزوناها بدلاً من سرقناها — كان الطبيب سليم عطيه من بينو عكار يقطن مع عيلته أم درمان وكان يضيفنا احياناً على أننا كنا نتمتع بأدبه فوق تمتعنا بمائدته لانه كان من اهـــل الذكاء ومن خيرة الشعراء والمنشئين والمحدثين فلا بدع إذن أنه كان يحب الشراب ولكنه كان ممتنعاً عليه بسبب مرض الكلى الذي اورده حتفه في سن مبكرة لانه برغم علمه كطبيب كان يؤثر قنطار علاج على درهم وقاية ، والذكيّ عادةً يفضل الحياة قصيرةً عريضة عليها طويلةً ضيقة .

وكان قد ألف إطلاعي على ما تجود به قريحته ، والى القارىء مثالاً من امثلة تدقيقه واهتمامه بالحلة اللفظية التي يلبسها بنات افكاره :

زرته مرةً على أثر إرساله موشحاً للنشر في مجلة الكلية ضمَّنه ذكريات عذاب له فيها فأبدى لي أسفه لأنه لم يستطع إطلاعي عليه قبل إرساله على أن هذا الفوت لم يمنعه من تلاوته فمرّ بأبيات تشير الى الاعتداء على حديقة الرئيس واقتطاف الورود منها فخطأته في استعمال عبارة «كم سرقناها» مؤثراً عليها «كم غزوناها» فضرب كفاً بكف وقام لساعته فأبرق الى إدارة مجلة الكلية لكي تبدل هذه من تلك .

ومن روائعه في مطارحاته الدعابية مع زميله يوسف مبارك الطبيب والضابط في الجيش المصريّ ، من ريفون ، وكان يعتزّ بلقب « بطرك » ، إستهلاله إحدى رسائله اليه بالبيتين العاميين التاليين ، وقد ضمنهما إشارة لبقة الى أرثوذكسيته ومارونية صديقه :

من مار متري الف سلام   والف تحيه لمار مارون
بعين الواحده إلو كرام   وكيف لو كان بجوز عيون

كلمة الختام لهذا العهد

لقد ظلّت الصراحة دأبي في جميع أدوار حياتي . ومن الصورة التي رسمتها مني في جميع ما رويته عني وعن سواي يتبين القارىء انني كنت ولا ازال في الوجود الذي فُرض عليّ المحاربَ الاعزلَ الذي تُعرب عن حقيقته الابيات التالية التي نظمتها كملخص لتاريخ جهادي في سبيل ما اردته للبشرية من خير وصلاح ، وكنت في كل حال فريسته الراضية المطمئنة :

الى السبعينَ اوصلني زماني   وبلّغني الكثيرَ من الأماني
ومن خاض المعارك طاحنات   وحيداً عُدَّ فذّاً في الطعانِ
معاركُ في سبيل الحقِ كانت   وإرضاء الضميرِ وغوثِ عانِ
وما استهدفتُ فيها غيرَ نفسي   ولم يُخضَب بغيرِ دمي سناني

ولكنَّ الذي قد حِرتُ فيه بقائي رُغمَ زهدي في أمانِ
بعصرٍ بات فيه الزهدُ جرماً يجرُّ الصلبَ من بعدِ الهوان
وقولُ الحقِ اصبح فيه كفراً يذود المرء عن سكنى الجنانِ
وأعجبُ من بقائي عطفُ صحبٍ كرامٍ اكبروا قدري وشاني
وواحدهم ، وهم نزرٌ ، بألفٍ فلو لم يبقَ إلاهُ كفاني

ولكن مهلاً إذ يبدو لي أنني وقعت من حيث لم أشأ في تناقض معيب ، فقولي إنني « محارب اعزل » منافٍ للمنطق ، بل هو تهمة باطلة ضدَّ الطبيعة الحكيمة التي سلَّحت كلَّ كائنٍ في هذا الوجود ، دون استثناء احقر الحشرات في عرفنا نحن البشر الجهلاء . اما سلاحي فقد كان من نوع غير مألوف ، وأنا مدين له بفوزي في جميع المعارك التي خضتها . إنه سلاح سرّيّ أحار انا نفسي في تسميته ووصفه لأنه غير منظور وغير مُدرَك . انه كناية عن الخداع الاصدقاء الذين سخرتهم الطبيعة لنصرتي بعد ان سترت عنهم سيئاتي الكثيرة وجسمت في نظرهم حسناتي القليلة ، وإلا فكيف أفسر ما شملوني به من حب وعطف وتأييد ؟ :

تبدأ السلسلة بالخوجه علي افندي الذي كان يدرّس التركية في سراي المعلقة ويجيد في الوقت نفسه العربية . فعلى حداثة سني وضآلة شأني استخلصني وقربني منه الى حد انه كان يُسرُّ اليَّ دون اقل تحفظ شكواه من الحكم السائد ، غيرَ متورّعٍ عن ذم السلطان واعوانه دون استثناء .

يتلوه في ذلك كله غيرُ واحد من كبار الضباط الاتراك في ذلك العهد ، على علمهم بسوء المصير اذا اتفق أن اتصلت بأولياء الأمر ولو همسةٌ واحدة من هاتيك الهمسات التي من شأن اهونها ان تقود الى الهلاك

ويدهشني أنني لم أخيب ظنهم بكوني ممن يؤتمنون على الأسرار إذ هذه هي المرة الأولى التي أفشي فيها هذا السرّ الذي كان منذ

نصف قرن رهيباً وأصبح اليوم هنةً لا يُعتدُ بها .

وتدرّجت في نيل الحظوة حتى ظفرت بمكانة لا بأس بها عند نفر من خيرة الشبان المثقفين وجاء زمن اصبحت فيه من ذوي الرأي حتى عند نخبة من رجال الفكر والقلم الذين كانوا في نظري انصاف آلهة ، فكيف وقد كان بعضهم يودّ لو هو استطاع احتذائي .

ومما يكاد لا يصدّق أن سعيد شقير الذي كان مرعبة موظفي مالية السودان ، صغيرهم وكبيرهم ، كان يؤثرني ويعاملني بالحسنى برغم ثورتي الدائمة على الأساليب الجائرة المتبعة في تلك الدائرة ومحاولتي إنصاف صغار الموظفين المرهقين إذ انه كان في قرارة نفسه يرى فيّ كفاءة تشفع بتمرّدي وسخطي على كل اجحاف يحلُ بي او بسواي ، غير أنه كان يأبى ان يرفّعني استثنائياً لكي لا اكون قدوة سيئة لسواي

ولا يقلُ عما تقدّم غرابةً مسلك ضابط سوداني يُدعى عطا افندي جمعتني به الأقدار في مركب شراعيّ وجهته بحر الغزال في زمن كان فيه الحكم العرفيُ سائداً فما كاد يجري بيننا تعارف سطحيّ حتى عهد إليّ بقيادة المركب والتصرف المطلق في شؤون البحارة والركاب فأصبحت باسمه امارةً لا يُعصى لي امر ، ولكنني كنت عند حسن ظنه وصدق فراسته فلم استعمل سلطتي المطلقة الا للخير والصالح العام

وأختم هذه النماذج القليلة بأغرب حلقات هذه السلسلة وهي العلاقة التي نشأت بيني وبين نسيب فيلبيدس الذي كان معتبراً الحجة الناطقة الملموسة على قابلية الشرقيّ للارتقاء ، ليس في علمه وفي مظاهره فقط بل في ادب نفسه وسمو اخلاقه ، لذلك كان يجله الانكليز ويحترمونه ويفاخر ويعتز به السوريون واللبنانيون والمصريون والسودانيون على السواء ، حتى إني كنت بالنسبة اليه قزماً بإزاء جبار ، ومع ذلك فقد بلغ من انخداعه بي أنْ اصبحت صديقه الأعزّ يود لو هو استطاع ان يضيفني في منزله يومياً ويفرض صداقتي على جميع اصدقائه ومريديه .

وبلغ مرةً الأوج في التدليل على تساميه فقد بتُّ ذات ليلة عنده في العراء وكان اولُ ما فتحت عليه عينيّ في الصباح مشهداً كدت أُكذّب فيه نظري : فيلبيدس بكل مهابته وأناقته وجلاله جالس القرفصاء ومنهمك في مسح حذائي ! فأخذتني رعدة لتلك المفاجأة وأسرعت فأغمضت عينيّ لئلا يلحظ اني رأيته فأذوب خجلاً ولكنه كان ابعد شيء عن التستر إذ بعد ان انهى مهمته جاءني وفي يده الحذاء فأيقظني وراح يستشهدني على براعته في المسح والتلميع ويقول دون ادنى تكلف : « كم مرة قلت لهذا الرذيل عطا ان يمسح حذاءك قبل ان يخرج الى السوق ومع ذلك أهمل اليوم هذا الواجب فقمت به عنه فعسى ان يرضيك هذا من صديقك » ? وغنيٌّ عن البيان انني لم اجب بكلمة لان الدهشة والخجل عقلا لساني !

فما كان اشبهه في وضعه ذاك بالمسيح عندما غسل ارجل تلاميذه. والغريب أني بعد انقضاء خمسة واربعين عاماً على هذا الحادث عثرت له على شبيه في كتاب « جعبة الصياد » الذي أصدره آخراً الاستاذ سعيد فريحه وتلطف باهدائه إليّ وهو « ان طلاب كلية إيتون ، التي يسجل فيها النبلاء وكبار الاغنياء في انكلترا اسماء اولادهم منذ اللحظة التي يولدون فيها ، يخضعون لتقاليد عجيبة ، منها ان صغيرهم ينظف حذاء من كان اكبر منه سناً ، والقصد من ذلك قتل روح الكبرياء في نفوس انجال العظماء والنبلاء » . ولكن شتان في الجوهر بين الوضعين ففي الاول تسامٍ وتواضع مستحبان وفي الثاني صغار وضعة ممقوتان ، لذلك كان الاولى بطلاب تلك الكلية الاقتداء بالمسيح فينظف كبارهم احذية صغارهم .

ومنذ سنوات جرى لي في سان باولو حادث مماثل اثار إعجابي بتسامي ورقيّ إحدى كرائم سيداتنا الثقيفات العاليات التهذيب ، فبينما كنت اتحدث الى زائرةٍ ونسيبة لها اقترحت عليّ هذه امراً لا يعنيني

عليه طبعي ولا إمكاني فأجبتها بقولي : « كنت احسبكِ ياسيدتي اعرَف الناس بحقيقتي ، فأنا من جسم هذه البشرية في منزلة القدم » . وعندما استرعت انتباه ربة الدار الى ما قلته كانت كالمستجير من الرمضاء بالنار إذ اجابتها هذه بكل بساطة : « ليته يسمح لي بأن اكون القدم الثانية » !

هذا غيض من فيض مما عرض لي في سوريا ولبنان ومصر والسودان وهي امثلة لا أعدم لها اشباهاً في مختلف ادوار حياتي في جميع هذه البلدان وسواها كأوروبا واميركا ، حتى لقيت بعد عودتي الأخيرة شخصاً كنت قد عرفته في سان باولو معرفة سطحية فأصبح من خيرة اصدقائي وأجلهم قدراً في نظري ، لا لِما احاطني به من رعاية وحسن وفادة وكرم ضيافة بل لهذه العبارة التي عرّفني بها ادقّ واصدق تعريف وهي : « أحببتك لانني وجدتكَ حقيراً في عيني نفسك » ! هذا الصديق هو إبرهيم الحلو العضو في مجلسي الادارة والبلدية والخبير لدى المحاكم في مدينة طرابلس .

وأخيراً اقول إن الذي استنتجته بعد إعمال الروية وطول التفكير هو ان الفضيلة الوحيدة التي امتزت بها فأكسبتني عطف الاصدقاء المخلصين وكانت سلاحي الذي بفضله احرزت جميع انتصاراتي الباهرة هي الصراحة التي شكا منها كلُ من عرفتهم وعابوها عليّ وأعاذوني منها ، بينما هم اجلوُها في قرارة نفوسهم وكانت العامل الاكبر على ما شملوني به من حب وعطف وتأييد .

وهذا ما أقابله بالشكر والحمد لانني على قلة استيهالي وتجرُدي من المستهويات ، وفي طليعتها المال ، من اغنى الناس بالأصدقاء الأوفياء المخلصين .

العهد الجديد

ولادتي الثانية

يبدأ العهد الجديد في العالم الجديد حيث وُلدتُ وأنا في مستهل العقد الرابع من عمري ولادةً ثانية في بلاد كان عليَّ أن أتلمّس فيها طريقي كما يتلمس الطفل طريقه الى الوجود مسيَّراً في مختلف شؤونه الحيوية بإرادة ذويه وتوجيههم فقد كان كل شيء فيها جديداً عليّ : من طبيعة ارضها وجوّها ، الى لغة اهلها وطبائعهم ، الى عاداتهم وتقاليدهم ، الى مراميهم ومطالبهم وأساليب عيشهم . ولم يقتصر استهجاني على الوطنيين بل تعدّاني الى مواطنيَّ الذين سبقوني الى البرازيل بحكم تأثير البيئة الجديدة فيهم وما اقتبسوه من خصائصها بفضل المعاشرة والمعايشة والتعامل ، على كثرة او قلة ، تبعاً لمُدد إقامتهم فيها . كما كنت مادّياً طفلاً إذ برغم اشتغالي في السودان زهاء عشر سنوات وصلت الى البرازيل خالي الوفاض كجلّ مواطنيّ الذين هجروا اليها وكان متكلهم على بعض من سبقوهم اليها من ذوي قرباهم او اصدقائهم او معارفهم ، الى ان تهيأ لهم سبيل العمل والارتزاق مستقلين .

ولكن الفرق بيني وبين سواي من المهاجرين هو انني بينما كنت

مادياً أمثّل الطفل لياناً وطواعيةً وقابليةً للتكيّف كنت روحياً وخلقياً كامل الرجولة صلب العود صعب القياد ، لا يغريني وعد ولا يثنيني وعيد .

والعقبة الثانية التي اصطدمت بها على اثر وصولي هي اكتشافي انني لم انتقل من بحيرة هادئة الى حوض راكد بل من بحر هائج الى اوقيانوس مزبد بحيث وجدت نفسي مضطراً الى مجابهة العواصف ومصارعة الأمواج على فلكي الضعيف ، شأني فيما مضى ، فإنما انا لجأت الى البرازيل بعد ان ازعجني عن السودان صلف الانكليز وتحكمهم وأمضّني خنوع مواطنيّ لهم من جهة ومن جهة ثانية استبداد هؤلاء كبيرهم بصغيرهم ، وملئت نفسي العراك الدائم لأظفر بالحياة الكريمة لي ولسواي ضمن نطاق الحق والواجب ، غير مبالٍ بالعواقب وغير حاسبٍ للغرق حساباً .

وبعد ان كنت أكافح في محيط جلّه من المستنيرين الواضعين على اعينهم غشاوةً من اغراضهم وأهوائهم اصبحت امام كثرة ساحقة معذورة على أميّتها ومن واجبي كراغب في الاصلاح ان أعاملها بالرفق وأسعفها بالمقوّمات . وفي هذا السبيل يجب ان أحارب نفراً من المستنيرين كانت تقضي مصلحتهم الخاصة بالحؤول دون يقظة تلك واستنارتها وسيرها في سبيل الارتقاء الخلقي بعد ان سارت شوطاً غير قصير في مضمار الارتقاء الماديّ . ذلك أنهم كانوا بتكالبهم على الكسب من ايّ السبل أتى يزيدون اعتقادها رسوخاً بتفوّق المادة وسيطرتها وان الأمر والنهي وقفٌ على من يملك منها قسطاً اوفر ، الى حد ان انقلبت الأوضاع فتحوّل الصحافيون المفروض انهم اساتذة الى تلاميذ يأتمون برأي قرّائهم المفروض انهم تلاميذ . وأنىّ لمن يتلقى الأوامر في مضمار المادة بيمناه ان يصدرَها في مضمار الروح بيسراه .

هذه هي الحال التي رأيت عليها محيطنا في ذلك العهد . ولم يكن

المهاجرون يوماً في حاجة الى من يقنعهم بقدسية المادة الى حد ان يؤلهها في اعينهم ، فقد سبقوا المتعلمين الى عرفان قيمتها بدليل مغامرتهم للحصول عليها غيرَ مبالين بما يقتحمونه من اهوال ، الى حد المجازفة بالأرواح . لذلك اصبحوا بعد ان استوفوا قسطهم منها احوجَ الى من يخفف من غلوائهم ويقنعهم بأن يجعلوا لمداركهم نصيباً من الترقية والتغذية . وهكذا اشبه الصحافيون طبيباً يشكو عليله السمنة فيصف له بدلاً من التقشف الذي يزيلها ، او على الاقل يخففها ، كل ما تغري به طبيعتها نفسها من الاغذية الشهية الدسمة التي تزيدها تفاقماً ، غيرَ ناظرين الا الى حل مشكلتهم دون مشكلة المجموع .

وعلى هذا الشكل تحالف الفريقان على التقهقر بدلاً من التقدُّم ، وتبرير كل مسلك يؤدي الى الكسب بدلاً من اتخاذ الاستقامة أساساً لضروب الاعمال حتى تصبح في الجميع ملكةً تجعل مستواهم الخلقيَّ في مثل مستواهم الماديّ فينعمون في وقت معاً بالاعجاب والاحترام .

ولم اكن اعدم المحبذين والمؤيدين والانصار ، ولكن عند الشدة كان هؤلاء ينسحبون تاركين لي وحدي شرف التعرُّض وخوض المعارك ومكتفين بما تكون قد اطلقته ألسنتهم من القذائف التي لا يجاوز فعلها الدويّ الأجوف .

على أن العامل الذي كان يحدوني الى المثابرة على الجهاد هو أن تأليه مواطنيّ للمادة لم يكن سوى نتيجة منطقية لحاجتهم الماسة اليها ، لذلك كان المعقول أنه إذا ما انقضت هذه الحاجة وأمنوا شرّ الفقر ، اولوا نفوسهم نصيبها من العناية والاهتمام . ولكان نصيب أملي هذا التحقق لولا المتملقون من محترفي الادب الذين أغرَوا المواطنين بحب الظهور وبرّروهم في اعين انفسهم بالمديح المأجور . والأدهى أن جلّ رجال الدين اعتبروا قولَ السيد المسيح : « لا تعبدوا ربّين ، الله والمال ، تخييراً فاختاروا الربّ الأخير وبذلك وضعوا أسوأ مثل

كرعاة لقطيع المؤمنين فحوّلوه الى ذئاب خاطفة .

والذي يزيدني تشبُّثاً برأيي هذا هو أن مجموعنا في البرازيل لم يقصر يوماً في مضمار البذل بل هو كان نسبيّاً على مختلف حالاته سخيّاً الى أقصى حدود السخاء على المشاريع الادبية والاجتماعية والانسانية ، ولكنه بسبب سوء التوجيه بذل في حالات عديدة لقاء السم الضارّ اضعاف ما بذله في سبيل الدرياق النافع .

هذه خلاصة جهادي الادبي الذي لم يثمر لفساد النيات والتواء المقاصد ، ولا ازال حتى اليوم أشاهد التدهور والانحطاط والتردّي في كل هوة في سبيل الكسب غير المشروع ، وأيُّ شيء أحط وأجدر بالادانة من وضع المجرمين الذين يجب أن تعمر بهم السجون في مستوى سراة الناس وأفاضلهم ، لا لسبب سوى أنهم عرفوا كيف يتفلتون من يد العدالة ويبتاعون بالاموال المختلسة الضمائر المعروضة للبيع .

كيف نبتت فكرة هذا الكتاب – ما دانيت السبعين حتى استيقظت لحقيقة الواقع فرأيت المجال امامي قد ضاق والتفتُّ الى ورائي فاذا بي « في زمن الحصايد قد غنيت قصايد » . ومن لم يُثرِ قبل السبعين لا يمكن ان يثري بعدها . ذلك اني بدلاً من ان اكدح كسواي من الكادحين وأطلب مثلهم الثراء من ابوابه انصرفت كزملائي الى خدمتهم في مضمار الأدب منبهاً وموجهاً وحاضاً ومشيداً حتى كانت مآثرهم ومشاريعهم النافعة التي رفعت شأنهم وأكسبتهم الحمد والثناء واذاعت صيتهم فاشتهروا بعد ان كانوا في انعزاليتهم واقتصارهم على خدمة ذواتهم نكرات ، في مهاجرهم وفي اوطانهم الاصلية على السواء ، واحتلوا منزلة اجتماعية لم تظفر بمثلها اية طارئة اجنبية اخرى في البرازيل .

هذه هي الخدمة التي قمت بها نحوهم مضحياً بمصلحتي الخاصة في سبيلهم وراضياً منهم بالكفاف الذي لا أستسيغ سواه على ما قدمت.

ورحت أستعرض ما اتاه إخواني المهاجرون فوجدت معظمهم قد بذل، كلٌّ على مقداره ، مما كسب إعانةً لذوي قرباه او مساهمةً في ما تحتاج اليه بلدته من مختلف المشاريع الثقافية والانسانية والعمرانية ، مما اتخّذ ، ولا مشاحّة ، دليلاً على الحب والبر بوطن الآباء والاجداد ، وإن يكن البذلُ في بعض الحالات قد أضرّ بدلاً من ان ينفع ، فكم من عطاء أدّى الى القعود وشل السواعد عن العمل المجدي وإغراء صغار الاحلام خائري العزائم بالكسل فقلت في نفسي : ها قد جاء دوري لاتيان ضرب من الاحسان لم يألفه جلُّ المهاجرين ، ولعزَّ عليهم ولو هم شاؤوه ، وأعني الاعتماد على فكري وتجاربي واختباراتي وقلمي لايقاظ النيام وتشديد العزائم وإثارة الهمم للعمل والانتاج ، وإقناع المغامرين المتوثبين بأن الهجرة التي يصبون اليها ليست في واقعها الا من باب الاستشفاء من داء بدءا .

وهكذا عوّلت على التنفيذ دون أن يفوتني أن نسبة منطق الروح الى منطق المادة كنسبة الوعد الى الانجاز . وهل يُلام البشر وقد وضع لهم خالقهم ، حسب رواية التوراة ، المثل ، إذ هو استدسم تقدمة هابيل فاستساغها واستعجف تقدمة قايين فعافها ، وبذلك أوغر صدره على اخيه فقتله ولزمته اللعنة الابدية ؟ ولكن لا مندوحةَ لي عن الاقتداء بهذا المجرم البريء فهذا حقلي وهذه ثماره وكلٌّ يقدم من نتاج عمله ، وفي ذمة الايام الكشف عن ايّ التقدمات كانت ادعى وأجدى

مقدّمات الفكرة — كنت في سنة ١٩٤٣ قد اصدرت في سان باولو باللغة البرتوغالية كتابين أردت الاول منهما أن يُطلع المتحدّرين من اصل سوريّ او لبنانيّ على حقيقة البلدَين اللذَين نشأ فيهما آباؤهم فيدركوا أن كليهما نعيم إذا ما رسخت صورةٌ منهما في اذهانهم انتقلت الى قلوبهم فولّدت فيها الشوق والحنين وأصبحوا يؤثرون التمتع والاستجمام فيهما على سواهما من البلدان التي لا تربطهم بها صلة عاطفية .

ورسمت لهم في الثاني صورةً من الشقاء الذي كان يحيق بآبائهم في ذينك النعيمين إذ هم كانوا فريسة الظلم والفقر في عهد حكومة اجنبية عاتية ، مما حملهم على الهجرة ومقاساة الاهوال في ارض غريبة أمُّوها ولا رأس مال لهم سوى سواعدهم المفتولة وعزائمهم الفولاذية وهممهم الشماء فجاهدوا جهادَ الابطال وانتهى امرهم بالفوز المبين وبفتح سلميّ لم يحلم بمثله الفاتحون بقوة الحديد والنار وخلّفوا لهم ملكاً قائماً على اثبت الدعائم ، بما قدّرتُ أنه سيحمل الابناء على إكبار شأن الآباء وتخليد ذكرى بطولتهم وتفانيهم حتى ليقيمون لهم في قلوبهم هياكل للعبادة تُزري بالتماثيل والأنصاب التي تُقام للمجلّين في الميادين والساحات العمومية . ولكنّ جُلّ الآباء حالوا دون اطّلاع أبنائهم على ذينك الكتابين إذ هم لسوء الحظ لم يفقهوا حقيقة ما رميت اليه ، وكلُّ ما حلّ عندهم هو أني عرّيتهم ومهدت لاحتقارهم في نفوس ابنائهم بالصورة الزرية التي رسمتها منهم في بدء هجرتهم ، وكانوا يؤثرون عليها صورةً مصطنعةً تؤدي الى اذهان الأبناء أن آباءهم كانوا في وطنهم في بحبوحة من الامن وخفض العيش ، وأنهم إنما هاجروا مدفوعين بروح المغامرة التي ورثوها عن اجدادهم المتحدرين من أصول عريقة ذات مدنيات متناهية في القدم . فكانت حجتي عليهم أن هذه الصورة التي يؤثرونها هي القمينة بأن تجلب عليهم احتقار أبنائهم الذين وُلدوا في بلادٍ حرّة أشربتهم حبها الى حد باتوا معه يفضلون الشقاء فيها على التنعم في سواها، فلا يجدون والحالة هذه لآبائهم عذراً ولا يقبلون لهم حجةً في تركهم النعيم الذي وُلدوا فيه ليدأبوا في ارض غريبة يجهلون لغتها وعاداتها فينجبوهم فيها ويحرموهم من التمتع مثلهم بتلك الارض المباركة التي لا يفترون عن التغني بأنها ، الى جنب خصبها وكونها تفيض لبناً وعسلاً ، مهبط الوحي والالهام ومنبت الرسل والأنبياء .

على أني التمست لهم عذراً من معرفتهم المحدودة للغة البرتوغالية

وعدت فأصدرت سنة ١٩٤٥ باللغة العربية كتابي « ذكرى الهجرة » الذي يعنيهم كما يعني المقيمين الاطلاع عليه ، وحملت نخبة كريمة منهم على الاكتتاب بنسخ منه تهدى الى قرّاء في لبنان وسوريا وسواهما من الاقطار العربية ، وقد اهديت منه فعلاً بأسماء المكتتبين زهاء خمسمئة نسخة . ولما كنت لا أصلح حكماً عليه اعتمدت في وصف تأثيره على فِقَر اجتزأتها مما ورد عليّ من الرسائل والقليل مما نُشر في الصحف التي تكرّم اصحابها بإنفاذها إليّ ، مقتصراً على ذكر من لم تسبق لي بهم معرفة او تنشأ لي بهم ايةُ صلة ، نفياً لأيّ عامل من عوامل المجاملة او التأثير الشخصيّ . ومن شاء الاطلاع على هذه الفِقر فليطلبها في آخر هذا الكتاب .

وأؤكد للقارىء بما اشتهر عني من الصراحة وعُرفتُ به من الاخلاص أن ما ورد في هاتيك الرسائل والصحف لم يعنني منه سوى ما تضمنه من شهادات نزيهة تفسد حجة الذين ثاروا عليّ ، وبنوع خاصّ الادباء منهم . اما ما نالني من المديح فلم يزدهني بل كان لمغدقيه الكرام عليّ فضل تشجيعي للمضيّ في التأليف واعتماده دون الصحافة التي كرهت الاساليب المتبعة في تغذيتها وترويجها ، كما كان حافزاً لي لاصدار هذا الكتاب .

الفكرة تتحقق — ولما صح عزمي رحت أكاشف به الاخوان ، وجلهم من الأصدقاء الخلصاء الذين عهدت فيهم حبّ لبنان والغيرة عليه والرغبة في خيره وإسعاد بنيه ، فلقيت منهم كلّ تحبيذ وتنشيط وراحوا يكتتبون بنسخ يهدونها ويُسجّل لهم الفضل في لائحة تنشر في آخر الكتاب كما في المرة السابقة . ولكن قام في الساعة الاخيرة واحدٌ منهم يقول بضرورة قدومي الى لبنان لأدرس أحواله عن كثب وأستطيع الاستناد في ما قد أدلي به من آراء الى مشاهداتي العيانية واختباراتي الشخصية ، إذ لا سبيل الى الترجيح بين الآراء المتضاربة

وجلُّ الدوافع اليهـــا مآرب واغراض ونزعات ذاتية وحزبية . ولم يكتفِ بإبداء الرأي بل هو دعمه بعرضه عليّ الاكتتاب بنفقات السفر من البرازيل واليها في الدرجة الاولى . فشكرته واستمهلته ريثما أفكر ملياً في الامر عـلى ضوء اكتتابه السخي المفاجىء وأتثبت من امكان الحصول عـلى اكتتابات تغطي النفقات الأخرى الباهظة . وبعد إعمال الفكر ودرس المسألة من جميع وجوهها رسمت خطـةً جديدة قدّرت اكلافها بخمسةٍ وعشرين الف ليرة قسمتها على خمسمئة سهم كلٌّ منها بخمسين واستأنفت مساعيّ على هذا الاساس فبلغ عـدد المساهمين زهاء خمسين ولكنّ المجموع لم يتعدّ اربعمئة سهم، اولاً بسبب ازمة مفاجئة عرضت وكأنها كانت عـلى ميعاد مع مشروعي ، وثانياً لأن بعضهـم احسن اليّ من حيث لم يقصد فراح يزيف الغاية من رحلتي ويسمها بميسم الاستغلال بقصد التمتع في لبنان على حساب الاجاويد ، مما نفّرني من مواصلة السعي وحملني عـلى القدوم وفي موازنتي المقدّرة عجز ليس من السهل تغطيته ، وكأني بأولئك المرجفـين ساءهم ان يروا اديباً ينـال مثل ذلك الجزاء الدالّ على قدر صدق الخدمة والتضحية بالمصلحة الخاصة في سبيل المصلحة العامة . ولكنني بعـد قدومي الى لبنان بأيام تبدّى لي أن تلك الحملة التي كانت في ظاهرها نقمةً تستوجب الشكوى انقلبت الى نعمة تستأهل الشكر لانها نبهتني الى حقيقة كنت لاهياً عنها بما انا فيه من ضيق وهي أني جئت لبنان لأتعرّف على وجهه الصحيح، وهذا ما لا يتأتى للمهاجر الممتلىء الوطاب الذي لا يتصل إلا بذوي المناصب العالية وبأمثاله من اهـل الثراء ولا ينتقل الا في السيارات الفخمة ولا ينزل إلا في افضـل الفنادق ويحضر الحفلات الانيقـة ويتلقى الدعوات للمآدب الفاخرة وتُقرَع عـــلى سرّه الكؤوس وتُشرَب الانخاب .

وهكذا يكون قد وطىء من البلاد سهلاً ولقي فيها أهـلاً من انداده اصحاب المـلايين الذين يعيشون عيشة بذخ وترف وينغمسون في انواع

الملاهي والملذات دون أن يمرّ بخاطرهم ولو لحظةً كيف يعيش إخوانهم اللبنانيون المحرومون الذين يؤلفون تسعين بالمئة من السكان المرهقين بالاعمال الشاقة والغلاء الفرعونيّ والضرائب الفادحة. وقد يعود مزدان الصدر بوسام فيسبّح بحمد الحكومة ويُشيد بما اتته وتنويه ويُطمئن زملاءه في المهجر أن لبنان وأهله في نعيم، ولا بِدعَ فإن خبر الجحيم لم يتصل بسمعه فضلاً عن أن تراه عيناه وتطأه قدماه.

ولم اكن انوي البذخ في ايّ حال ولكنّ ذلك العجز الذي ازداد بعد قدومي زيادةً فاحشة لأسباب وعوامل عديدة لم تكن في حسباني زادني تشبثاً بخطتي التقشفية وضاعف مناعتي ضد المغريات على اختلافها ويسّر لي مشاطرة إخواني اللبنانيين المحرومين مضض الحرمان فرحت اضغط نفقاتي في حليّ وترحالي وأساليب عيشي، وعلى هـذا الشكل امتزجت بالطبقات العاملة والفقيرة، وهذا ما أحمد حسن حظي عليه.

ومما زاد في ارتباكي، الى حد أنْ افقدني ثقتي بنفسي واضطرني أن التجىء الى المحك الذي صدّرت بحكايته هـذا الكتاب، تأثيرُ الازمة في النفوس بحيث ضاق صدر معظم أصدقائي الخلصاء في البرازيل وحال نظرهم الى الامور فباتوا يغرقون بما لم تكن تبتلُّ به أقدامهم، ورحت افقد الواحدَ منهم تلوَ الآخر حتى بتُّ أخشى أن أفقدهم جميعاً لغير مبرّر معقول. فما أشبهني بمـا تلقيته تباعاً من الأنباء المحرجة بأيوب، او بالمتنبي القائل:

أظمتنيَ الدنيا فلمـا جئتها مستسقياً هطلت عليَّ مصائبا

ولكنني كنت متسلحاً مثلهما بقدرتي واحتمالي وترفعي عن الشكوى تمثلاً مني بقول الاخير ايضاً:

أحاربُ خيلاً من فوارسها الدهرُ وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبرُ

ولما كان الاخوان الكرام الذين سبق ذكرهم قد أولوني بمساهمتهم المادّية لتحقيق مشروعي ثقتهم الغالية، وبحقها رتبوا عليّ واجب الجهاد

وصدق الخدمة دون أن احسب لأية تضحية وإنْ جلّت حساباً ، فإني اعتبر نفسي موفدَهم وأرى من واجبي ان أشاطرهم شرف الخدمة سواءً بسواء وأسجل لهم الفضل في ختام هذا الكتاب .

اما وهذا مبلغ إدراكي لمسؤوليتي فقد قام في ذهني انّ معوّلي الوحيد يجب ان يكون على نفسي ، وهكذا رسمت الخطة التالية التي لا محيد لي عنها وهي : إني اعود الى لبنان خادماً للحقيقة وعبداً لوجداني فلا أتأثر برأي احد ، لا في البرازيل ولا في لبنان ، وبنوع خاص اصحاب المصالح والمآرب ، حكوميين كانوا ام حزبيين ام صحافيين ، وعلى هذا الاساس سننت لنفسي الدستور التالي :

١ً – هيأت لي الاقدار رحلةً الى لبنان في سبيل كتابي : « من وحي السبعين »، مؤيّداً غير مقيد من نفر كريم من اخواني المهاجرين

٢ً – يسرُّني أن أشاهد وأصافح وأحدّث ايّ لبنانيّ مجرّداً من منصبه او وظيفته او نزعته ، سياسية كانت أم حزبية ام مذهبية

٣ً – أسير حرّاً وأقيم طليقاً وأعود كما ذهبت .

وغنيٌّ عن البيان ان المتطوّعين للاقتراح والاشارة والتوجيه كثيرٌ عديدهم في البرازيل كما في لبنان . ومعلومٌ ان في كلا القطرَين تضارباً في الأهداف والآراء والاغراض والنزعات ، ممـا يؤدي الى البلبلة وفقدان القياد بحيث أحتار في ما أختار فتفسد طبختي وتفوتني الاستفادة من الفرصة الوحيدة التي هيأها لي القدرَ لأقوم بخدمة نزيهة مخلصة لاخواني المغتربين والمقيمين .

وخير مثل اضربه اقتراح صديق لي حميم كريم مخلص يحب لبنان ويتلهب غيرةً عليه وله من مركزه ونفوذه مـا يضمن تنفيذ اقتراحه وهو ان أؤم لبنان بدعوة من حكومته وبنفقتها ، ولا يبعد أن اعود كالكثيرين سواي مزدان الصدر بوسام . وكان هذا من اسهل الامور في زمن الوساطات والمحسوبيات والتطبيقات كما لا يخفى على احد .

وكانت حجته أنّ هذا ليس بمستكثر بل هو مبرّر في حالة اديب لبنانيّ جاهد في سبيل لبنان في اكبر مهجر حوالي اربعين عاماً . ولم يفتني ان اخلاص ذلك الصديق وحبه لي ورغبته في خيري كانت دوافعه لبسط ذلك الاقتراح ولكنها في الوقت نفسه أحالت في نظره الامور وصرفته عن الخدمة العامة التي هي القصد الى خدمتي الخاصة وهي الشيء الثانويّ. وعلى امتناني له وتقيدي بواجب عرفان جميله وقدري لعاطفته النبيلة لم يسعني الا الرفض وحججته بالسابقة التاليـة ، وكانت لا تزال حديثة عهد وأعلق شيء بالاذهان :

كان قد سبق للحكومة السورية أن عملت باقتراح وزيرها المفوّض في عاصمة البرازيل فوجهت دعوةً رسمية الى زميل لي صاحب مجلة شهيرة تصدر في سان باولو ليزور بنفقتها سوريا ويقيم بضيافتها شهراً كاملاً يستطيع في غضونه أن يتثبت من أنّ « الامن مستتبّ فيها والعدالة مؤمّنة لجميع الناس والعدل الاجتماعيّ موزّع بين طبقات الامة على السواء والحالة الاقتصادية في تحسن متواصل والدولة ساهرة على تأمين العمل للجميع بما يوفر اسباب تحصيل الرزق ويرفع مستوى معيشة الناس – وبهذه الوسائل مجتمعة يتم للرعية على الوجه الاكمل ما تتطلبه من الدولة » . فذهب ووجد مساقاً موضوعاً لم يسعه إلا التقيد به وعاد مزداناً الصدر بوسام رفيع الشان وحاملاً ملفاً يتضمن عشرات التقارير والبيانات والجداول الاحصائية ، وكلها مشبعة بالأدلة القاطعة على تحقق كل ما تقدم ، وأصدر بعد حين جزءاً خاصاً ممتازاً جاء في اكثر من مئتي صفحة ومع ذلك لم يتسع لجميع ما حمله من المواد الرسمية فراح ينشر ما بقي تباعاً في اجزاء تالية . ولكن ما كاد ذلك الجزء المنتظر بفارغ الصبر يُوزّع وتلتهم محتوياته التهاماً حتى حدث الانقلاب الاخير وأصدرت الحكومة الجديدة التي لا تزال قائمة حتى اليوم بياناً تقول فيه : « إنها نظفت البلاد من جلاّديها ومستغليها

والمتصرفين في مقدراتها تبعاً لأهوائهم الفاسدة ... » !

وإزاء هذه الحجة الدامغة لم يسع صديقي الكريم الا العدول عن رأيه وسحب اقتراحه . والغريب ، وقد حدث في لبنان ما حدث في سوريا بعد اسابيع قليلة من وصولي اليه ، أنني لو قبلت باقتراح صديقي لحدث لي ما حدث لزميلي المتقدم الذكر ، فما كان اخيب فأله بقبوله وأسعدني برفضي ، فكيف اذا انا اضفت الى ما تقدّم رأيي الخاص في الاديب وهو ان يعتبر نفسه في جوٍّ لا يتسامى اليـــه احد نظراً الى استغنائه الذي يجعله اغنى الناس إطلاقاً ، وترفّعه عن قبول اي وسام من يد ايّ الناس اكتفـاء منه بحلية الأدب التي لا تبلغ مقدارهـا اية حلية أخرى في هذا الوجود ؟

والاغرب أنني كنت كلما سمعت الناس على اختلاف طبقـــاتهم يشكون ويتذمرون ويرسمون من الحكومة الماضية اقبح الصور اقول لهم إنها قريبة الزوال فيستبشرون ويتمنون لو تحقق قولي ولكنهم لا يلبثون ان يعاودهم اليـــأس لعدم رؤيتهم سبيلاً الى الخلاص من ذلك الكابوس الجاثم على صدورهم ولا يعرفون للفرج باباً ، لا من جهة المدنيين ولا من جهة العسكريين ، فأجيب ان الاجماع دليل على ان الكيل قد طفح وفرغ الصبر ، وهذا كفيل بانقلاب اراه لا محالة واقعاً دون ان أناقش في السبيل اليه .

قابلياتي ومؤهلاتي – لقد عوّلت على القدوم وأنا لا أجهل خطورة ما انا مقدمٌ عليه وتضمّنه من جهتي دعوة عريضة لا تتفق وما اشتهرت به من انطواء واحتشام ، إذ من اكون لأملي على اقطاب العـــلم والسياسة والاجتماع والاقتصاد في لبنان او في سوريا ، فضلاً عن سائر الأقطار العربية ، على الأخص في الزمن الأخير الذي لمع فيه عـددٌ كبير منهم في كل هذه المضامير مجتمعة وتفوّقوا فيها في مؤتمرات عالمية وفي منظمة الأمم المتحـدة على اندادٍ لهم من موفدي اعرق الدول

في الاستقلال والحكم الذاتي ؟ . وقد ازددت ثقةً بكفاءة اللبنانيين وكثرة المتفوّقين منهم مما سمعته من المحاضرات في الندوة اللبنانية في شتى المواضيع . واذاً فالذي ينقصنا ليس العلم بل العمل بما نعلم ونقول وهذا ما لا سبيل اليه الا بالاخلاق الفاضلة التي ثبت لي لسوء الحظ أنها تنقصنا الى حد بعيد .

وإذن فمستندي ليس التفوّق في الذكاء والعلم بل في اتساع الأفق الذي رِدته واحتكاكي بشتى الشعوب التي عايشتها وامتزجت بمُختلف طبقاتها وما عرض لي وما اثرته واقتبسته في ما شغلته من الوظائف وغشيته من صنوف الاعمال في الأقطار التي حللتها ، فأعملت فيه رائد الفكر وميزتُ بالمران والتمرُّس والاختبار الشخصيّ بين غثه وسمينه فأصبح في مقدوري بفضل هذه العوامل كلها ان أقوم بمهمة العامل المتواضع وهي ان أعدّ وأقدّم لمهرة البنائين الاحجار والموادّ اللازمة ليقوموا بمهارتهم وحنكتهم ودرايتهم بعملية البناء .

والذي يؤهلني بنوع خاص لهذه المهمة هو بُعدي عن المحيط وما رِضت نفسي عليه من تنزُّه عن المآرب الذاتية اياً كان نوعها والنعرات مهما يكن لونها وانفلاتي من كل تأثير وعدم تقيدي بأي مذهب او عرف او تقليد ، فبرغم اعتباري لبنان وطناً مثالياً لأنه يصهر اتباع الاديان والطوائف المختلفة في بوتقة واحدة – وكلها متساوية في جوهرها من حيث إجماعها على الامر بالخير والنهي عن المنكر – فأنا معها كلها دون ان أمارس طقوس أيٍّ منها .

حقيقة الهجرة – لقد اقتصرت الهجرة ، إلا في ما ندر ، على كل من أمضّه الفقر والظلم ، عندما كانت مقدّرات الاوطان الاصلية بيد حكومة اجنبية عاتية تعتمد الضغط والارهاق والارهاب وتسلب العامل والزارع جلّ ما يحصلانه بعرق الجبين غيرَ مبقية لهما ما يفي بحاجاتهما الضرورية من قوت وكساء وسكن ، دون ان تعمل باية

وسيلة على ترقية مدارك الشعب وتمهيد سبل الارتقاء امامه . وما تقلص ظل الأتراك حتى خيبت الدولتان المنتدبتان الظن بعدلهما ومدنيتهما الى حد ان ترحم الكثيرون سراً على عهد بني عثمان وجرؤ امين الريحاني على الجهر فاستحق النفي ، وهكذا استمرت الهجرة بدلاً من ان يعود جل المهاجرين ، ايام كانت عودتهم في الامكان .

الهجرة نقمة لا نعمة ــ ما غادر احد وطنه الا ابقى فيه قلبه وظل يحن اليه حتى النفس الأخير ، وهيهات ان يؤثر عليه بلاداً ولو كانت جنة الله في ارضه . وما اصدق القول المأثور : « لو لم يكن حب الوطن قتالاً لكانت بلاد السوء خراباً » . فكيف بنا نحن ابناء سوريا ولبنان وفلسطين وقد غادرنا بلداناً كانت ولا تزال مهبط الوحي والالهام ، الى انها أعجوبة الخالق بحسن موقعها وجمال طبيعتها وخصب تربتها وعذوبة مائها واعتدال هوائها ، وكل الذنب في شقاء ساكنيها واقع على رؤوسهم . لذلك كان الذين استحالت عليهم العودة اجدر بالرثاء إذ ان التمتع في البلدان الغريبة حكاية لا يؤيدها دليل مقنع ، او هو لا يخرج عن كونه علالة او تمويهاً على النفس إحلاء لمرارة الخيبة ولا أستثني من هذا الحكم حتى الذين فازوا بتأسيس المتاجر والمصانع واقتناء المزارع وابتناء الدور والقصور في مقر أعمالهم وفي المصايف والمشاتي التي يؤمونها انتجاعاً للصحة او استجماماً وترويحاً للنفس . وهذا ما لا يحسدون عليه إذ خير للانسان ان يكون عاجزاً عن التداوي ولا يمرض من ان يمرض وتكون متيسرة له جميع وسائل الاستشفاء .

ولا يخرج عن هذا الحكم ايضاً أولئك الذين استشفوا من داء الغربة باعتناق جنسيات البلدان التي حلوها فبعضهم انكر وطنه الاصلي لنزوة عارضة والبعض الآخر فعل مسوقاً بعامل المصلحة او الضرورة وسواهم بسهولة قيادهم وحبهم للاقتداء او التقليد . ولكن ما خلا

احدٌ منهم الى نفسه وأخلص لوجدانه إلا تبين له وجه الغبن واستشف وراء ثوبه المستعار ثوبه الأصليَّ الصقَ به من جلده .

وبعد قدومي ومقارنتي بين حياة اعظم اغنيائنا في المهجر ومتوسطي الحال في لبنان توصلت الى هـذه النتيجة وهي ان المغتربين يحيون ولكنَّ اللبنانيين يعيشون . ولأضرب مثلاً يغني عن كل ما عداه لانه مستفاد من حياة نجيب يافث عميد الأسرة اليافثية التي لا تحتاج الى تعريف ، وعلى الأخص في لبنان حيث هي تحيا بمآثرها في كل ذهن وتحتلُّ كلَّ قلب .

زرت مرةً السيدة الجليلة النبيلة عفيفـة ارملة نعمة يافث لتهنئتها بحفيد جديد فقالت لي بعد ان حييتها وجلست : بالطبع تتعشى معنا الليلة . قلت الساعة الآن قد قاربت التاسعة فلا يُعقل ان تكونوا بعد بلا عشاء ! قالت : ونجيب والشباب ؟ إنهم يتأخرون الى ما بعـد التاسعة احياناً ! قلت : إذن ما الفائدة من المال ما دام هو يمتطينا بدلاً من ان نمتطيه ؟ فراحت تتلهف على ايام الكفاف !

وعلى ذكر نعمة يافث الذي كان نابغـة زمانـه في حسن الادارة وبُعد النظر والتوجيه بحيث أعلى البناء الذي وضعه اشقاؤه : بنيامين وباسيل وحنا ثم شاد ابناؤه ابراجه الشاهقة التي تناطح اليوم السحابَ يغريني جمال النكتة الطريفة التالية بروايتها عن لسان اديب في عاصمة البرازيل سمعها من خال له بلـغ الخامسة والتسعين ومات بحادث لا علاقة له بالهرم :

كان نفرٌ من المواطنين في منزل سليم الطوفي المعلوف الزحـليّ ينتظرون قدوم « المعلم » للجلوس الى المائدة ولكنه للمرة الأولى تأخر ، وهو المشهور بالمحافظة على المواعيد ، واذا بوالدة صاحب البيت تدخل مبديةً اسفها لتحميلهم بنسيانها مرارة الانتظار على غير جدوى لان المعلم ارسل يعتذر ، وقائلةً بالحرف ما يلي : « شوفوا يا بعدي هالمعلم

الي بيقولوا إنو ذكي ومتعلم بالكلية ، قـــال راح يشتري بابيرنغا متر الارض بقرشين ! إه هادا بيكون عندو عقل ؟ ! »

فليتها عاشت بأعجوبة حتى اليوم لترى بعينها ان المتر أصبح يساوي ثمنه في ذلك العهد خمسة آلاف مرة !

حقيقة المغتربين – لو لم يغادر المغتربون اوطانهم على نية العودة اليها بما كسبوه ، وعندما عزّت عليهم العودة برّوا بها ، وسعهم البرّ لكانوا بحكم جنود ملّوا العراك فتخلّوا عن رفاقهم وفرّوا من الصفوف ولزمهم عقاب الفرارين دون ان تجديهم اية كفارة . لا بل إن جرمهم كان افظع إذ هم كانوا بحكم جنديّ قام بغزوة ليعود الى رفاقه بما يغنمه من سلاح وذخيرة ولكنه بدلاً من ان يعود انضم الى صفوف الأعداء . على ان عذرهم في البقاء واضح وهو لسوء الحظ قائم حتى اليوم

يثبت قولي هذا سبقي فيما مضى الى إنكار حق المغتربين في تقرير مصير بلدانهم او التدخل في إدارتها او شؤونها في مقال نشرته منذ نيف وثلاثين عامـــاً في جريدتي « الجديد » بعنوان « من العرب وللعرب » جاء فيه إن الحق في كل ما تقدّم قاصر على المقيمين الذين ثبتوا في المضمار وقاسوا مضض الجوع والعري والتشريد والتقتيـــل محافظةً منهم على حقهم الموروث . ومما جاء فيه قولي في عرب الحجاز إنهم هم الأبطال الذين يستحقون الاجلال والتعظيم لانهم تحملوا ما لا يُحتمل وعاشوا اجيالاً حاسبين انفسهم من صحاريهم القاحلة في جنات ومن خيامهم البالية في قصور ، باذلين كلّ مرتخص وغال للاحتفاظ بحريتهم وعاداتهم وتقاليدهم واساليب عيشهم البدائيّ . وفوق ذلك انتفضوا على الأتراك وراحوا يجاهدون لتحرير الاقطار العربية جملةً بمساعدة الدول الحليفة . وما اطّلع جلالة المغفور له الملك حسين على ذلك المقال حتى تنازل الى استحسانه وأصدر امره الكريم بنقله برمته الى جريدة « القبلة » فاحتلّ من احد اعدادها مقام الصدارة بعد مقدمة

مشبعة بروح التحبيذ والثناء وقدر العاطفة التي اوحت ذلك المقال .

والواقع هو أن المغتربين لم يرموا في أثناء الحرب العالمية الاولى إلا الى إنقاذ ذويهم من التجويع والتشريد والتقتيل ، ولم يكن لهم بدٌّ من الاعتماد على الحلفاء فرضيَت منهم فرنسا بالتطوُّع الرمزيّ . وتحت ستار العطف والرغبة في تحرير الشعوب الضعيفة المرهقة اغرتهم بالاعتراف لها بحقوقها التقليدية في سوريا ولبنان فوقع في هذه الاحبولة فريق كبير منهم كسبت اصواته في مؤتمر الصلح فظفرت بالانتداب الذي كان شرًّا على البلدَين من الحكم التركيّ ، على ما تقدّم بيانه . ونكثت فرنسا وإنكلترا العهود التي كانتا قد قطعتاها للملك الحسين وأتتا ما كانتا قد عابتاه على المانيا ، وهو اعتبارها المعاهدات قصاصات ورق .

ولقد اصبحت الهجرة الاولى التي كانت بمثابة فتح سلميّ باهر على وشك الانتهاء ، كما انتهى فتح العرب الحربيُّ في الاندلس ، بالخيبة المرة فنفقد بانتهائه كلّ ما جنيناه وغنمناه بانتقاله الى ايدٍ اجنبية لا يعزّينا في شيء أنها ايدي اولادنا لانهم ملكٌ لسوانا وقد انبتّت كلُّ صلة لنا بهم وأصبحنا على مفرق طرق ففي أيّها نسير ؟

إن الهجرة الاولى لا تعدم المبرّرات لأنها بدأت واستمرّت في زمن لم يكن فيه زمامنا في ايدينا لذلك كنا معذورين ، ولكن اذا استمرّ سيل الهجرة في عهدنا الاستقلاليّ الذي نتغنى وندلُّ به تساوى العهدان ، وإذن يكون قد ذهب جفاء كلُّ ما اطلقناه من صيحات وما بذلناه من جهد وتضحيات لكي نظلّ في النهاية كما كنا : عرضةً للتشريد والعيش المرير في العالم الجديد .

وما أبلغ العظة التي نستفيدها من عمر إمام المفكرين وسيد البلغاء لكي يقلّل ما استطاع من اختلاط العرب بسواهم من الشعوب لأنه في رأيه الناضج مؤدٍّ الى الانضمام فالانفصال عن الوطن الاصليّ

فالاضمحلال ، وهذا على قوله يتحقق في الجزر البحرية اكثر منه في البلدان المتاخمة براً فكأنه كان ناظراً الى هجرتنا وراء البحار . ومما يؤيد كرهه التوسع حفظاً للجامعة العربية من التبعثر ما كتب به الى الاحنف بن قيس عندما استأذنه في عبور نهر جيحون لافتتاح بلاد الترك : وددت لو أن بيننا وبينهم جبلاً من نار فلا نصل اليهم ولا يصلون الينا !

فقد صح الآن في هجرتنا الأولى ما قاله عمر فقد انضممنا وانفصلنا ولم يعد بيننا وبين الاضمحلال سوى سنوات معدودة بصيرورة الملك الواسع الذي شاده قدماء المغتربين بجدّهم واجتهادهم وتفانيهم ، طيلة ثمانية عقود من السنين ، الى المتحدّرين منهم ، وفي نهاية القرن لا يبقى منهم احد . والمتحدّرون ، اينما كانوا ، وطنيون ، وأجانب عنا بلغاتهم وروحهم وثقافتهم واخلاقهم وعاداتهم ، فلا تصحّ كما لا تجدي مطالبتنا إياهم بمثل الواجب المفروض على آبائهم .

لقد استقلت سوريا واستقل لبنان وتلاهما الجزء الذي بقي من فلسطين بعد نكبتها المروّعة بانضمامه الى شرق الاردن ، دون ان يجد المليون المشرّد من ابنائها حتى اليوم مقرّاً . وسوريا ولبنان أصبحا ممثّلين سياسياً في جميع المهاجر ، وفي هذه كلها لقي ممثلوهما من المغتربين كلّ ترحاب وتكريم وعون ماديّ فاقتنوا لوفاداتهم السياسية دور سفارات وقنصليات ، كما استقبل المغتربون على الرحب والسعة وفودَ البلدين الحزبية والأدبية والصحافية وأكرموها وأمدّوها ، منفقين في هذه السبل كلها بُدرَ الأموال ، وفي إمكان حكومتيَ البلدَين الاعتماد عليهم ، وسيأتي الكلام على الوسائل التي يجب عليهما الأخذ بها اذا هما شاءتا الفوز بمطلبهما .

بقي ان التاريخ اثبت قابلية البلدين لاستيعاب واعاشة ما فيهما من السكان ، وفيهما من الموارد الطبيعية ما لو تهيأت له الخبرة ورأس

المال والأيدي العاملة لأنتج ما يفيض عن الحاجة المحلية ، لا من حيث الأصناف بل من حيث المقادير ، وهذا هو بيت القصيد إذ بإيجاد اسواق لما يفيض عن الحاجة المحلية من صنف ما تسهل المقايضة على الفضلة منه بما يسد حاجة البلدين الى ما لا قبل لهما بإنتاجه . وإذا كان ما يقال من هذه الجهة في سوريا لا يصح قوله في لبنان لصغر رقعته فحسن السياسة ورعي حقوق الجوار يضمنان له ما ينقصه من سوريا الشقيقة فلا يصح والحالة هذه ان يظل لبنان بنوع خاص معملاً للرجال برسم التصدير الى البلدان الأجنبية فيهملون ما في ايديهم وينتشرون في أنحاء المعمور ليكدحوا في ارض سواهم ويزيدوا غلتها وثروتها ويخدعوا انفسهم الى حين بانهم ملاك وسادة وما هم في الواقع سوى قيمين وأجراء ، ما دام ما يملكونه ويستغلونه صائراً يوماً الى ايد اجنبية تستأثر به لمصلحة بلدانها ولا يكون منه لوطنهم الأصلي ، ما خلا العلاقة الوقتية ، اي نصيب .

الغائب يعود

ولادتي الثالثة



(الشقة الساحلية من عاصمة لبنان)

طلل المدينة وميناؤها — لم اكد أشرف على بيروت من البحر حتى دُهشت لاكتظاظ الابنية فيها ، ابتداء من الجامعة الاميركية ، ومنها الى الشقة الساحلية التي تمتد حتى الى مدخل الميناء ، اذ عهدي بها شبه جرداء .

وعندما دخلنا الميناء راقني ما لم يكن لي به عهد وأعني التصاق الباخرة بالرصيف ، ولكنني لم اتمالك ان شعرت بغصة لزوال عهد البحارة بزوارقهم وتزاحمهم وصياحهم وصخبهم ومهاجمتهم الركاب ومحاولة كلّ منهم الاستئثار بهذا الراكب او ذاك ، فاذا أبى استولى عنوةً على حقائبه والقى بها من أعلى الباخرة الى رفاقه في الزورق فلا تبقى للراكب المسكين خيرة ويضطر الى النزول معه مكرهاً . ولكنني تعزّيت نوعاً بحلول الحمالين مكانهم ، وإن لم يكن هؤلاء مثلهم يفرضون ارادتهم على الركاب فرضاً

ولم ارَ بأساً بالمعاملة التي يلقاها القادمون على ايدي رجال الامن وموظفي الجمرك ، وقد بلغت اوجَ التلطف في ما يختص بي وبرفاقي القادمين من البرازيل اذ جاءنا الزميل المقدام شكري البخاش بما سرّني طبعاً وهو اعفاؤنا بصفة استثنائية من فتح حقائبنا ولكنه ساءني في الوقت نفسه لمجاهرته بذلك الاعفاء على مسمع من الركاب الآخرين إذ هو صاح مبشراً ومفاخراً : « إنكم فوق القانون » ، لانني لا أستصوب أن يكون احدٌ فوق القانون ، وإن كنت اكثر رفاقي تعرُّضاً بسبب كثرة ما احمله من الرزم والحقائب من اصدقائي في البرازيل المتضمنة هدايا الى ذويهم في لبنان وأنا اجهل جلّ ما تحتويه.

ساحتها الرئيسية — وما بلغت ساحة البرج حتى شعرت بارتياح كليّ لما اصبحت عليه من سعة ونظام فقد ازداد حجمها المعهود ضعفين على الاقلّ وحركة المرور فيها منتظمة لا تستوجب شيئاً من الشكوى. وما أطللت على المدينة من شرفة فندق اميركا الذي حللته حتى ازدادت دهشتي لامتدادها وكثرة ما جدّ فيها من الابنية الحديثة الطراز المجاوز ارتفاع بعضها عشر طبقات ، ويزداد او يقلُّ تبعاً لاتساع الشوارع وضيقها . وعندما جلت فيها سُررت لرؤيتي جميع شوارعها وجلّ أزقتها معبّداً بالاسفلت .



(ساحة البرج)

المرجات المؤذبات

عتبي على المعول – ولكنني أسفت لأن المعول الهدّام لم يلعب دوره في ابنية عديدة لا تزال قائمة في الوسط التجاريّ عن جانبي أزقة باقية على عهدي بها من الضيق والتعرُّج والقذارة. وقد عجبت كيف أن المجلس البلديّ لم يفكرّ حتى اليوم بتشييد بناء خاصّ يتسع لجميع باعة الجملة من مختلف اللوازم البيتية والمأكولات كالخضر والفواكه والاسماك، على غرار ما اصبح منذ اجيال ضرورةً قاهرة في جميع المدن الكبيرة، فضلاً عن العواصم، ويسمونه السوق المركزية لكل ما تقدّم ذكره، يقصده الباعة والمتسوقون على السواء.

موسوعة بلا فهرس – ولكنّ الاعجب والأغرب هو إهمال المجالس البلدية المتعاقبة وضع بطاقات على زوايا معظم الشوارع تنبىء المارة بأسمائها ، وفوق كلّ باب رقم يدلُّ عليه ، في حين أن الترقيم لا تخلو منه قرية في ايّ قطر متمدّن ، ولو لم يكن فيها سوى شارع واحد . ولكنّ المجلس الجديد تنبه على ما يظهر الى هذا النقص الذي لا مبرّر له فنشط الى تلافيه مبتدئاً بشارع عبدالوهاب الانكليزي . ولا يقتصر الخلل على خلوّ العدد الكثير من الزوايا من البطاقات التي تحمل اسماء الشوارع بل إنّ جلّ هذه معروف بأسماء عديدة مراعاةً من السكان للتقليد واحتفاظاً منهم بالاسماء القديمة .

«من ثمارهم تعرفونهم» – والأدهى من كل ما تقدّم هو استدلال الزائر الاجنبيّ على عِوَج خلقيّ في اكثرية الذين تولوا الشؤون البلدية، مما يراه في معظم شوارع المدينة من ضيق وعِوَج فما من شارع فيها تقريباً إلا وله عدة عروض ، ومهما يكون من تعرجه او استقامته فهو منته قطعاً بسدّ يقضي بالتعريج . ناهيك باحتلال العدد الكثير من الابنية مكان الرصيف بحيث يقتضي أن يكون للمارّة عيون خلفية وقوائم غزلانية ليأمنوا شرّ الدهس .

وسائل الانتقال – ومما يزيد الحالة حراجةً ويهدّد بصورة دائمة الطمأنينة والأمن على الحياة كثرة السيارات والحوافل والناقلات على اختلافها ، الى جنب أن هذه الكثرة تهدّد البلاد بالافلاس إذ لا يُعقل أن يوجد في بيروت نِسبيّاً اضعاف ما في سان باولو من وسائل النقل هذه وهي اعظم مدينة صناعية في اميركا الجنوبية وعدد سكانها ضعفا سكان لبنان بأجمعه ، ناهيك بإمكانيات ولاية سان باولو وهي ، منفردةً ، أغنى بلدان العالم إطلاقاً ، دون استثناء الولايات المتحدة الاميركية ، فكيف بلبنان وهو يكاد يكون افقرها .

والمصاب ليس في الكثرة فقط بل في تعدّيها الى الفيض عن الحاجة

بدليل التزاحم وكثرة العرض بالنسبة الى الطلب وعدم وجود مرائب الا لعـــدد قليل من السيارات والبـاقي يبيت في الشوارع ويعرقل حركة السير .

الاستهتار بالقواعد الصحية – وأين الرقابة المشدّدة والغرامات التأديبية الرادعة تُفرَض على الذين يعرضون صنوف المأكولات ، وعلى الاخص الحلويات ، مكشوفة ، غيرَ آبهين لما يتساقط عليها من الذباب وغبار الأزقة الملوّث . ومن هناك يُعرّج المفتشون الصحيون على الحلوانيين الذين يستنظفون اصابعهم فيستعملونها بدلاً من المقاحف والملاقط المعدنية لتعبئة قطع الحلوى وتقديمها ؟ ولو كان جميع الآكلين مثلي في الاشمئزاز من هذه المخالفة الصارخة لقواعد النظـافة والذوق لأتاهم القصاص الاكبر من الشعب بإعراضه التامّ عمـا يعرضونه عليه من مصنوعاتهم بهذا الشكل البدائيّ المنفر في عصر الاناقـة والتقيد بالقواعد الصحية الى اقصى الحدود .

تغيُّب ادب السلوك – امـا التهذيب الاجتماعيّ وفضـائل الايثار والاحتشام والمحافظة عـلى النظام واحترام حقوق السوى فالذي يبدو جلياً للمراقب المدقق ، فضلاً عن المتعنت ، هو أن هذه كلها ضئيلة النصيب من اكتراث جلّ السكان كأنها من الامور التي لم يُسمع بها فضلاً عن أن تُمارَس في الشوارع والأزقة والساحات والدوائر العمومية على اختلافها ، حتى خُيِّل إليّ أن الناس لا يدوسون بعضهم لا عفةً ولا تلطفاً بل عجزاً او خوفَ العقاب . وبالطبع لا يسع المراقب الاجنبيّ الا أن يستنتج أن معظم النـاس لا يعرفون شيئاً عن بلاد الناس ولا يهمهم كثيراً أن يقتبسوا من سواهم او يقتدوا به . وهذا الذي أتطلبه حرصاً على سمعة بلادي لا يُعتبر فضيلةً او غـيريةً بل مجرّد خدمة للنفس ، إذ متى احترم المرء حقوق الآخرين احترموا حقه او على الاقل ساغ له أن يطالبهم به .

ولكنّ الذي لا ارى له ايّ مبرّر هو رفع الصوت بالشتائم وهجر القول والكلام البذيء على قوارع الطرق والأرصفة حيث يكثر مرور السيدات والاوانس ، وليس من يخجل او من يردع

التسوّل – إن لبنان أحوجُ البلدان الى منع التسوُّل بتاتاً وجعل الاحسان للمستحقين فريضةً على الأمة تؤديها كسواها من الضرائب وإنزال العقاب بمن يتخذونه مهنةً لغير موجب ، وأفضله إكراههم على العمل في الحقول والمزارع ، او تنشيء لهم الحكومة مزارع نموذجية تأديبية يعملون فيها فينفعون وينتفعون .

فمن يفكر في هذه الامور وهل يوجد دوائر مسؤولة عن تلافيها ؟ والوصمة في الحالين لاصقة بالحكومة إذ أن عدم وجود مثل هذه الدوائر نقص لا مبرّر له واذا كانت موجودة ولا تقوم بوظيفتها فالمصيبة فيها اعظم . والمسؤولية لا تقع على الحكومة فقط بل تتناول الندوة النيابية ايضاً إذ يترتب على هذه أن تطالب الحكومة بسنّ تشريع يضمن تنفيذه إزالة هذه السفع ، وفي هذا السبيل يُفضَّل على بعض الجلسات العادية التي يعقدها النواب في الندوة انتشارهم في جميع انحاء العاصمة للتبشير والرّدع والتوجيه . وعلى البلدية ان تقوم بما يختص بها

البهيمية – وداهية الدواهي المشاهد البهيمية التي تدعو الى التقزُّز والاشمئزاز، وأعني تلك التي تجعل من الطرق والأزقة مزابلَ ومراحيض برغم وجود اوعية للزبالة ومباول عمومية في انحاء مختلفة من المدينة ، وسعي البلدية آخراً لسدّ النقص حيث تدعو الحاجة .

وقد يوجد مثل هذا كله في بلدان متقهقرة فلا يليق بنا النزول الى مستواها ، او متقدّمة ومن واجبنا أن نكون افضل منها . وعلى ايّ الحالين فلبنان مطالب اكثر من سواه بحكم حاجته فهو بلد اصطياف وإشتاء وبهذه الصفة يترتب عليه أن يعمل كل ما في وسعه لاستهواء المصطافين والمشتين بإزالته جميع الاسباب التي تدعو الى اشمئزازهم ونفورهم

وشكواهم لكي لا يؤثروا عليه سواه من البلدان السالمة من جميع هذه المعايب .

الأزياء — اما تعدُّد الأزياء فعلى قباحته لا اقول فيه شيئاً لعلمي أنه امرٌ طارئ لا ناشئ يُنتظر زواله تدريجياً مع الايام ، لأن التطوُّر من هـذه الجهة في لبنان ، وعلى الأخص في عاصمته ، ينتهي عهده الى زهاء قرن خلا، ولولا المبرّر الذي تقدّم ذكره لكان اليوم تاماً شاملاً

الحسنات والمرفهات

في طليعة ما أثرته منها القضاء على البعوض في المدينة ، كما قضى الامير كيون على الذباب ، حتى في اشدّ الفصول حرارةً ورطوبة ، مما يقضي بالحمد والثناء وتطويب الذين عملوا على إراحة السكان من هـذه الآفة التي كانت تقضُّ المضاجع وتسبب شتى العلل .

التساهل — ومما يسرُّ الخاطر ويشرح الصدر ويوحي الثقة ويقوّي الرجاء بمستقبل زاهر وعصر ذهبيّ للبنان عمليةُ الانصهار والاندماج الجارية على أبناء المذاهب والطوائف المتعددة بحيث أني لم الحظ في أثناء المـدة الطويلة التي قضيتها مقيماً ومتنقلاً أيّ اثر للماضي البغيض ، لا تصريحاً ولا تلميحاً ولا همساً ولا إشارةً ، مما يدلُّ دلالةً واضحة على أن عهد التعصب الاعمى الممقوت قـد مضى لغير رجعة ، فكلٌّ يحترم شعائره ويمارسها دون أن يستهين بشعائر سواه . وقد تمّ هذا بفضل الوعي القوميّ والعقيدة اللبنانية الشاملة وإعارة أذن صماء لدسّ المغرضين الذين يبشرون جهرةً بالوئام والاتحاد ويعملون سرّاً على تقويض دعائمهما

ولم تزعزع اقتناعي هذا الردّةُ التي ذرّ قرنها في الزمن الاخير إذ هي كانت اشبه شيء بالنسيس الذي يسبق الانطفاء ، بدليل مـا لقيَته من الشجب والتسفيه من قِبـل ذوي الرأي والعقـلاء من الاخوان المسلمين قبل المسيحيين .

السفور – ولا يقلُّ عن هذا التطوُّر المحمود أهميةً وتأثيراً انتصارُ المرأة تدريجياً وبحكمة وتعقُّل في مضمار السفور بفضل تزايد عدد المرتقين الذين بدأوا يعترفون لنصفهم الأفضل بحق التمتع مثلهم بالنور والهواء والانطلاق من قيد الحجاب الثقيل ضمن دائرة الصون والأمانة الزوجية المركّبين في الطبع العربيّ النبيل ، فيندر أن ترى امرأةً مؤتزرة ، وجلُّ من يستنكفنَ من الطفرة ويؤثرنَ الاعتدال والتدرُّج يسترن الثوب بمعطف ويغطين الوجه ببرقع شفّاف ، وهو زيٌّ لطيف يرتاح اليه النظر . وهكذا لم تعد المرأة اللبنانية ذلك النصف المشلول من جسم الأمة العائش في ظلمتين : ظلمة المنزل مقيماً وظلمة الحجاب متنقلاً

الابنية الحديثة – إن رقعة المدينة آخذة في الاتساع في كلّ اتجاه بحيث نشأت احياء جديدة مرعيةٌ فيها شروط الهندسة الحديثة ، سعةً واستقامةً ونظاماً ، كما ان العدد الكبير من الأبنية المستوفية شروط الجمال والاناقة منبثٌّ في جميع الأنحاء ، ولكنه لسوء الحظ قائمٌ بين ركام من القديم القبيح الرثّ المشبه الأطلال بحيث يبدو كالراحات الفينانة في صحراء جرداء . وحركة الهدم والبناء والتوسيع والتقويم لا بأسَ بها ولكنها بطيئة بالنسبة الى المطلوب بحيث قد يستغرق تجديد المدينة برمّتها اجيالاً ، ولكنّ العزاء في أن : « كلّ آتٍ قريب » .

اما اجمل الشوارع من حيث السعة والاستقامة فهو شارع فخر الدين القائمة فيه اجمل الابنية وأحدثها طرازاً والمنتظر ان تقوم فيه قريباً سواها من نوعها حتى ليصبح شارع البنوك والشركات الكبرى كبنك مصر سوريا لبنان الذي قارب الانتهاء ، والمحاذي لبناء وزارة البريد والبرق ، التي يقابلها ويقوم على انقاض البناء القديم الذي كانت تشغله بناء البنك اللبنانيّ التجاريّ وشركة الضمان اللبنانية اللذين أنشأهما بالاشتراك مع مساهمين مقيمين الاخوان المهاجرون سعد ابو جوده ، ومركزه الحاليُّ في ساحة النجمة ، ولا يبعد ان يصبح فيه مستقبلاً

بنك لبنان والمهجر المساهم فيه نفرٌ من كرام مهاجرينا في سان باولو بزعامة جورج نعمان معلوف ، ومركزه الحاليُّ في شارع فوش .

وزارة البريد والبرق — إنَّ بناء هذه الوزارة الجديد هو من أجمل وأتمّ ما وقعت عليه عيناي في العاصمة من حيث الرحابة والاناقة والوفاء بالغرض المشيَّد من اجله ، ولذلك يحق للحكومة والعاصمة ولبنان المفاخرة به .

اما جلُّ ما عداه فمن مخلفات عهدَي الاتراك والفرنسويين من المباني القديمة التي ينقصها الشيء الكثير من الشروط العصرية . والاسوأ منه المؤتجر كجلّ الدوائر ووزارتيَ المالية والخارجية ، وحتى القصر الجمهوري المختص بالرئيس ، إذ ان لبنان احوج ما يكون الى الاقتصاد وفي الائتجار اسرافٌ وتبذير ، لان الاجور بطبيعة الحال فادحة ، بحيث تستطيع الحكومة ان تبتني بمجموعها دوراً خاصة في مدى عقود قليلة من السنين ، والحكومة في كل بلاد آخر من يصحُّ فيه القول إنه مقيمٌ على سفر .



(ساحة النجمة القائم فيها بناء الندوة النيابية وتتوسطها ساعة « العبد »)

الندوة النيابية – سبق لي ان اشرت الى استنكافي من التأثر برأي احد ، ولكنني لم ارَ بأساً في استثناء الندوة النيابية المفروض أنها لسان حال الشعب المعبرّ عن إرادته وأمانيه ، فحضرت بإلحاح بعض الاصدقاء احدى جلساتها واكتفيت بها لأن ما ساءني من تصرف بعض النواب وتجاوزهم حدود التأدُّب واللياقات في اساليب تعبيرهم أربى على ما سرَّني من اتزانِ البعض الآخر واعتماده المنطق السليم وتقيُّده بآداب المجالس . وكم استصوبت خفض عدد النواب الى اربعة واربعين بدلاً من سبعة وسبعين ، املاً مني ان تصيب التنقية الأولين .

دار الكتب والصناعة اللبنانية – مؤسستان تشغلان جانباً من بناء الندوة النيابية وفيهما كل ما يحمل الزائر على الاعجاب والتقدير

المتحف الوطني – هذا المتحف قائمٌ في بناء فخم مستوفٍ شروط الرحابة والأناقة كائنٍ علـــى مقربة من حيٍّ فرن الشباك الذي أصبح مكتظاً بالأبنية ، وأمامه ساحةٌ رحبة وفيه من الآثار والعاديات ما يحمل على الازدهاء والاعجاب بمخلفات اجدادنا القدماء .

مطار خلده – إن ما قلته عن وزارة البريد والبرق الحديثة يُقال مثله في المطار الدوليّ وبنائه الفخم الانيق الذي أصبح قريب الانجاز. وهو من المشاريع التي يمكن للحكومة السابقة المفاخرة بها برغم كل ما يُقال من أنه كان مورد استغلال وإثراء للكثيرين لانه يدرّ ريعاً لا يستهان بـه لبلد صغير كلبنان ، ذلك أنه في الثلاثين شهراً التي انقضت على تدشينه بلغ عدد المسافرين الذين مرُّوا به نصف عدد سكان لبنان، وعدد السيارات التي تؤمه أسبوعياً يساوي مجموع سيارات لبنان . اما إيراده السنويُّ فقد أصبح خمسةً وعشرين مليوناً ، او ربع موازنة الدولة اللبنانية .

نادي بيروت – هو نادٍ اجتماعيٌّ يضمُّ سراة المدينة وخيرة أُسرها ، ولا يقلُّ رحابةً وفخامةً وأناقةً عن خيرة نوادينا في البرازيل، ومركزه

المؤتجر في الدور الأعلى من بناء يُطلّ على ساحة البرج . وكان الفضل في ارتيادي إيّاه كضيفٍ زائرٍ لمدة أسبوعين لزميلي ورفيقي في بورت سودان نسيب عبد الملك. وقد سرّني أنْ لقيت فيه عدداً ممن جمعتني بهم الهجرة في البرازيل ، منهم توفيق الخوري والفرد بريدي .

المسرح — وحضرت بدعوة من صديق لا يسعني أن أردّ له طلباً ليلةً تمثيلية في احد المسارح فترحمت على عهدنا الماضي في البرازيل ايامَ كان يستنكف الوطنيون من تأجير مسارحهم للسوريين واللبنانيين لعدم إحسان مواطنينا الاصغاء واتخاذِ بعضهم من المسرح حانةً للعربدة والتلمظ بالملحات ، وفي رأسها البزر وفستق العبيد ، تاركين حول مقاعدهم ركاماً من قشورها كما تُترك البطاقات الدالة على الزيارة عندما يكون المزور غائباً .

اما اليوم وقد اصبح جمهورنا مثالياً في مراعاة آداب المسارح فقد دُهشت لما رأيته في عاصمة « الاشعاع » من مثل ما كنا نشجبه منذ ثلاثين عاماً . ومع أن صديقي هذا كان قد ابتاع مُكرَهاً تذكرتين أخريين لحضور رواية ثانية فقد كلفني إهداءهما لعدوله هو ايضاً عن الحضور .

والذي أمضني بنوع خاص هو أنه ، على إجادة بعض الممثلين ، رأيتهم جميعاً سواء في الاخلال بقواعد اللغة حتى إن ممثلينا في البرازيل يفوقونهم في ضبط الحركات الى حد بعيد ، وكم تمنيت لو هم عدلوا عن الفصحى الى اللغة العامية .

اما الرواية التي عوّضتنا عن هذه فهي رواية الحماة والكنة التي مثلتها جمعية إمارة الزجل من نظم شاعرها الفكه وممثلها القدير اديب الحداد. وهذه الجمعية يرئسها الاستاذ وليم صعب المعروف في البرازيل وتضم عدداً من خيرة الزجالين المزدانين بروح البساطة والأخوّة لذلك أنست اليهم ونعمت بطيب عشرتهم في مركز جمعيتهم القائم على مقربة من

صومعتي طيلة المدة التي قضيتها في بيروت . وعلى بعد الشبه من جهتي ، رأيت فيهم امثال الصيادين الذين اختارهم المسيح اتباعاً ودعاة ، وبلغ من تنزُّهه عن التعاظم عليهم انه فرض على من يريد أن يكون فيهم سيّداً ان يكون لهم عبداً ، ووضع بنفسه المثل عندما غسل أرجلهم

الندوة اللبنانية — لا يسع من يؤم هذه الندوة ويستمع للمحاضرات القيمة التي تُلقى فيها باللغتين العربية والافرنسية إلا أن يقدر الجهد الذي قام به واحدٌ من اصدق اللبنانيين وطنيةً وأرغبهم في الهداية والتوجيه وترقية المدارك وصقل العقول وتهذيب النفوس وهو الاستاذ ميشال الاسمر الذي يحسن اختيار المواضيع وينتدب لمعالجتها ارسخ اهل الاختصاص قدماً وأطولهم باعاً . وقد استمعت لبعض المحاضرات وطالعت بعضها في المجلة الدورية التي تصدرها الندوة ووثقت من فائدتها ووفائها بالقصد النبيل الذي أنشئت من اجله .

ولهذه الندوة ندّةٌ هي جمعية العروة الوثقى المنشأة في الجامعة الاميركية منذ عقود عديدة من السنين ، وكلاهما تتباريان في الفوائد الجمة التي يجتنيها منهما المستمعون . وفي كلية المقاصد الخيرية الاسلامية ندوة على غرارهما .

وقد احسنت الندوتان الاخيرتان الى الكثيرين من اعضائهما وسواهم بدعوتهما الشاعر الدمشقيّ الزائر جورج صيدح لالقاء محاضرتين نثريتين شعريتين كان لهما اعمق أثر في النفوس وقوبلتا بملء الرضا والاستحسان

الزملاء — وكم ساءني كصحافيّ يؤم بلاده بعد غيبة ثلاثة وأربعين عاماً أن لا استطيع زيارة زملائي اصحاب الصحف إذ في لبنان اليوم زهاء مئة وثماني جريدة ومجلة ونشرة دورية ، فالتعميم مستحيل والتخصيص قبيح لذلك اكتفيت بزيارة الاستاذ كميل يوسف شمعون كنقيب والاستاذ غسان تويني كنجل لجبران رفيق الحداثة وصديق الصبا فالكهولة يوم مروره بثغر سنطس في ٧ شباط سنة ١٩٤٧ في

طريقه الى جمهورية الارجنتين كوزير مفوّض للبنان فيها وفي جمهوريتي أوروغواي وتشيلي ، وكنت احد اعضاء الوفد السانباولي الذي خف لاستقباله ودعوته مع عقيلته الفاضلة وحاشيته لمأدبة أقيمت له في نزل بالنياريز الفخم . وتخليداً لذكراه أنشر الرسم التالي الذي التُقط على درج ذلك النزل :



من يسار القارىء : المؤلف . حبيب مسعود وأمامه فؤاد لطف‌الله التبشراني . توفيق يوسف عوّاد وأمامه قرينته . محمود حافظ فنارس نمر وأمامها الوزير وقرينته . اميل بنيامين يافث . روفائيل يافث . كميل توبي وقرينته .

كما زرت برفقة الاخ البير ريحاني الاستاذ رامز سركيس صاحب جريدة « لسان الحال » ، شيخة جرائد بيروت ، ترحيباً به على أثر عودته من زورة قصيرة الى المهجر المكسيكي .

الاصدقاء القدماء — وكم سرّني أن القى على قيد الحياة من قدماء الأصدقاء الأدباء والشعراء : الطبيب نقولا فيـاض والياس حنيكاتي وجورج نقولا باز وبشاره عبدالله الخوري الملقب بالأخطل الصغيـر وشاعر الارز شبلي ملاط .

مصايف لبنان

لا يضير لبنان شيء كالتبجح والادعاء ، ولا ينفعه شيء كالاعتراف بالواقع وهو انه وطن صغير مسالم لا كيان له ولا حياة استقلالية كريمة الا في ظل الضمان الدوليّ الذي يحميه من أيّ اعتداء يمكن ان يقع عليه ليظل وطناً مثالياً لأهله ولاخوانه ابناء الاوطان العربية الاخرى ، يؤمه منهم وينعم في ربوعه المنتجعون والمستشفون والمطارَدون السياسيون .

فاذا ما ضمن كيانه واستقلاله على هذا الشكل الذي لا معرّة فيه ، والذي تعيش بفضله اوطان أخرى عديدة اوسع منه رقعةً واكثر سكاناً وأغنى بالموارد الطبيعية والصناعية ، اقتصرت حاجته على تأمين عيشه باستغلال موارده الزراعية والصناعية والمعدنية الى اقصى حد ممكن

اما الشرط الثالث فهو ان تقوم على إدارة شؤونه حكومة وطنية عادلة نزيهة تبذل كلّ ما في وسعها لاجراء العدل بين سكانه ونشر الأمن في ربوعه، والعمل على ازدهار العمران فيه

فاذا ما اختلّ أيٌ من هذه الأسس الثلاثة تعرض كيانه للتداعي فالانهيار فالاضمحلال .

وخير ما فيه، وما يجب ان يُعتنى باستغلاله، مصايفه التي لا ضريبَ لها في العالم بأسره : اولاً من حيث عددها فهي لا تُحصى بالعشرات بل بالمئات ، وثانياً لقربها من العاصمة بفضل الطرق المعبدة وكثرة

وسائل الانتقال السريع اليها ، وثالثاً لاتساع مجال التخير بينها تبعاً لاختلاف المطالب والضرورات والاذواق ، فهي ترتفع تدريجاً من عشرات الامتار الى مئاتها الى آلافها ، وبمثل هذا التدرُّج تتفاوت حجماً وهدوءاً وحيوية وصخباً . وبهذه المزايا والمؤهلات مجتمعة يُعتبر لبنان فردوساً ارضياً. ولكنه لسوء الحظ لا يستهوي سوى النزر من غير سكانه ، على قربه وسهولة بلوغه من ايّ من الاقطار التي تتألف منها الجامعة العربية ، وعلى الاخص سوريا الشقيقة التي تجعلها المتاخمة اقرب الى القلب . وتليها مصر ، وكلتاهما تقيمان في طريق طالبي الاصطياف في لبنان من رعاياهما شتى الحوائل والعراقيل ، بينما نرى من شقّتهم ابعد ، من الاردنيين والعراقيين والسعوديين والكويتيين ، اوفر إقبالاً وأبرّ بالاواصر التي تربطهم بلبنان وبسواه من الاقطار العربية كافة . ونحن لا نسألهما التضحية بمصالحهما من اجلنا ولكننا نرى في سياسة التشديد الى حد يقرب من المنع البات قطيعة لا هوادة فيها ، مما لا يليق بإخوان ، ومن شأنه ان يحمل على اساءة الظن .

اما وهذا هو الحال فأيُّ فرق إذن بين ان نكون متاخمين لأعداء او اصدقاء ؟ فهلا فكّر الاخوان جميعاً فصفوا النيات ووضعوا حداً لهذه القطيعة المخزية ولو بصورة تدريجية تقرّب رويداً بين المطالب والأهداف وتوفّق بين المصالح ، وسعوا بروح التضامن الأخويّ لازالة الاسباب التي ادّت الى قطيعة يجب ان يخجل منها الجميع ؟ !

وأين المصايف التي عرفتها سنة ١٩٠٩ منها اليوم فقد بلغ العمران في بعضها حداً مدهشاً ونما حتى اصبح مدناً كما استجدّت مصايف لا عهد لي بها .

والذي زادها جمالاً وفتنة تلألؤها ليلاً بالانوار الكهربية الساطعة بحيث تبدو من بيروت كمجموعات من النجوم ملّت التعلق بالفضاء السحيق فهبطت من اعاليها واستقرّت في لبنان تستريح .

رحلاتي وتنقلاتي

كانت الدوافع لرحلاتي وتنقلاتي في لبنان عديدة : اولها الهرب من حر الساحل واغتناماً لأشهر الصيف القليلة في الجبال حيث يكون الانسان اقرب الى السماء وخير ما جادت به الارض من خضرة وماء . وثانيها القيام بالمهمات التي عهد بها اليّ بعض اصدقائي في البرازيل لدى ذويهم . وثالثها الاستقراء والاستطلاع ومشاهدة المشاريع التي انشأها كرام المواطنين في البرازيل وسواها في بلدانهم وقراهم . ورابعها المقارنة بين ماضي الأماكن التي عرفتها في حداثتي وصباي وما صارت اليه بعد اكتهالي وشيخوختي .

وقد قصرتها على الضروريّ الذي لا غنى عنه او لا مفرّ منه من باب « ما لا يُدرك كله لا يُترك جله » ، وعملاً بالمثل القائل : « على قدر بساطك مد رجليك » .

وها انا عارضٌ أمام القارىء ما يشبه الشريط السينمائيّ من رسوم الأماكن وأوصافها وما عرض لي في بعضها من الحوادث وما اثاره البعض الآخر في نفسي من الذكريات .

معلقة زحلة – هي البلدة التي سبق رسمها ووصفها والتي نشأت فيها وترعرعت ، لذلك لا ألام اذا انا راعيت في إيثارها القول المشهور :

كم منزلٍ في الارض يألفه الفتى ... وحنينه أبداً لاول منزلِ

لقد رأيتها لاتخلو من بضعة ابنية حديثة ولكنّ الذي جنى على حيويّتها وحال دون نموّها الى الحد المنتظر هو انضمامها الى زحلة وفقدانها بذلك منزلة قصبة البقاع ومركز الحكم فيه فحلّ مكان دار الحكومة فيها مستشفىً وخلت ممن كانوا يُشيعون فيها الحياة من

الحكام والموظفين المدنيين والعسكريين ، ومن جل المطاعم والمقاهي التي كان يرتادها كل هؤلاء .

اما المستشفى الذي قام على انقاض دار الحكومة فيها فمستشفى حكومي لمنطقة البقاع وهو مما يحق للبنان المفاخرة به نظراً الى جمال موقعه واتساع رقعته واناقة بنائه ورحابة ساحاته وحدائقه وما يزينه من فاخر الاثاث وأحدث المعدات .

وقد سرّني أنني فيها جدّدت عهد الصداقة التي ربطتني في حداثتي بوشيد رزق سيده وهنأته تهنئة قلبية باقترانه بكريمة سليمان سكاف صديق والدي وشقيقة صديقي العزيز يوسف سكاف . كما لقيت صديق الحداثة العزيز يوسف اسعد تامر القادم من الاسكندرية مع كريماته التقيات لتمضية اشهر الصيف فيها .

زحلة — وقد سبق وصفها مع رسم شتوي منها ، وها إني ناشر آخر صيفياً يمتاز بأنه اتم وأحدث .



(مشهد عام جبل من زحلة الملقبة بالعروس المزينة)

غيرَ أنَّ ما يؤسف له هو أنها تكاد لا تزال على حالها لولا تعبيد طرقاتها وأزقتها وما استُحدث في واديها الجميل من المقاهي والمطاعم والانزال الانيقة والمتنزهات العصرية البديعة، وقد أصبحت تؤدي اليها جادّة رحبة معبدة أُطلق عليها اسم البرازيل، وهي تحاذي البردوني الذي يهدر ويزمجر في الشتاء والربيع ويتحوّل الى سواقٍ متغلغلة بين الحصى في الصيف والخريف . وخيرُ ما يزينها الكلية الشرقية ومستشفى تل شيحا ، وهو ندٌّ مصغَّر لمستشفى البقاع من كل وجه ، وقد قام بهمة وأريحية إخواننا الزحليين في الولايات المتحدة الاميركية .

وقد سرّني أنْ عرفت فيها من سكان المعلقة الشابَّ الثقيف والصيرفيَّ سيمون فريجه نجل صديقي حبيب حنا فريجه الوارد ذكره في « العهد القديم » . كما عرفت فيها ايضاً خليل دوبا الاديب والشاعر الذي قدّم لي نفسه وأحاطني بكل رعاية وعطف ، هو وشقيقه المزارع حبيب وشقيقتاهما المهذبتان ، في ضاحية الكرك وفي بيروت .

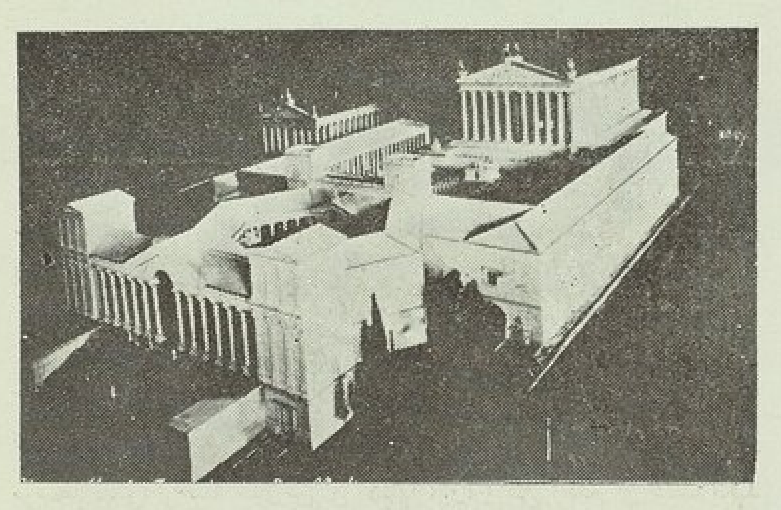
وكان للخليل الفضل بأنْ عرّفني الى انداد له هم الاخوان ابراهيم الحداد صاحب « مجلة الدهور » سابقاً ويوسف المعلوف ورفيق دبس من مشغره . ولكلٍ منهم عندي قيمة خاصة ، فالأول اديب طليق الفكر مجاهد ، والثاني شقيق السيدة الثقيفة متيل ارملة اخي ميشال نعمان المعلوف رئيس العصبة السابق التي اصبحت عقيلة القاضي إميل روحانا الذي جمعني به الصدفة في منزل الصديق شاهين نعمان المعلوف وقرينته الثقيفة اديبة عون معلوف ، ثم في منزله الزوجيّ . والثالث شابٌ رقيق الشمائل ذو غيرة وحمية ادّى لي خدمات مقدورة ، منها أنه جمعني برفيق الحداثة والدراسة في الجامعة يوسف داود طرابلسي .

ومن طريف ما حدث لي فيها أني عدت اصيلَ ذات يوم الى النزل فاذا بالرواق الخارجيّ مكتظٌ بعدد من السيدات والاوانس والاولاد تتوسطه شيخة جليلة ما كادت تراني حتى نهضت هاتفة بلهفة : « تقبرني » !

ودون أن تعبأ بتحذير بعضهن إياها من الخطإ راحت تعتنقني وتقبلني قائلة : « ولو ما بعرف خي » ؟ ! فلم أخيّب ظنها وبادلتها عناقاً بعناق وقبلاً بقبل. ولكنّ الذي نبهها الى إصابة رفيقاتها وخطإها هو تذكرها أن ابن عمها القادم حديثاً من الولايات المتحدة الاميركية بعد غيبة طويلة الامد اقصر مني وأسمن فأغضت استحياء وتراجعت متعثرة نادمة على تسرعها ولكنني رحت أرفه عنها بقولي إنها لم تخطىء البتة فأنا ايضاً اخ لها... في الانسانية !

وكان ذلك المشهد مورد ارتياح واغتباط لجميع الحضور انتهى بقدوم الاصيل فلم يفته نصيبه من العناق والتقبيل !

طليا – قرية زراعية تقع في منتصف الطريق بين زحلة وبعلبك ، وقد سرّني أن زرتها زورة عابرة في أثناء رحلتي الثانية الى مدينة الشمس ولمست فيها تقدماً محسوساً .



(رسم تقديري لما كان عليه هيكل الشمس في بعلبك)

بعلبك – سبق ذكرها ورسمها وقد زرتها مرّتين وراقني سيرها المطرّد في سبيل العمران والازدهار . وخير ما فيها هيكلها الاثري

الذي يستهوي اليها الوف الزوّار والسياح كلّ عام ، ومتنزه رأس العين الفتان .

وكانت زيارتي لها بصحبة رفيق السفر نجيب قطيني معلوف وعيلته الكريمة واضطررت أن ابيت فيها ليلتي دونهم بالحاح مزورنا الكريم الطبيب ملحم إبرهيم فريجي رفيق الحداثة والدراسة والتعليم .

جديتا – هي قرية صغيرة على مقربة من معلقة زحلة تذكرت فيها زمن الحداثة عندما كان يصطحبني وشقيقتي اليها عشية عيد مار جرجس من كل عام صديقٌ لوالدي فيضيفنا في منزله ، وبعد أن نتمتع في اليوم التالي بمباهج العيد يعود بنا الى المعلقة .

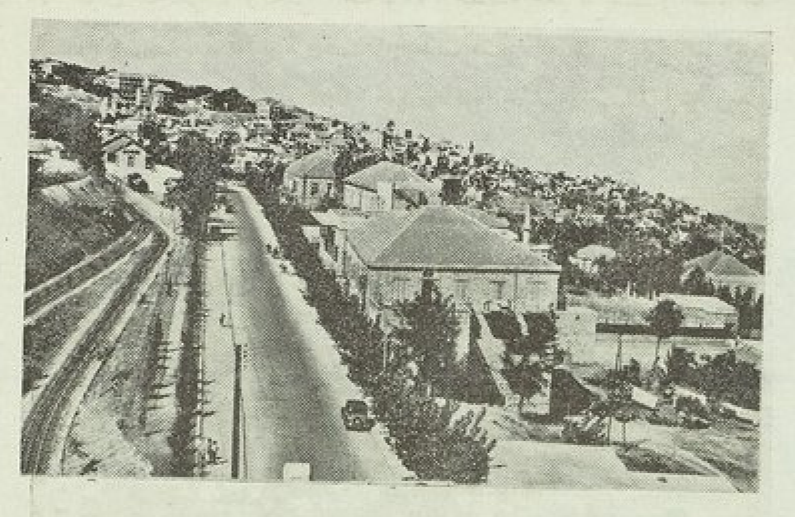
وجديتا غزيرة المياه عديّة الهواء ولذلك تصلح للاصطياف ولكن تنقصها وسائل الراحة والرفاهية التي من شأنها أن تستهوي عدداً اكبر مما لا يُقاس من المصطافين .

ويمتاز ماؤها بالصفاء والعذوبة ، وخير ما استُحدث فيها متنزه رحب جميل تجري في أنحائه السواقي المترقرقة على حصباء كالدرّ وتظله اشجارٌ وارفة .

وكانت زيارتي لها برفقة الصديقين الكريمين وديع نجيب ديب وقرينته سلوى قازان أخت الشاعر نعمة قازان ، ومضيفتنا فيها والدة الاخت سلوى وقرينة والد الشاعر .

الشويفات – هي عروس صحراء الزيتون المشهورة وقد سرّني ما شاهدته فيها من عمران وازدهار ونشاط ثقافيّ وتربويّ . وفيهـا تذكرت ذلك اليوم من ايام صباي الذي قصدت اليها فيه على الاقدام مرشحاً نفسي لوظيفة مدرّس في كليتها ، ولم اكن أصلح في ذلك العهد تلميـذاً .

وكانت زيارتي لها برفقة الأخ وليم صعب ومضيفتنا فيها صديقتنا السيدة اسما شقير وهبي ، وهي التي سبقتنا اليها من سان باولو .



(عاليه التي نمت من قرية الى مدينة)

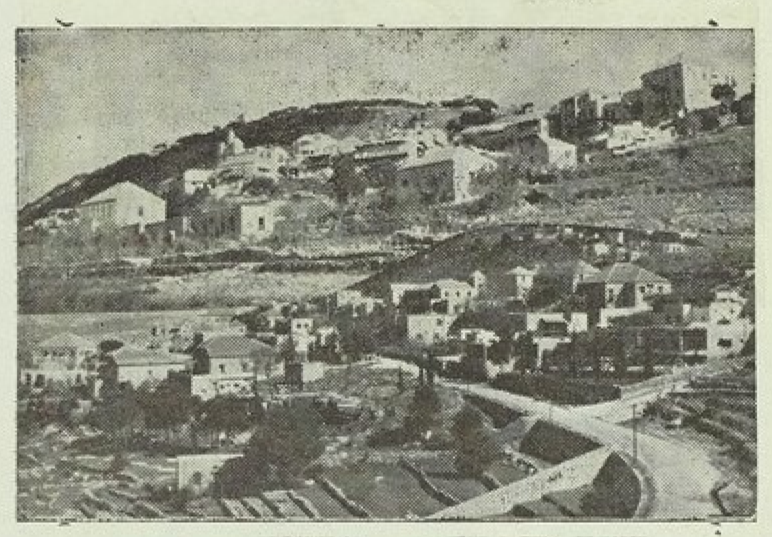
عاليه – هي المصيف الذي فاق كلَّ مصيف عـــداه في النمو والازدهار ، والسبب في ذلك عراقتها وقربها من بيروت . عـلى أنَّ كثرة اسباب اللهو والترف فيها تفقدها مزيتها كمصيف قروي تُنتجَع فيه الصحة ويُستفاد النشاط .

وخير ما هيأه لي التمدّر فيها اجتماعي بالسيدة الثقيفة الرفيعة التهذيب نلي ارمـلة صديقي الأعزّ في السودان نسيب فيلبيدس ، في منزل بكرها جورج الذي فارقته طفلًا وضفته في دارته الانيقة محامياً لامعاً مفلحاً وزوجاً وأباً .

سوق الغرب – وهذه ايضاً مصيف جميل آهل ، يلي عاليه وعلى مقربة منها . ولكنَّ تقدُّمَ هـذه وقربها النسبيّ جنيا عليه فـلا يبلغه ممن يصلون اليها الا قاصدوه بالذات ، من باب أنَّ « الماء لا يمرُّ على عطشان » !

وكلا المصيفين المتقدمي الذكر يشكو قلة الماء الى حد منفّر ، لكي

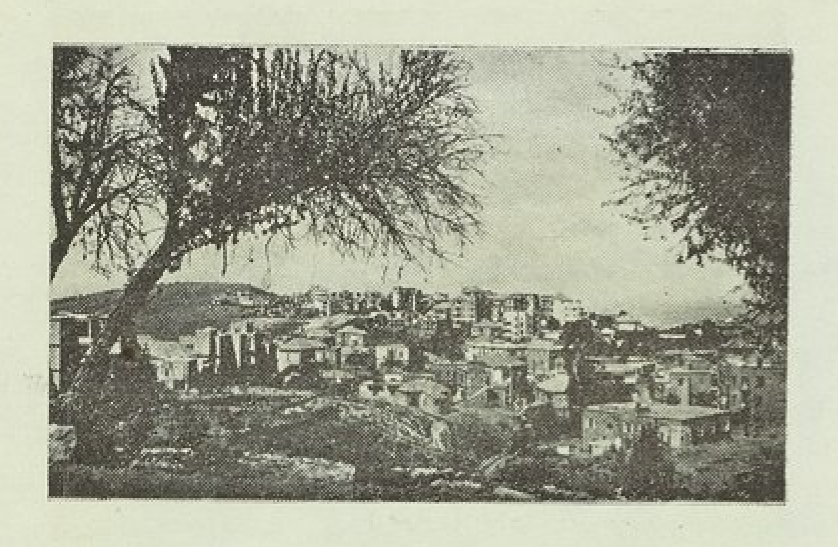
لا اقول مكفهّر . ولكنّ الحكومة الجديدة معوّلة علـى سدّ هذا النقص في مصايف عديدة وقـد أرصدت لهـذا الغرض مخصصات تناهز عشرين مليوناً ، ولعلها مبتدئةٌ بهما مراعاةً لحاجتهما الملحّة فتتداركهما قبل الصيف المقبل .



(رسمان مضمومان من سوق الغرب جارة عاليه)

وفي سوق الغرب اجتمعت بابن ابنة العم بهيج مراد البارودي قرين السيدة الكاملة ثقافةً وتهذيباً ماري عبد النور ، وكنت قـد فارقته حدَثاً والتقيت به زوجاً وأباً وجدّاً ، ونعمت بضيافته اياماً ، كما عرفت في منزله الكثيرين ، في طليعتهم صهره الشاعر الذائع الصيت شارل قرم صاحب « الجبل الملهم » والأسنانيّ إبرهيم شحاده وقرينته الثقيفة منيرة كريمة استاذ اللغة الشهير في الجامعة جبر ضومط . وبهيج شقيق جميـل الذي يشغل مركز مساعد مندوب سعوديّ لدى منظمة الامم المتحدة ويشرف بصفة دائمة على المكتب السعوديّ فيها .

كذلك اجتمعت فيها برفيق الصبا في الخرطوم الياس شاهين عطيه ويوسف جورج عطيه الذي سبقني اليها من البرازيل .



(مشهد من مدينة بحمدون)

بحمدون – هي بلدة مزدوجة إذ هي مؤلفة من بحمدون المحطة لقربها من السكة الحديدية وبحمدون الضيعة ، والمسافة بينهما بعيدة يصعب على المشاة قطعها فيركبون السيارات . وقد نمت نمواً محسوساً وأصبح فيهـا عددٌ من الفنادق الفخمة . وبحكم صلتي بالاستاذ عيسى اسكندر معلوف جاوَرت فيها فندق سميراميس الفخم لصاحبه ومديره نجيب طرابلسي قرين السيدة المهذبة اوديت كريمة الاستاذ .

وكيف أذكر الاستاذ عيسى وأغفل ذكر رفيقة حياته الوفيـة الأمينة عفيفة نعمان المعلوف ، مثال المرأة الحكيمة المدبّرة ، التي احاطته بعنايتها وهيأت له الجوّ المؤاتي لانتاج محصوله التاريخيّ والعلميّ الضخم . الى جانب أنهـا الشاعرة الصامتة التي انجبت فوزي وشفيق ورياض ، ولا بِدعَ فهي من بيت علم وفضل وشقيقة ثلاثة شعراء هم قيصر وشاهين وميشال ، لذلك جاء ثلاثةٌ من أنجالها مخولين مُجلّين .



(صوفر)

صوفر - مصيف جميل أنيق وعهدي به قرية صغيرة لا تمتاز إلا بفندقها الشهير الذي بُني منذ نصف قرن ونيّف . وهي اليوم بلدة حديثة الطراز تكثر فيها الفنادق والمطاعم والمقاهي والمتنزهات .

المريجات – قرية ذات موقع ممتاز تطلّ على سهل البقاع ببساتينه وغياضه وزروعه فيبدو منها مفروشاً بأنفس الطنافس المختلفة الالوان والنقوش ، وقد نمَت اليوم وأصبحت بلدةً لا بأس بها . وامتيازها الآخر هو أنها مقرّ شاعر الحياة صديقي قيصر نعمان المعلوف وقرينته الراقية السيدة جوزفين .

ومن ذكريات صباي فيها أنني أممتها ذات يوم مخفوراً وقضيت فيها ثلاثة ايام في بناء شبه خان إتماماً لمدة حجر صحيّ كان مضروباً على بيروت بسبب حادث مشتبه به . وكنت في جملة الذين فرّوا من القطار عندما أوقف عند جسر المعلقة ولجأت الى زحلة وعدت منها بعد يومين واثقاً من جهل ولاة الامر لخبري . ولكن ما بتُّ فيها ليلتي حتى جاءني في الصباح جنديّ اقتادني الى السراي حيث حُجر

عليّ ساعات ثم أركبت حصاناً ورافقني خيّال الى المحجر فيها .

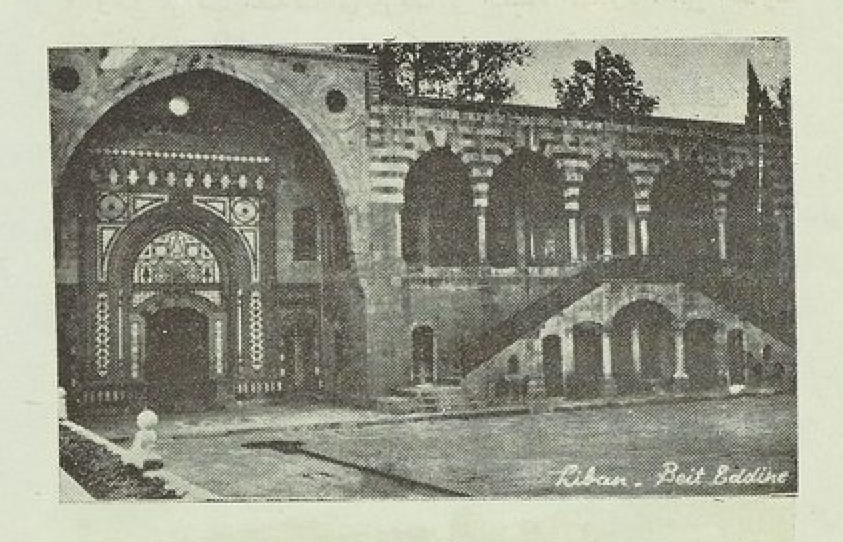
ومن غرائب الصدف أني عرفت في السيدة الممتازة ، التي اختارها صديق الحداثة المحامي (محمد) الياس نمور زوجةً ، شقيقةَ صديقٍ لوالدي ولي هو اسماعيل بك نابلسي الذي اضطررت بسبب تغيب والدي في ذلك العهد أن أقترض منه ريالاً تسديداً لنفقات مدة الحجر فلم يشأ كرمه إلا أن يبعث إليّ بريالين . وقد نعمت بضيافة الزوجين ورويت لهما هذا الحادث . وقد سرّني أن الصديق الياس راضٍ عن الحياة بدليل أنه بعد أن اراني الشيء الكثير من التحف الثمينة التي يكتظُّ بها منزله تمنى لو يفقدها كلها لقاء عودته القهقرى عشرين سنةً .



(رسم بيت الدين)

بيت الدين – بلدة جميلة حسنة الموقع كانت فيما مضى مركز الحكم في لبنان . وخير ما فيها القصر التاريخيّ الذي رُمم وأعيد تنظيمه على افضل شكل ، وقد روعيت فيه شروط الفن العالي والذوق السليم وبراعة العرض بحيث أصبح من المفاخر التي لا تُقوَّم بمال والتي يستطيع لبنان أن يعتزّ بها ما شاء الاعتزاز ، فهو تاجٌ على مفرقه يزري بالتيجان

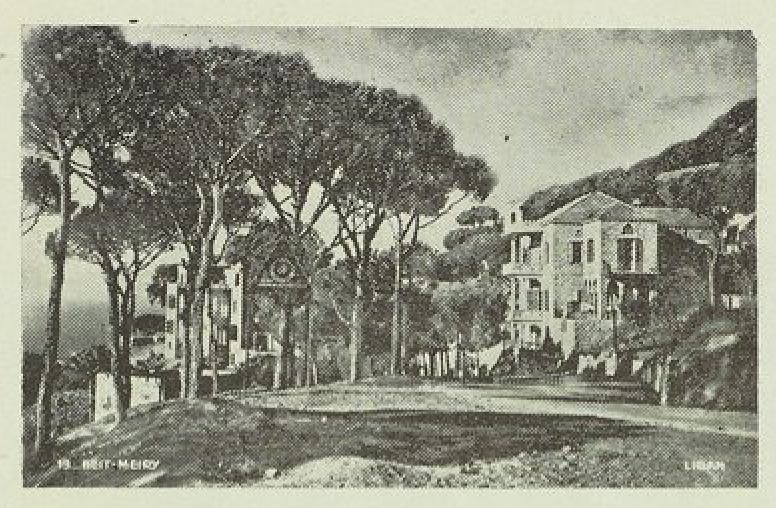
وصفحة رائعة من تاريخه المجيد لا يمحوها كرور الزمان .



(قصر الامير بشير الشهابي)

إنه صورة" حية ملموسة من عصر ذهبي" طوته الايام فنشره الالهام وعرضه على الابصار وجلاه للافهام في قاعات تتبارى في حسن زخرفها وبديع نقوشها ، تُحدّث بصمتها بما زخرت به يوماً من حياة فيّاضة بالخير وبكل ما يشرّف الانسان ويعلي قدره ويخلد ذكره من بطولة وإقدام وعزّة وإباء ونزاهة في الحكم وعدل في الرعية وصون للحقوق وتوفيرٍ لاسباب العيش لمستحقيه رضياً هنياً . وفي واجهات انيقة يُعرب ما يبدو من خلال زجاجها عن الأزياء والعادات والمصطلحات الاجتماعية وكيفية الذود عن الحياض وتثقيف النشء وأساليب الحكم والعلاقات السياسية والكياسية .

هذا هو المحصول الذي خرجت به من ذلك القصر السحري" ، وهو غيض" من فيض .



(بيت مري)

بيت مري – هي مصيف انيق ولكن على كفايتها وقربها النسبي من العاصمة لا تزال دون سواها عمراناً ، برغم أنها اصلح منه كمصيف نموذجي . ومن أبنائها المجلّين في عاصمة البرازيل العميد رزق‌الله الحداد وشقيقه شكرالله الذي تربطني به آصرة نسب . ولي في حرج الصنوبر الذي يتوّجها ذكريات عذاب تمازجها مرارة الخيبة التي أعربت عنها منذ سنوات في الابيات التالية التي استقبلت بها مسبّبتها في سان باولو :

زُرتِنا في الأصيلِ أهلاً وسهلا   فرصفنا القلوبَ دربأً فمهلا
ليسَ ما تشهدينَ منا احتفاءً   بل حنيناً ترينَ منه الأقلاّ
كانَ خمراً ما بيننا في صِبانا   فغدا الخمرُ في الكهولة خلاّ
خبّرينا حرشُ الأميرِ سليمٍ   كيف غادرتِهِ خلاءً وظلاّ
ملعبٌ للشباب طـابَ مقيلاً   حافظٌ للعهودِ يجمعُ شملا
ما ذكرنا إلاّ لأنّا كِرامٌ   ليس ينسى من طاب فرعاً وأصلا

وكان ذلك اللقاء بعد انقضاء زهاء جيل على تلك العلاقة التي رويت حكايتها في المقطعين التاليين :

قـالَ دلالاً ياصبي دَعْ عنكَ حبي
قلتُ بريءٌ وأبي قولي لـقلبي
قالَ فسلْهُ يتّقي قلتُ مُريبِـه
قد صار يعصيني الشقي مُذْ صرتِ فيه

وذيلتها بعده بما اعتبرتُه ختاماً معبّراً لتلك المأساة :

وامتدَّ بي حبلُ الفراق ثمَّ التقينـا
والبدرُ من خوفِ المحاق يمشي الهُوَينا
قلتُ كلانا ياجميـل كالظلِّ ولّى
جمرُ الضُّحى بعدَ الأصيل قـدِ اضمحلاّ



(برمانا)

برمانا – يصح فيها ما قلته في جارتها بيت مري إلا أنها اهدأ منها وفيها مركزٌ ثقافيٌّ مشهور وقديم عهد ، لذلك يفضّلها محبو السكينة والهدوء والانفراد كالانكليز وأضرابهم .

غابة بولونيا – مصيف حديث على مقربة من ضهور الشوير قائم

بين احراج من شجر الصنوبر . والمزية التي تفرّد بها أنه لا يُسمح فيه بتلاصق الابنية فكلٌ منها منفردٌ بذاته يتوسط بقعةً من الأرض لا يجوز ان تقلّ مساحتها عن الف وخمسمئة متر

بسكنتا — مدينة جميلة أممتها من صنين حيث قضيت اياماً ثلاثة في احد الفنادق عند سفحه ، بعد ان كنت مررت بها في طريقي اليـه قادماً من غابة بولونيا ووقفت فيها السيارة التي كانت تقلني لينزل منها رفيقا سفر هما امٌ كهلة وابنها البالـغ عائدَين من اميركا الشمالية او كندا لان اكثر حديثهما كان باللغة الانكليزية . ونظراً الى شدة بدانة تلك السيدة جاهدت طويلاً لكي تستطيع النزول فرأت ان تثأر لنفسها من المدينة بقولها إنها لن تعود اليها ولو ملّكوها إياها . بقي ان نعلم ما إذا كانت تلك المدينة الناعمة في احضان صنين والتي اشتهر اهلهـا بالذكاء وقوة الحجة وخفة الروح تقبل بأن يعود اليها ذلك الحمل الثقيل، فضلاً عن ان تصبح ملكاً لصاحبته !

وقد اشتهرت بسكنتا في الزمن الاخير بما تنتجه من التفاح الممتاز بحجمه وشكله وطعمه كما اشتهرت بابنها البارّ ميخائيل نعيمه الذي آثر العيش فيها دون مدينة نيويورك الجبارة ، مبرهناً بذلك أنه من جبابرة الفكر الذين لا يؤخذون بمظاهر الضخامة والعظمة الفارغة . ومن ابنائها الميامين في سان باولو الاخوان سليم وفيليب وفؤاد لطف الله التبشراني ، وجميعهم ذوو نزعة ادبية وحمية وطنية ممتازة .

ضهور الشوير — مصيف ذو موقع ممتاز بارتفاعه وإشرافه وقـد نما نموّاً مدهشاً وأصبح فيه عدد كبير من الفنادق والمطاعم والمقـاهي والحانات الأنيقة . وخير ما فيه ساحة « نعمة يافث » المفتتحة حديثاً والجاري فيها بناء دار البلدية والمكتبة العمومية التي تعلوها ، وقد تبرّعت بتشييد البناء أسرة يافث الكريمة في سان باولو لذكرى فقيدها الخالد الذكر . وقد قابلت بلدية الشوير هذا الصنيع الجميل بالشكر

وإطلاق اسم العميد اليافثي على تلك الساحة . وفيه سرّني ان لقيت الصديق سليم داود قربان الذي بعد ان ادار « مجلة الجالية » بالاشتراك مع أخيه الاستاذ توفيق عاد الى الوطن وانصرف الى التجارة فأفلح وأصبح زوجاً ووالداً وذا منزلة أدبية واجتماعية مرموقة .



(ضهور الشوير)



(بكفيا)

بكفيا – هذا مصيف ذو شقّين لانه مؤلف من بكفيا والمحيدثة المتّصلتين ، يمتاز بكونه بستاناً وحديقة في وقت معاً لكثرة ما فيه من الأشجار المثمرة والأزهار الجميلة العطرة ، وقد امتدّ عمرانه وأصبح غنياً بالمشاتل التي تدرّ على اصحابها ربحاً وافراً .

وقد اشتهرت بكفيا بنوع آخر من الازهار هو ازهارها البشرية التي لا تقل عن ازهارها الطبيعية جمالاً وأريجاً .

الطرق الساحلية

وأعني بها تلك التي تقود الى مدائن ومصايف الشمال والجنوب وهي معبدة تضمن لركاب السيارات والحوافل الراحة والسرعة . فاذا كان اتجاههم شمالاً كان البحر الى يسارهم ، او جنوباً فإلى يمينهم . وفي الحالين يمتعون الطرف بما يزين الجانب الآخر من كروم العنب والتين وأشجار الزيتون وبساتين الفاكهة كالبرتقال والموز وزروع الخضر والبقول ، وكلها تتخللها البلدان الساحلية ، ففي الشمال يمرّ المسافر بجونيه وجبيل والبترون وأنفه وسواهما من الدساكر والقرى ، وفي جملتها شكا حيث تُستخرج الترابة للبناء ، وكلها تتبارى جمالاً وفتنة . وفي الجنوب معلقة الدامور الغنية بزراعة الموز وسواه من الفواكه والخضر ، تليها صيدا التاريخية التي زادها أهميةً أنها أصبحت ثغراً بترولياً ، فالنبطية التي بفضل زراعة التبغ اصبحت في بحبوحة تُحسد عليها ، وقد كثرت فيها الأبنية الحديثة الطراز وكلها مشيدة بالحجر الأبيض المنحوت . يُضاف الى ما تقدم في الشمال الملاّحات المنتشرة على طول الشاطئ بين أنفه وطرابلس حيث تُملأ الأحواض من ماء البحر بواسطة المضخات الهوائية ، ويُرى بعضها آخذاً في التبخر

والبعض الآخر في منتصفه وسواهما في تمامه . وترى هنا وهنـــاك اكوام الملح الناصعة البياض التي استخرجت من الاحواض التي تم تجفيفها . وفي الجنوب تتتالى مزارع التبغ وحقول القمح والشعير وسواهما من الحبوب والبقول والأشجار المثمرة .



(مشهد عام من القدس يبدو في مؤخرته جامع عمر)

ولكن مما يحزّ في النفس ويسيل المآقي ويدمي القلوب ، سواء في الشمال ام في الجنوب ، خيام اللاجئين ومـا هم عليـه من بؤس وشقاء تنطق بهما وجوههم الشاحبة وأعينهم الغـائرة وأبدانهم الهزيلة ، وليس من يعلم متى تخجل الدول ذات الشأن من نفسهـا فتحلّ معضلتهم وتعيــدهم الى وطنهم الحبيب الذي أنشر رسمين تذكاريين من اروع مشاهد عاصمته ، تيمناً ، على نحو ما فعل موسى إذ رفع حيةً من النحاس وأوصى من لسعتهم الحيات من بني إسرائيل برفع ابصارهم اليها فيشفون ، وكان عمله هذا الرمز الاول للفداء :



(مشهد آخر عامّ من القدس تبدو فيه قبة كنيسة القيامة)

وقد زرت في الشمال أنفه وطرابلس والقبيات وزغرتا وإهدن وبشرّي ومغارة قاديشا والارز . وفي الجنوب جديدة مرج عيون وابل السقي وحاصبيا و...يمس والكفير ، وها انا ملمّ بوصفها على قدر ما يسمح المجال :



(جونيه المدينة الجميلة الناعمة في احضان الجبل وأمامها البحر)

وتلي جونيه مدينة جبيل التاريخية ذات الآثار الفينيقية الباقية على الدهر



(مشهد من مدينة جبيل)

أنفه – استهوتني اليها مهمة كلفني بهـــا صديق لدى بعض ذويه ، ورغبتي في مشاهدة مدرسة المساواة فيها . وقـــد وجدتها بلدة جميلة وادعة يحلو العيش فيها .



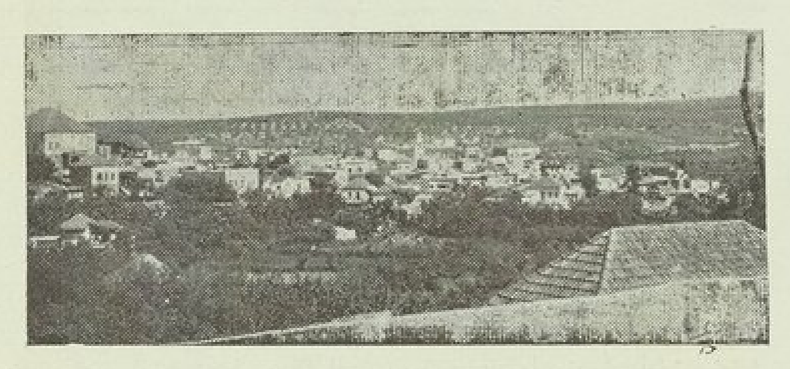
(طرابلس عروس الشمال وعاصمة لبنان الثانية)

وهي المدينة المثلثة الملقبة بحق عروس الشمال وعاصمة لبنان الثانية. ولكن ليت العاصمة الاولى كانت في مثل نظامها وتناسق ابنيتها وسعة واستقامة جل شوارعها وساحاتها ومقاهيها ومطاعمها الحلوية .

وفيها لقيت صدفةً فكتور النجل الثاني لصديقي نسيب فيلبيدس الذي وُلد بعد مغادرتي السودان ، وقد اصبح قاضياً وزوجاً ووالداً

وإلى كونها ثغراً بحرياً ذا شأن فقد اشتهرت بما تنتجه بساتينها من الحمضيات الفاخرة وما تعقده وتستقطره من ازهارها العطرية .

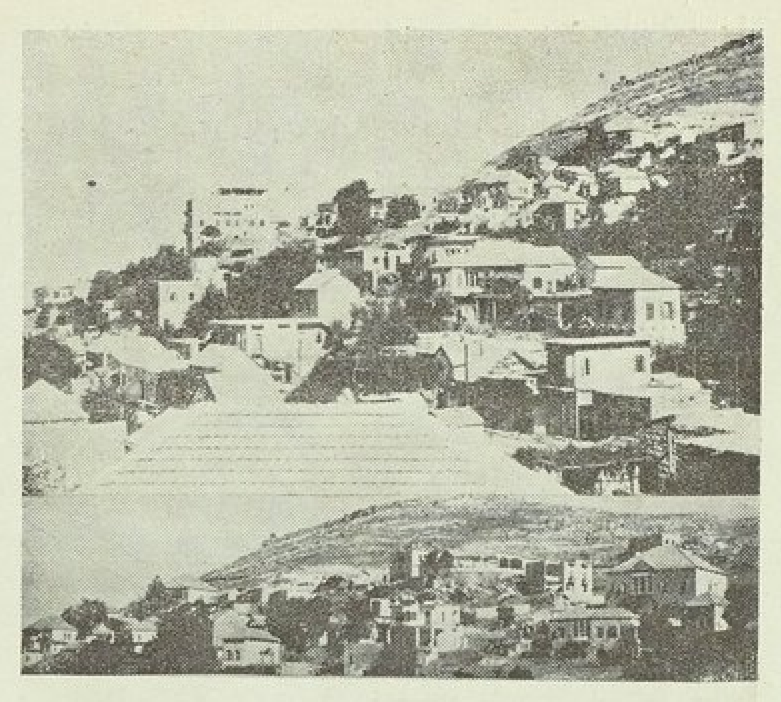
وقد أقلّني اليها على سيارته الخاصة المحامي القدير الملسان فوزي ندره البردويل الذي كان لي حظ التعرُّف اليه في سان باولو وأبى إلا أن يكون غداؤنا في متنزَّه المردشية الفتان في زغرتا .



(مشهد من مدينة زغرتا)

زغرتا — اجمل ما فيها متنزه المردشية الذي تظلله الاشجار الغضة وينساب امامه نهر شديد التدفق والاندفاع .

القبيات — هي المدينة التي يمكن القول فيها إنها مسدَّسة إذ هي مؤلفة من احياء متباعدة قائمة على ست تلال ، ولذلك كانت من غرائب البلدان ، وفيها كان مضيفي الكريم ميشال نجل صديقي الحميم في البرازيل المرحوم رشيد الضاهر .



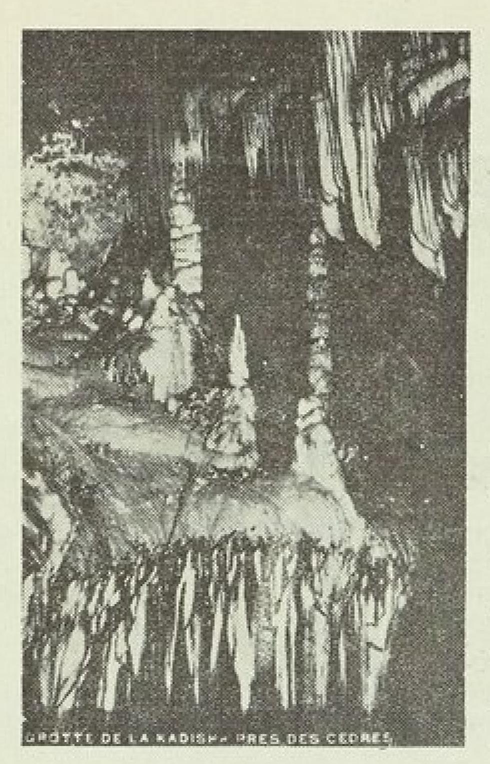
(رسمان مضمومان من اهدن)

هي التي أجاد في وصفها شبلي الملاّط شاعر الأرز بقوله :

أليستْ إهدنٌ تحريفَ عدْنٍ معلقـةً بأوكارِ النسورِ ؟

وهي أفضل مصايف الشمال من حيث علوّها وتدرُّج ابنيتها بحيث يطلُّ منها المشاهد علـى وادٍ جميل ذي زرع ترقد في احضانه القرى الوادعة ، وما يقابلها من الجبال المزدانة بالزروع وبعقد نضيد من البلدان والقرى المتجاورة . وأجمل ما فيها متنزه نبـع مـار سركيس الذي اصرّ كاتب العدل الاديب سميح زعتر على أن يدعوني اليه مع مضيفي الكريم إبرهيم الحلو ، عملاً منه بوصية كان قد تلقاها اتفاقاً في اليوم السابق لتعارفنا ، من صديقي اخيه يوسف في سان باولو . كما كان له الفضل بإتحافي بالرسمين اللذين ضممتهما وتوّجت بهما هذه الصفحة .

هي أعجوبة المغاور ومتحف الطبيعة الذي لا يُجارى . ولكنَّ الطريق اليها على طوله لا يمكن قطعه الا على الاقدام نظراً الى ضيقه ووعورته ولقيامه على شفا هوىً عميقة بحيث يولّد قطعه في نفوس المارة خشيةً ولا يخلو من خطر . ولما كانت البلدية تتقاضى من الزائرين رسم دخول فما اولاها بتوسيع ذلك الطريق وتمهيده لكي يسهل قطعه دون خشية او خطر ، هذا اذا استحال عليها توسيعه وتعبيده لكي يصبح صالحاً لمرور السيارات ذهاباً إياباً .



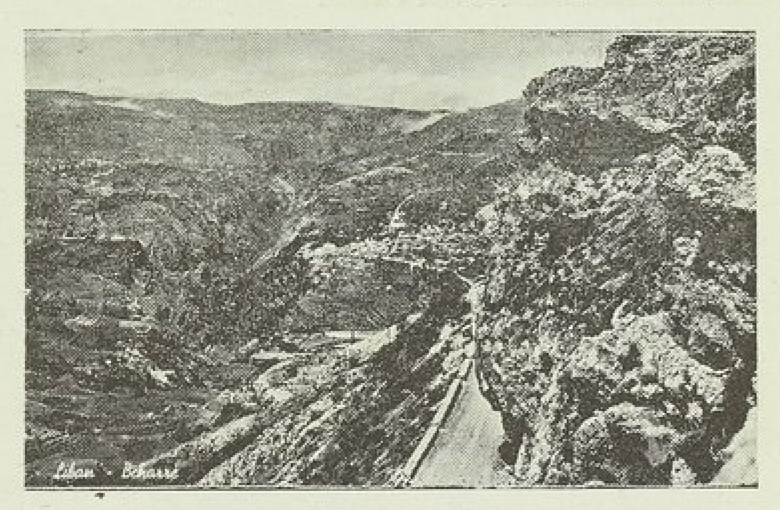
(مغارة قاديشا)

متحف جبران — من حسن الطالع أنْ كان رفيقيَّ من إهدن الى هذا المتحف الاستاذ سليم عبدالله يازجي صاحب مدرسة ثانوية في دمشق وكريمته الثقيفة ، وقد اجمعنا على الاعجاب بريشة جبران رسَّاماً اكثر منا بقلمه كاتباً ، لان الرسوم الزيتية والمائية التي شاهدناها لا تُحصى بالعشرات بل بالمئات ، وكلها بالغة حد الدلالة والاتقان والتعبير ، حتى إن المشاهد ليعجب كيف اتسع وقته لذلك الانتاج الضخم العجيب ، الى جنب ما أنتجه من روائع المنثور والمنظوم بأسلوبه الفريد .



(مشهد شتوي رائع من الارز)

بشري – هي المدينة التي خلّدها جبران وأحسن اليها بعد مماته اضعاف إحسانه اليها في حياته . وهي دون إهدن ارتفاعاً وتطلُّ على وادي قاديشا العميق الرهيب .

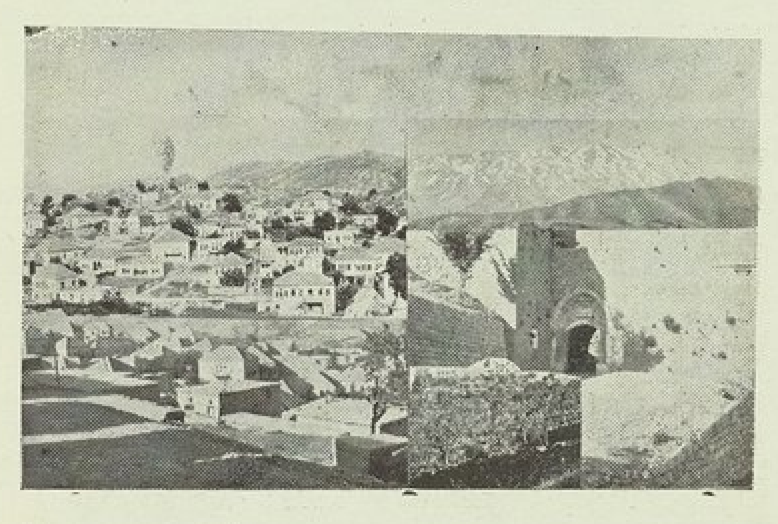


(مشهد من مدينة بشري)

جديدة مرج عيون – مدينة جميلة متدرّجة المباني تتوّج قمةً عالية وذات مطلّ أخاذ ، وفيها قمت بواجب زيارة الوالدة الفاضلة الـتي انجبت رجل الغيرة والوطنية والاخلاق صديقي سامي جبـاره

إبل السقي – على مقربة من الجديـــدة ودونها ارتفاعاً ، وجلّ ابنيتها لا بأس به ولكن طرقها ضيقة وعرة

ومما اذكره من حوادث رحلتي الأولى اليها أن صاحب الحافلة التي ركبتها شاء ان يخالف النظام فقبل سبعة ركاب علاوةً عن العـــدد المسموح به وراح يوصي السائق بتحاشي الطريق العمومية لـكي يغافل شرطي السير ، وقد نجح الى حدٍّ ما بتجاوزه نقطة المراقبة . على ان الشرطيّ رأى لأمر ان ينتقل الى نقطة ابعد على الطريق وهكذا ظفر به وغرّمه جزاء مخالفته ثلاثين ليرة في حين ان ما استوفاه من الاشخاص الاضافيين الذين قبلهم لا يجاوز العشرة الا قليلًا ، وهكذا بدلاً من أن يربح عشر ليرات خسر عشرين . فعندما لمته على فعلته إزاء تلك النتيجة المؤسفة استشاط وراح يلوم البلاد إذ لا نظام فيها !



(مجموعة رسوم من راشيا وقلعتها التاريخية وحرمون البادي كنذر مخطط بالثلج)

راشيا الوادي – تربطني بهذه المدينة التاريخية صلتا نسب وصداقة: الاولى اقتران نابغتها وابنها البار فارس غنطوس بابنة خالي الكسندرا يني، وكلاهما توفيا في سن مبكرة مخلفين ثلاثة انجال هم ديانا وميشال والكسي، والثانية كثرة أصدقائي من ابنائها المهاجرين المجلين في البرازيل. وللتدليل على قدري لحيويتهم وحسن جهادهم أثبت فيما يلي الأبيات التي هنأتهم بها في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩٤٩ في حفلة تدشين البناء الفخم الذي اقتنوه ليكون نادياً اجتماعياً خاصاً بهم يضم شتاتهم وهي:

ابناء راشيا غدوتم إخوة ... بحلولكم بيتاً يضمُّ ويجمعُ
بيتَ الجميع غدا وما له مالكٌ ... يُغري، ولكن ليس فيه مطمعُ
ساواكمُ رُغمَ اختلافِ مراتبٍ ... في حين فرَّقكم فضاء اوسعُ
فكأنكم منهُ براشيا وقد ... عُدتم اليها فاحلموا وتمتعوا
وتقمّصوا عهدَ الشبابِ وكذّبوا ... من قال إنه فائتٌ لا يرجعُ
إنَّ الحياةَ متى تطولُ مراحلٌ ... جُمعت بِبُردِ الشيخِ منها أربعُ
فيعيش بالتذكار طفلاً إن يشا ... سرُّ الحياةِ خداعُ نفسٍ تقنعُ
وليهنكم هذا التضامنُ إنهُ ... من كلِّ ما يصف المداوي انجعُ

ولأسباب لا موجب لذكرها تعذّر عليّ بلوغها والحصول على رسم شامل منها فأعانني على الفوز بالبغيتين النسيب العزيز الطبيب وليم شحفي وكانت رفيقتينا سلمى غنطوس شقيقة المرحوم فارس وزوج ابن الخال باترو يني، وميرنوفا عطاالله شحفي كريمة ابنة الخال ماري يني عطاالله وقرينة النسيب وليم، وكانت رحلة جميلة موفقة عدت منها موقناً أن راشيا معمل أسود مغامرين.

وللحصول على معلومات وافية بشأنها هداني العزيز ميشال غنطوس الى عارف ذي حمية ومروءة هو الاستاذ شفيق ابو عسلي فكان مسراعاً الى تلبية سؤلي بما أورد ملخصه في ما يلي:

« إن العزيز ميشال الذي كان واسطة التعارف بيننا هو ابن ذلك اللبنانيّ الذي رقد في تربة بيروت بعد ان اكمل شوطه العظيم في خدمة بلدته راشيا ولبنان ، ومن حقه على القادرين من ابناء راشيا المغتربين أن يقيموا له نصباً في ساحة راشيا يخلد ذكره ويسجل لهم أنهم لا ينسون عظماءهم .

اما نسيبي السيد جورج موسى ابو عسلي الذي ذكرتموه لي في رسالتكم فهو احد كبار الأثرياء في البرازيل وعليه ان يساهم باكبر نصيب في المشروع المتقدّم الذكر ، لا سيما والمرحوم فارس غنطوس هو ايضاً احد ابناء ابي عسلي الذين أُقدّر عددهم بألف في البرازيل وحدها .

اما راشيا فإليكم بعض ما أعرفه عنها :

إنها بلدة قديمة ، يدلُّ على ذلك اسمها الآراميُّ (السرياني) وقد مرّت بها ادوار عديدة . وهي اليوم مركز قائمقامية وفيها محكمة (حاكم منفرد) ، ودائرة مالية،ومركز بريد وبرق ، وفصيلة درك، ومستوصف صحيّ ، وفيها ايضاً مجلس بلديّ مؤلف من تسعة اعضاء. أما عدد سكانها المقيمين فيبلغ ثلاثة آلاف بينما يبلغ عدد المنتشرين منها في شتى المهاجر بضعة عشر الفاً

ويسوءني القول إنها مهملة من الحكومة ، يقتصر نصيبها منها على الوعود وما يزال سكانها يشربون من مياه الامطار التي يجمعونها في آبار قد تكون نظيفة وقد لا تكون ، ولولا مناخها الممتاز لعلوّها عن سطح البحر نحو الف وثلاثمئة متر، ولولا جوُّها الصافي وهواؤها المنعش، لكانت مياهها الملوّثة تسبّب للأهلين شتى الامراض والعلل . وضآلة النور الكهربائيّ فيها تجعل السكان يذكرون بالخير عهد سراج الزيت الحلو وضوء خشب اللقش .

قلعتها المشهورة قديمة جداً وكانت مقرّاً لبعض الأمراء الشهابيين

منذ عهد الامير بشير الاول . ثم تحوّلت مع الايام الى مساكن ثم الى حصن تمركز فيه الجيش الفرنسويُّ في ثورة ١٩٢٥ وبقيت مقرّاً للجيش الى أن كانت الحرب الكونية الاخيرة إذ تحوّلت الى معتقل للأجانب ثم الى معتقل للرئيس السابق وصحبه ، وبينهم فخامة الرئيس الحالي ، في ١١ تشرين الثاني عام ١٩٤٣ . ومنذ ثلاث سنوات جرى إصلاح بعض اقسامها وجُعلت مركزاً لدوائر الحكومة . اما باقيها فيَدُ الخراب تعمل فيه وكان من حقها أن تعود ثكنةً كما كانت على عهد الفرنسويين

اما مورد الارتزاق فيها فضعيف جداً يكاد لا يُذكر والصناعة فيها معدومة وكذلك التجارة ، لذلك كان معتمدها الوحيد ما يبعث به المغتربون لأقاربهم ، وهذا هو السبب الاكبرلتهافت ابنائها على الهجرة ، ومن لا تعينه الحال على المهاجرة الى اميركا ينزح الى المدن كبيروت ودمشق وزحلة وغيرها سعياً وراء الرزق »

هذا ما اجتزأته من رسالة الاستاذ شفيق أختتمه بالشكر وبتوجيه نظر المعنيين والمسؤولين اليه .

كفرمشكي – بلدة صغيرة قائمة على رأس رابية ، مررت بها في طريقي من راشيا الى متنزه نهر الحاصباني ، وينم جمال ابنيتها وحسن نظامها بعناية ابنائها المغتربين الميامين بها ، مما يقضي لهم بالحمد وحسن الاحدوثة . اما بِشبعا المشهورة بجمال موقعها وغزارة مياهها وعذوبتها ولذة فاكهتها وبطولة مغتربيها فآسف انني لم أتمكن من زيارتها .

حاصبيا – مدينة جميلة ذات ابنية جلها متناسق وكلها متدرّجة لقيامها على جبلين متقابلين . ولما كانت مدينة الاجداد كان لا بدَّ من إثبات رسم لها ، وقد قضت بتأخيره شتى العوامل القاهرة .

اشتهرت بسوق الخان ومتنزه نهر الحاصباني .

ميمس والكفير – قريتان متجاورتان والطريق اليهما على شيءٍ من الضيق والوعورة ، على انهما حسنتا الموقع وأبنيتهما لا بأس بها .

الصحة في لبنان – كان صديقي الطبيب حبيب كحيل الذي جمعتني به الاقدار في ثغر بورت سودان الجهنمي عرضةً للزكام ، فاذا ما أصيب به صيفاً شكا إليّ قائلاً : « الزكام في الشتاء يرافقه الرجاء بالابلال في الصيف ، ولكن ما حيلة من يُبتلى به في هذا الفصل » ؟

ومن آيات الطبيب جورج قدُّوم الذي عرفته وسيأتي ذكره : « إنَّ الطبيعة قد اعطت الانسان كلَّ الصحة فاذا مرض كان ذنبه على رأسه ، وكان المرض من دواعي خجله » !

وقد يكون لمن يمرض ، أياً كان ، عذرٌ مشروع ، ولكن ما عذر من يمرض في لبنان حيث استعدتُ أنا الشيخَ شبابي ؟

مع ذلك وجدت في بيروت بنوع خاصٍّ ، عدا من تضمهم المستشفيات ، مرضى وسقماء عديدين يسعون وفي جسومهم الناحلة ووجوههم الشاحبة وعيونهم الغائرة أسوأُ الشهادات الناطقة بسوء مناخ لبنان ، وهو البلد الصحيُّ الذي لا يُضاهى ، لذلك كانوا بمظهرهم المؤسف اعداء انفسهم وسواهم ووطنهم الصحيَّ الجميل .

ومـا سمعت في رواحي وغدُوّي وفي ايّ اجتماع حضرته سوى ذكر الطبيب والدواء والابر على اختلافها .

ومردُّ هذه الظاهرة المستهجنة الى سوء التغذية في بعض الحالات وفي البعض الآخر الى التعرُّض والاهمال والافراط .

وهذه ظاهرةٌ لحظتها ونبهت عليها في تشيلي التي تشبه لبنان من وجوه عديدة ، فمواطنونا فيها ، كما في لبنان ، يُفسدون ، اتكالاً منهم على جودة المناخ في إصلاح ما يفسدون . لذلك يغلب أن يكون الناس في الاماكن الرديئة المناخ أصحّ اجساماً لانهم فيها يتّقون ويتّبعون القواعد الصحية .

الجمال في لبنان – في لبنان جمال من نوع فاتنٍ جذّاب ولكن ، وقد طغت عليه كما طغت على سواه موجة المدنية العصرية التي تبيح

للمرأة المعاقرة والمقامرة والتدخين وكلّ مـا لا تتحمله بنيتها الضعيفة بالنسبة الى الرجل ، فقد لحظت أنّ الجمال في وجوه عديدة مصطنع ، علـى الأخص في العاصمة حيث الانغماس في كل مـا تقدّم يكاد يكون شاملاً ، بينما هو في البلدان والقرى الجبلية على قلة ، وفي بعضها على ندرة

مناسبات ومصادفات

الاولى – في عاليه وبيت الدين وشتورا وبعلبك : نظراً الى ما يشعر به لبنان من الامتنان للبرازيل لانها أحلّت على الرحب والسعة عشرات الالوف من بنيه فكانت لهم البلد المضياف لا بل الوطن الثاني الذي بفضل طيب عنصر أهله وسماحة شرائعه اتسعت امامهم فيه سبل العمل والكسب والعيش الهنيء كان طبيعياً أن يغتنم حكومةً وشعباً كلّ سانحة تعرض لاظهار امتنانه لها وعرفانه لجميلها ، فكلُّ برازيليّ أياً كان شأنه ، مرحَّبٌ به في لبنان كواحـد من ابنائه ، فكيف والقادمون ستة من نواب سان باولو ، وهي الولاية الجبارة التي تضم اكبر عـدد من المغتربين اللبنانيين ، وفيها أصاب جلـُّهم نجاحاً منقطع النظير . ولما كان قد سبق للنائب الجريء اللبق جـان خليل سكاف أنْ أمّ البرازيل فأحبها وأطال إقامته فيها فألمّ بلغتها ، كان خيرَ من يُعتمد عليه في استقبال أولئك الزملاء الكرام ومرافقتهم وإعـداد مساق يضمن تمتعهم وإكرامهم على الوجه الأليق والأتمّ ، ولكن في الساعة الأخيرة عرض لفريق من أولئك النواب ما استوجب تخلفهم في إيطاليـا فلم يصل منهم سوى نائبين يصحبهما صحافيّ . وبصفة كوني من أعضاء النقابة الصحافية في سان باولو ونسيباً لعطية الخوري اللبنانيّ الأصل ، وأحد النائبين ، رأى الصديق الكريم جان تلطفاً منه ان يضمني الى الوفد في مناسبتين : الأولى ، حفلة الاستقبال الشائقة التي

أقامها له في دارته الأنيقة في عاليه الوجيه نقولا بسترس ، والثانية ، الرحلة الى بيت الدين ومنها الى شتورا حيث أدب له ، ثم الى بعلبك لمشاهدة قلعتها التاريخية حيث كان سروره عظيماً لان الدليل كان شاباً لبنانياً يجيد الاسبانية ويحسن التعبير والشرح والتدليل بحيث لم يفت الزائرين الكرام من اوصاف ذلك الهيكل الأثري العظيم شاردة ولا واردة .

الثانية — في إبل السقي : كانت مهمتي فيها تمثيل صديقي الكريم جورج يوسف ابي سمرة فأفتتح عنه حفلة تدشين المدرسة الرحبة الانيقة التي شادها وقرينته الفاضلة منيرة غطاس ابو سمره وأقدّمها باسمهما الى وزارة التربية . لذلك كنت حالاً في دار الأسرة ضيفاً على أخيه الأكبر كامل ، محاطاً بمثل ما كان ليُساق اليه لو كان مكاني من الحفاوة والاكرام . على أني بعد ان اطلعت على تفاصيل العمل والمساعي الجبارة التي بذلها الأخ كامل لاتمام البناء في غضون عام واحد ، ورأيته اجدرَ مني بتلك المهمة وأحق من كل وجه ، خطّأت الأخ جورج وعهدت بتلك المهمة المشرّفة الى اخيه الأكبر ، معتذراً عن الكلام إفساحاً للمجال وتخفيفاً عن السامعين . على ان الأخ كامل ابى إعفائي وأصرّ على أن اكون بين المتكلمين فخطر لي في الساعة الأخيرة مغزى طريف ينطبق على الواقع ويجنّبني المديح المائع المألوف الذي أمجه ولا يستسيغه سوى السخفاء وهو ان أقيم وجه شبه بين ممدوحي ومعن بن زائدة الذي اشتهر بالجود اشتهاره بالحلم الذي قيل فيه إنه سيد الأخلاق ، ولكنني استبدلت من القذع والشتيمة اللذين امتحنه بهما ذلك الشاعر لومَ صديقي والعتب عليه لانصرافه الى المادة بعد ان جلّى في العلم والادب فكان منطقه المفحم في إجابتي تبرعاته السخية لمشاريع عديدة في البرازيل والوطن .

وأعترف بأنه قد ازدهتني على أثر إلقائي ذلك الخطاب كلمة ثناء

حارّة مخلصة جادت بها عليَّ سيدة نبيلة لم تسبق لي بها معرفة او يقدّمني اليها احد ، كما اكبرت فيها حدة الذهن ودقة الفهم بدليل استشفافها مغزاي الخفيّ . ولكنني ما كدت اعلم بالاستقراء أنها من مواليد المهجر المكسيكيّ حتى شككت في إخلاصها ، ولم يُعِد إليَّ ثقتي واطمئناني سوى التفسير التالي الذي ادلى به إليَّ بعد زمن قرينها الامير عبد العزيز شهاب الذي كان لا يزال إذ ذاك محافظ الجنوب ، وهو حقيقة طريفة تكاد تكون روايةً من نسج الخيال : ذلك أنها وُلدت فعلاً في المكسيك من أبوَين لبنانيين من بكاسين ودُعيت هنريكتّا ، ولكن اتفق لأخت كبرى لها أن اعتزمت الترهُّب واستحال على والدَيها تحويلها عن عزمها فاكتفيا باشتراط ترهُّبها في لبنان الى حيث كانا ينويان العودة بعد زمن قصير فرضيت بشرطهما . وكانت هي بعدُ طفلةً في دون الثانية غير انها كانت ضعيفة البنية فرأى والداها أن يغتنما تلك السانحة فيرفقاها بأختها على ان تصحب الأختين خالةٌ لهما فتُدخل الكبرى الى الدير وتعود بالصغرى بعد أن تكون قد قضت فصل الصيف في ربوع لبنان مستشفيةً . ولكن حدث ان نشبت الحرب الكبرى الاولى فانقطع الطريق وتعذّرت على الوالدَين العودة الى لبنان ، وهكذا تسنى لها ان تتثقف ثقافةً عالية وتصبح لبنانيةً لا غشَّ فيها وتقترن بالأمير وتصحبه بعد القران في رحلة الى المكسيك للتعرُّف الى ذويها !

وخلا ما تقدّم كانت الحفلة رائعة ومستوفية الشروط من كل وجه ، اختتمها وزير التربية بخير ما يُقال في المغتربين وقدر عطفهم على وطنهم الأصليّ وامتنانه لهم ، واعداً وعدَ حرٍّ بتقليد المهدي الكريم وساماً من الدرجة الاولى وقد انجز

الثالثة – في حاصبيا : كنت في هذه نزيل مضيف كريم هو ناصيف الريس احد مدوّني الوقائع في الندوة النيابية وسميُّ نسيبه

رجل لبنان الفذّ في عهد المتصرفية ، بفضل آصرة نسب تربطني بـه ، اكتشفها سمي الاديب توفيق الريس من صناعي سان باولو وأدبائها الموهوبين ، وبحقها حمّلني اليه بطاقة وصاة وتعريف .

ولم تتعدّ مدة إقامتي يومين بلغني في أولهما ، وكان يوم سبت ، أنّ وزيرنا المفوّض الأمير خالد شهاب عاد من عمان فتذكرت بأية حماسة وبأيّ اندفاع كان صديقي لبيب قطيط يُحدّثني عن نزاهته ونبل صفاته ومكارم اخلاقه ووددتُ لو تسنت لي معرفته بصفته الخاصة لا العامة ، ولكن نظراً الى قصر الوقت لم أشأ إزعاجه فورَ وصوله ، على كثرة المتزاحمين للتسليم عليه من أصحاب المقامات والصلات الحميمة القديمة .

وفي صباح الأحد بينما أنا أهمّ بموافاة مضيفي الى مقهى مجاور كان قد سبقني اليه فوجئت بقدوم الأمير خـالد نفسه للتسليم عليّ فأكبرت تواضعه وتنازله لغير مبرّر من صلة صداقة او سابق معرفة ، مؤكداً له أن السعي كان يجب ان يكون من جهتي ، ولكنـه تلطف فعزا إليّ من الصفات التي بلغته بالسماع ما برّر سعيه إليّ ، وتحدّثنا طويلاً عن البرازيل ومغتربينا فيها فأعرب لي عن رغبته الملحّة في أن يكون وزيرَنا المفوّض لدى حكومتها .

وفي المساء رددت له الزيارة المشرّفة وودعته شاكراً ممتناً .

وقد زرته مُستَوسَطاً اكثر من مرة ، بعد توليه رئاسة الوزارة ، فكان دون استثناء مثال التواضع واللطف وكرم الأخلاق

وما اعجبني منه شيء كرّره في الندوة على نائب ارتأى أن تعتزل وزارته لانها وزارة موظفين ، إذ وقف وأكد لذلك النائب أنّ قد سبق له مراراً ان كان وزيراً او رئيساً لوزارة من النوّاب والسياسيين وخرج منها خالي الوفاض طاهر الذيل كما هو الآن .

رسل لبنان

اذا نحن وضعنا في كفة ميزان أبناء هذا الوطن الصغير الذين جلّوا في المضمار المادّي في مختلف الأصقاع النائية ، وفي الأخرى إخوانهم اصحابَ المواهب والقيم الروحية ، كان أولئك بمثابة جسم النسر لأنهم يُحصَون بمئات الألوف وهؤلاء بمثابة ريشه لان عددهم لا يجاوز العشرات . ولكن عندما نعمد الى الوزن المعنويّ القائم على اساس دوام الاثر وخلود الذكر تنعكس الآية تماماً فيصبح نصيب لبنان مما في الكفة الاولى نزراً ويبقى له ما في الثانية باكمله ملكاً ثابتاً يذكّر الأجيال المتعاقبة بالنسر اللبنانيّ الذي ارتاد الآفاق وحلّق في مختلف الأجواء وسيظلّ يحوّم حتى انقضاء الدهور . ذلك أن الموت الذي يقضي بانتقال كل حطام يملكه الراحلون الى ايدي وارثيهم يقف عاجزاً عن غير المكسوب من ذوب الادمغة وعصير القلوب ، إذ أن غيرَ المكسوب لا ينتقل ولا يؤخذ ولا يوهب .

وكما اتسع المجال في هاتيك الاصقاع للعزائم الحديدية والهمم القعساء فجلّت في كل مضمار مادّي وظفر اصحابها بالثروات الطائلة فعاشوا في بسطة ورخاء وساهموا بما زاد عن حاجتهم في إنشاء المشاريع الانسانية الجبارة المحدّثة بصمتها عن عراقة اصلهم وطيب عنصرهم ونبل مراميهم كذلك انطلقت الأفكار مما كان يكبلها في الوطن الأصليّ من قيود الأوهام والعادات والتقاليد وراحت تعبُ حتى الارتواء من كلّ منهل

وترتاد كلَّ أفق وتجول في كل مضمار من مضامير المعرفة ، مستنيرةً مستشفّةً في بيئات لا تعرف للفكر قيوداً ولا لجولاته حدوداً ، فكل منهل سائغ ولو كان أجاجاً وكلُّ رأي محترم ولو كان بدعةً ، ما دام هناك محكٌّ للنقد والتمحيص يميز بين الغثّ والسمين .

ولكن بينما حالت شتى العوامل دون انتقال نتاج العزائم فظلّ جلّه مختزَناً حيث تمّ جنيُه ولم يتسرّب منه الى الوطن الأصليّ إلا أقلّه فقد انتقل نتاج الأفكار لا الى لبنان فحسب بل تعدّاه الى كل قطر عربيّ فانتهل منه البعض في خشية وحذر والبعض الآخر في جرأة وإقدام ، ولكنه راح في الحالين يسير وئيداً ملقّحاً الأفكار ومبدّلاً ما في النفوس ومجرّئاً على تقويض القديم العقيم الذي قدّسه العرف والتقليد حتى أصبحنا اليوم نرى ما نراه من حفول طائفة كبيرة من العلماء ورجال الفكر بالأدب المهجريّ وانبراء كثرة من علية النقاد لدراسته وتمحيصه وجلاء غوامضه وإبراز محاسنه ، كما استهوى آخراً عدداً من الجامعيين وطلاب المعاهد العالية فاتخذوه موضوعاً لأطروحات ينالون بفضلها مختلف الرتب العلمية .

وهذا ما يعود بالذاكرة الى نصف قرن خلا عندما كان هذا الأدب مستهجَناً يناصبه العداء المتزمتون ويُقبل عليه الراغبون في التحرُّر والانطلاق ، لا إعجاباً واستحساناً بل استعذاباً لأسلوبه الطريف واستلذاذاً بطيب نكهته وحسن وقعه ، كما يُستحبُّ من الطفل تعثره بالألفاظ في أوائل عهده بالنطق ويُغتفر له ما يرتكبه من اخطاء .

وأخص بالذكر من واضعي أسس هذا الأدب وحملة لوائه رسلاً خمسة عادوا واستقرّوا في لبنان بعد ان صفا جوهرهم وطهرت نفوسهم وسمت مداركهم ودقّ إحساسهم ورقّت مشاعرهم فخلصوا بالصهر والتنقية من شوائب المآرب والأطماع والأحقاد وزهدوا في المناصب والرتب والألقاب واطّرحوا كل مظهر يشوب الحقيقة او يسترها

وتعرّوا امام نور الحق الساطع وتجندوا للقيام بالمهمة التي اخفق في تأديتها على وجهها الصحيح دعاة المبادىء المسيحية الذين أحلّوا العرَض محلّ الجوهر وقدّموا للمتهافتين القشورَ بدلاً من اللباب فأخطأوا القصد وضلّوا السبيل .

أولئك هم الرسل الأمناء الحقيقيون الذين راحوا يبشرون إخوانهم في الانسانية بالمبادىء المسيحية الحقة التي بدونها لا سلامَ ولا تحابٌ ولا تآخيَ ولا تعاون ، متخذين لهم شعاراً الأدب – وهل كان المسيح سوى الاديب المثاليّ الواجب الاحتذاء ؟ – هذا الادب الذي لا يميز بين الاجناس والالوان والعقائد ، لذلك كان اللغة الشاملة التي يفهمها جميع الناس وفي استطاعة ايٍّ كان منهم أن يتلقّفها دون أن يسعى اليها في ايّ مكان او زمان .

إنهم جنودٌ مجهولون لا يميّزهم زيٌ خارجيّ ولا سمة فارقة ، ولم يُكرهوا احداً قطُ على اتّباعهم او يقيدوه بواجب طاعتهم او يفرضوا عليه إرادتهم او يزعموا أن بين شفاههم الموتَ والحياة ، وفي استطاعتهم أن يُصعِدوا الى السماء او يُنزِلوا الى الجحيم .

هكذا يبدو لعينيّ هؤلاء الرسل الخمسة الذين أخذت على نفسي عهداً بأن أغتنم عودتي الى لبنان لأحجّ مقاماتهم فيه مغبطاً إياهم لأنهم صمدوا في معاقلهم كالرواسي ، لا يُصغون إلا الى نداء الحق والواجب فلا يغريهم وعد ولا يُرهبهم وعيد ولم ينتموا يوماً الى حزب او يشتركوا في نزاع على التوافه ولم يغشَوا الصحافة مكتسبين فظلوا في معزل عن مزرياتها والتلوّث بأدرانها ، ولم ينغمسوا في ايٍّ من المعارك السياسية المخزية فاحتفظوا بكرامتهم وتساميهم وظلّ معين ادبهم يجري رقراقاً صافياً غيرَ مَشوب .

وقد ارتاد جميعهم الآفاق البعيدة وحلّقوا في الأجواء السامقة فشعّوا في مختلف الأصقاع وكانوا المشاعل الساطعة التي انارت وهدت

والينابيع الصافية التي انتهلت منها شعوب عديدة ذات حول وطول وثقافات عالية ومدنيات عريقة فكبر بهم وطنهم الصغير لبنان وتمجد.

لقد بثوا في الغرب روحانية الشرق فاسترعت نغماتهم العذبة الاسماع واستساغتها النفوس فأقبل عليها الغربيون الذين لم تُشبع المادة نهمهم لرؤيتهم في تلك الروحانية المثالية راحةً لضمائرهم وبعثاً لوجدانهم الصحيح

وهكذا اغتنمتُ رحلةً خاطفة الى زحلة جعلتها وقفاً على زيارة تمثال فوزي عيسى المعلوف القائم في اجمل بقعة من واديها، وضريح خاله ميشال نعمان المعلوف مؤسس العصبة الاندلسية ورئيسها الاول، وقد تلطف فكان رفيقي فيها الشاعر والنسيب جوزيف سعيد جحا.

وقد اوحت إليَّ وقفتي أمام التمثال البيتين التاليين:

حلَّقتَ حتى جُزتَ أجوازَ الفضاء ورجعتَ كيما تستريحَ من العناء
وحللتَ في الوادي فلما زرتُهُ ألفيتهُ بالطُّهر قد أضحى سماء

أما الضريح فعلى العكس من التمثال إذ هو قائم في أعلى نقطة من زحلة وقد اوحت اليَّ وقفتي حياله بيتين ايضاً هما:

أودعتَ فيه وأمشي فوقَ تربتهِ فأيُّنا يا تُرى المغبونُ والفاني
أصبحتَ كنزاً ثميناً في خزانتهِ وقد يضمُّ رفاقي غيرُ لبنانِ

ثم اغتنمت رحلةً الى الشمال فزرت متحف جبران خليل جبران وضريحه وأممت الفريكه فزرت متحف امين الريحاني الكائن في منزل أخيه البير الذي أفرد منه غرفتين وقفهما على ما خلَّفه شقيقه الراحل من آثار وما تلقاه في رحلته الى البلدان العربية من هدايا ملوكها وأمرائها. ولو أعطي للريحاني أن يُنجب لمَا خلَّفَ ابناً ابرَّ من اخيه وأحرص على مخلفاته وآثاره وأدأب على نشرها وتعميم نفعها.

والذي لحظته وأريد أن أعلِّله بأسلوبي التصويريّ الخاص الطليق هو أن البير ريحاني مصاب بالوحام الأدبيّ، ومثله بالعدوى والاقتناع زوجه لورين شقير العالية الثقافة والتهذيب، إذ هما لم يكتفيا بإحياء ذكر الامين

على الشكل المتقدم ، فأطلقا اسمه على بكرهما البالغ اليوم العاشرة او دونها ، ولكنه بفضل الوحام الأدبيّ المتقدم الذكر جاء من النجابة والترصن وعمق التفكير وطلاقة اللسان وحسن التعبير حداً يبشر بأنهما سيمهران لبنان والبلدان العربية قاطبةً بأمين جديد يُعلي ويتمّ البناء الذي بدأه عمه وسميُّه القديم .



(مشاهد مضمومة من مقرّ الامين المشرف على وادي الفريكه الجبل)

وأخيراً تسنت لي زورةٌ لميخائيل نعيمه ، لا في شخروبه بل في منزله في بسكنتا حيث كان يتوقع زورةً من بعض اصدقائه والمعجبين به . واستغرق اجتماعنا ساعةً كاملة تبادلنا فيها الاحاديث عن الادب في البرازيل ، وبنوع خاصّ العصبة الاندلسية وأعضائها الذين يقدرهم ناسك الشخروب ولا يجهل قدرَ احد منهم . وعلى هذا الشكل تمت زيارتي للرسل الخمسة وجميعهم في نظري أحياء .

لقد اقتصرت على ذكر هؤلاء الخمسة من رسل لبنان لمناسبة زيارتي مقاماتهم ، ولكن لما كانت شرعة الادب لا تميز بين الاجناس والالوان والعقائد كما قدمت لا يسعني إلا أن اذكر الى جانب هؤلاء اللبنانيين الخمسة إخوانهم وأخدانهم السوريين نسجاً مني على منوال الرابطة القلمية في نيويورك فقد كانت تضم بين اعضائها عبد المسيح حداد الذي كانت ولا تزال جريدته « السائح » لسان حالها ، وشقيقه الطيب الذكر والاثر ندره ، ومثله نسيب عريضه ، وجميعهم حمصيون سوريون . ونسجت على غرارها العصبة الاندلسية في سان باولو فضمت في من ضمت الحمصيين السوريين ايضاً: داود شكور وحسني غراب ونصر سمعان والدمشقي جورج لبان .

وخلا الرسل اللبنانيين الخمسة الذين ذكرتهم لمع في الولايات المتحدة الشمالية ايليا ابو ماضي ورشيد ايوب ووليم كاتسفليس ، وفي البرازيل شفيق عيسى المعلوف ، رئيس العصبة الاندلسية الحالي ، ورشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) وشقيقه قيصر (الشاعر المدني) واسكندر كرباج ويوسف اسعد غانم والياس فرحات وشكرالله الجر وجبران سعادة وتوفيق داود قربان المعدود من كبار الدارسين والمحققين ، والطيبو الذكر والاثر جورج الخوري كرم وأنيس نواكيم الراسي وجورج كفوري وعقل الجر .

وبفضل الاغتراب تألق نجم الخطيب العالمي حبيب اسطفان الذي اشتهر في جميع المهاجر الاميركية وكسب لوطنه لبنان مجداً لا يُقوَّم بمال ، كما انعكس فضل نبوغه على مواطنيه في كل مكان تجلت فيه مواهبه الخطابية النادرة واستأهل من اجلها عشرات الاوسمة الرفيعة كما ضفر له اكاليل الغار كبارُ العلماء ورجال السياسة والفكر في جميع جمهوريات اميركا الجنوبية ، دون استثناء كثرة من رؤسائها . ولكنه لسوء الحظ شغله المنبر عن القلم فلم يخلف من الآثار القلمية ما يوحي

ولو ظلاً من عظمته كخطيب ملسان استرعى الاسماع وخلب الألباب وأطلق الحناجر بهتاف الاعجاب والاستحسان

وكان آخر من عرفته الطبيب والعالم الروحاني جورج الياس قدُوم المجهول كلَّ الجهل في وطنه لبنان فقد وُلد ونشأ وتلقى دروسه الابتدائية في قرية كَفَر من أعمال قضاء جبيل ، والعالية في مدرسة الفرير وكلية الآباء اليسوعيين في بيروت وأتمها في ليون حيث نال شهادته الطبية ، كما أقبل فيها على درس العلوم الروحانية ثم امَّ جمهورية إكوادور حيث تسنى له ان يجترحَ في إحدى قراها أعجوبته الكبرى التي اذاعت صيته وأدَّت الى إرغامه على ممارسة مهنته في تلك الجمهورية. ذلك أنه عالج سيدةً أُصيبت على أثر الوضع بشلل عامّ اقعدها طيلة خمسة وعشرين عاماً دون ان يلجأ الى ايٍّ من الوسائل التي تمتُّ الى طب الاجساد بصلة وأنهضها من فراشها وسارت برفقته تتخطر في احد شوارع القرية سليمةً سوية . فلما ابصرها الشعب طفق يمجد الله في شخصه وركع امامه كاهن القرية وقبّل يده

وما اطّلع رئيس الجمهورية على ذلك الحادث الخارق حتى استقدمه اليه وسأله أن يعالجه من مرض اعجز أطباءه . وبعد أن شفاه حظّر عليه الاشتغال بالتجارة وأكرهه على تعلم لغة البلاد وتقديم فحص لكي يؤذَن له بتعاطي مهنته ، مهدّداً إياه بالطرد من البلاد اذا هو أبى الاذعان . وكانت حجة الرئيس أن في بلاده فوق كفايتها من التجار بينما هي لا تملك سوى طبيب واحد من نوعه .

وبعد أن أجيز عكف على التطبيب بأساليبه الايحائية ووسائله البسيطة وراح يتعمق في دروسه منشئاً في العلوم الروحانية فصولاً شائقة ضمنها مجلات ثلاث كان يصدرها ومؤلفاً فيها حتى ناهز عددُ مؤلفاته القيّمة الخمسين ، طبع منها حتى اليوم حواليَ نصفها وهو الآن في سبيل إصدار ستة منها في المكسيك . وقد نال بفضل مؤلفاته

وبثنات المحاضرات التي القاها في مختلف الجمهوريات الاميركية من الثناء والاعجاب والتقدير ما لا يقع تحت حصر ولا يحيط به وصف .

وفي رأس ١٠ يفكر فيه ويعمل على إدنائه من الافهام حقيقةُ ما رمى اليه الكتاب بقوله : «إن الله خلق الانسان على صورته ومثاله» ، محاولاً أن ينتزع من الاذهان الصورة الظاهرة التي لا تمتّ في شيء الى الواقع بدليل التفاوت في التركيب والهيئات والالوان ، وإفهام الناس أن الكتاب عنى الروح التي هي جزء من القوة الشاملة وأن الانسان إله متجسد وما ضلاله عن حقيقته إلا نتيجة اهتمامه بالصورة الظاهرة دون الروح الخفية ، مما يدنيه من الحيوانية ويُبعده عن الألوهية ، في حين أن في استطاعته ، مع اعتنائه بالجسد كوعاء للروح ليحتفظ به سليماً طاهراً ، أن يبقي فيه على شعلة الالوهية ويبلغه الكمال المنشود . فهل بعد هذا من مطلب اسمى ومسعىً اولى بالاعظام والاجلال ؟

ولكنّ كلّ مؤلفاته ومحاضراته باللغة الاسبانية ، ومن الغبن الفادح أن يظلّ مجهولاً في وطنه الأصليّ وهو الانسانيُ الذي شملت محبته الاوطان بأسرها وساوت في نظره بين الشعوب على اختلافها . فلا يصحُ وهذه نزعته ان يكون للغرب دون الشرق ويبخل على وطنه لبنان وسواه من البلدان العربية ولو بنصيب من ظله وزهره وثمره لذلك أودُ أن يتهيأ لي حظ نشر كتابه ذي الأسلوب الجبرانيّ الذي ترجمته الى العربية وعنوانه : « كتاب بلا عنوان لمؤلف بلا إسم » .

وفي جملة من زرتهم من نسور لبنان الذين لمعوا خارجه دون أن يغادروه : العلاّمة الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف ، والرياضيُ النابغة الاستاذ منصور جرداق ، الاول في بحمدون والثاني في ضهور الشوير ، وقد تلطف بمرافقتي الى منزله صديقي المغترب المعروف فارس نمر

زرت من المطارين السادة بولس الخوري في جديدة مرجعيون وثيودوسيوس ابو رجيلي في طرابلس والكسندروس جحا في حمص. ومع أني صارحت كلاً منهم بأن زيارتي للشخص لا للثوب فقد لقيت منهم جميعاً كل تلطف وإيناس . وكان رفاقي بالتتابع الاخوان كامل ابو سمره فإبرهيم الحلو فعيسى انطون بندقي

وقد اعجبني من الاول تجاوبه معي في بيت من الشعر كان قد سبق له أن نظمه ونشره وهو :

كم نفوسٍ تموتُ في طلبِ المالِ لتحيا بموتها الأجسامُ

كما تلطف فيما بعد فنشر في مجلته « الارثوذكسية » التي يُصدرها عن دار المطرانية الخطابَ الذي القيته في إبل السقي برمّته

ومن الاخير تغنّيه بذكر الجوالي الحمصية في البرازيل والارجنتين وتشيلي لتبرُّعها السخيّ للكلية الارثوذكسية في حمص

ولقيت اتفاقاً المطران ايليا صليبي في فندق نورماندي مسلّماً على صديقي الشاعر جورج صيدح ، وكانت العظة البليغة التي سمعته يلقيها في سمع مزوره ومزوري الكريم استنكاره للحملة الشعواء التي كانت إذ ذاك مشنونة على الرئيس السابق ، وسأعرب عن رأيي في هذا الموضوع

وكان صديقي يوسف جورج عطيه قد اجرى التعارف بيني وبين خاله الاديب توفيق مسرّة شقيق صديقيّ المرحومين جورج والياس في سان باولو ، وتكرّم وشقيقته ملكة فدعواني للغداء يوم سبت وإذا بي احضر حفلة مرتجلة بالنسبة اليّ إذ لا ناقةَ لي فيها ولا جمل لانها تشير الى بناء كنيسة في الحازمية . وقد ضمّت زهاء اربعين شخصاً برئاسة المطران ايليا كرم فلم اشذّ مع سيادته عن القاعدة التي اتبعتها مع سابقيه ، وكان مثلهم كريماً متساهلاً

سوريا ومصر ولبنان

هما من مجموع البلدان التي تؤلف الجامعة العربية الأقربُ الى لبنان جواراً والادنى ثقافةً والاكثر احتكاكاً وتفاهماً ، أخلاقياً وسياسياً واجتماعياً ، والاوفر تقارباً في الذوق الفنيّ والتقاليد والعادات

هذا على وجه التعميم ، فاذا انتقلنا الى التخصيص ازدادت كلُّ هذه الصلات توثقاً لانني عشت في سوريا حتى العشرين من عمري وفي مصر والسودان زهاء عشرة اعوام ثم عاشرت الشطر السوريّ المغترب وصادقته نحو اربعين عاماً ، وأخصُّ منه مغتربي حمص الذين يُحصَون في سان باولو وحدها بالآلاف ، وقد سبق لي أن عرفت مدينتهم كما عرفت من قبلها دمشق

لذلك كان من أقصى أمانيَّ ان يتهيأ لي بعد عودتي الى لبنان ان ازور القطرين ، ولكن شاءت الاقدار ان تحرمني حتى اليوم من زيارة مصر بتاتاً ولا تجود لي إلاّ بزورة عابرة لحمص ودمشق لم تجاوز مدتها في كلٍّ منهما اليومين . وإذن فأنا من حيث حقيقة الجاري في كلا القطرين سواء ومن لم يتسنَّ لهم الانتقال من المهاجر فيعتمدون على ما تنقله لهم الصحف السيارة من الآراء والاخبار . على انه لا يهمني البتة ان تكون دائرة اطلاعي على الماجريات اوسع ومعرفتي اعمق إذ لا دخل لي ولا شأن في سياسة البلدَين الداخلية ، يشهد لي بذلك أنني في غضون اجتماعين متقاربين داما ساعات بأستاذي فارس

الخوري رجل سوريا ونسرها الاكبر المحلّق في الأجواء السياسية العالمية لم أوجه اليه سؤالاً سياسياً واحداً . سبب ذلك هو ان مـــا يهمني فعلاً هو خير القطرين وهناؤهما وقد وجدت في الانقلاب الاخير الذي حدث في كلٍّ منهما خيرَ ما يحقق متمناي هـذا ، لذلك كنت من محبذي الانقلابين معاً دون ان تكون لي ايـــة صلة او معرفة بأبطالهما ، على الاخص وقد تحقق في كلٍّ من القطرين ما تمنيته واعتبرته منذ البداءة شرطاً اساسياً لتحقيق الاصلاح المنشود وتدعيمه حتى لا تكونَ للماضي البغيض رجعة ، والى القارىء البيان :

حدث الانقلاب السوريّ الاخير قبل مغادرتي البرازيل ببضعة اسابيع ، بعد ان كانت قـــد سبقته ثلاثة انقلابات غير مثمرة لانها اقتصرت على استبدال الرأس مع بقاء الأعضاء على حالها ، او أن الرأس نفسه أعوزه الاخلاص وعصفت به ريح الغرور فأساء التصرُّف والتدبير ، مما اثبت لي أنه ولو تمت في الرأس الشروط المطلوبة فعملية التقويم تحتاج الى عامل الوقت وأن التعجل مقادة الى الانتكاس. وقد استبعدت كثيراً أن لا يكون زعيم هذا الانقلاب ، على ما ابداه من ذكاء وحنكة ودهاء ، قد توصل الى هذه النتيجة المنطقية بعد اشتراكه في الانقلابات الثلاثة الاولى ومرافقته لسيرها واضطلاعه بأسباب فشلها

لذلك اعتبرت وعده بقرب إجراء الانتخابات تعليلاً وأنه لاجىء بعده الى سياسة التسويف وتهدئة الخواطر ليتمّ له في مدى ثلاث سنوات على الأقل القضاء على عوامل الفساد وتطهير النفوس من الادران التي علقت بها طيلة عقود من السنين . لذلك رأيناه على الاثر يلغي الاحزاب ثم يفرض إدماج الصحف لكي يقضي مـا امكن على البلبلة والتشويش . ثم هو كان من الحصافة وسداد الرأي بحيث اجتنب الخطأ الذي وقع فيه سابقوه وأدّى الى فشلهم والتطويح برؤوسهم فعهد برئاسة الدولة

الى سواه ورفض الترقية وزيادة المرتب ، مثبتاً لنفسه بكل ذلك النزاهة والاخلاص وحسن القصد

وعلى أثر وصولي الى لبنان بأيام حدث في مصر انقلاب مماثل نسج زعيمه محمد نجيب على غرار زعيم سوريا اديب الشيشكلي . ولم تنقض اسابيع على الاجتماع الذي جرى بين الزعيمين في القاهرة حتى رأينا الاول يلغي بعد لأيٍ وتردُّد الاحزاب ويرجىء الانتخابات النيابية ثلاث سنواتٍ كاملة ويتولى هو رئاسة الدولة

وقد اصاب كلا الزعيمين حتى اليوم إصابةً تامة لانهما جاريا سنّة الطبيعة ، فكلٌ من سوريا ومصر كان بمثابة جسم انتابته شتى العلل فأشفى وبلطف من الاقدار انبرى لمعالجته طبيب حاذق عارف بعلله وأساليب مداواتها ففرض عليه ملازمة فراشه والعمل بأوامره ونواهيه في ما يختص بوسائل المعالجة وما يجب ان يتناوله او يمتنع عنه من الأغذية ، وعهد بتنفيذ اوامره وتعليماته الى ممرّضين اكفاء يثق من أمانتهم وحرصهم على اتباعها فيرغمون عليله على التقيُّد بها ويحولون دون مخالفته اياً منها .

وكان طبيعياً ان عليلاً من هذا النوع طال زمن اعتلاله حتى صحّ فيه قول المتنبي .

ألِفتُ السقمَ حتى صار جسمي   إذا فقد الضنى اضحى عليلا

لا يمكن ان يستسلم ويرضى بجميع ما تقدّم ذكره من الزواجر والقيود مختاراً فهو لا شكّ معترضٌ ومنتقض وعاملٌ بكل حيلة ووسيلة على استغفال ممرّضيه ، مؤثراً المرض مع التمتع بما ألفه على الشفاء بفضل الامتناع عنه . وهو بالطبع يكره طبيبه ويتمنى لو هو استطاع الاجهاز عليه لكي يحطم قيوده ويستعيد حريته في إيذاء نفسه . ولكنّ الطبيب يريد له الحياة ، وما من شكٍّ في أنه متى تم شفاؤه سيندم على ما كان منه وينقلب من عدوٍّ ناقمٍ الى صديق مسالم يعترف لطبيبه النبيل

العطوف بالفضل ويحفظ له الجميل ما عاش .

هذه حكاية سوريا ومصر في سطور ، ولست منجّماً لأتكهن عن مصير ايٍّ من اديب الشيشكلي او محمد نجيب او كليهما فقد يظفر بهما خصومهما ، وهم بطبيعة الحال كثر في البلدين ، وقد يسلمان وينتصران انتصاراً حاسماً كاملاً كما يشتهي لهما كل مخلص فيضفر لهما خصومهما قبل مشايعيهما أكاليل الغار ويعترف لهما بلداهما بالجميل ويخلّدان ذكرهما الى الابد . ولكن اذا صحت منهما النيات وثابرا على خطتهما المثلى فإنهما ، وإن لم يسلما كبشريين من الوقوع في بعض الأخطاء والهفوات ، بالغان القصد ومحرزان الحمد والثناء وخلود الذكر بفضل ما ابدياه حتى اليوم من حسن نية ونزاهة وإخلاص .

والى القارىء الآن تفاصيل الرحلتين القصيرتين اللتين قمت بهما الى حمص ودمشق :

في حمص – قصدت الى حمص من زحلة في حافلة تضمُّ زهاء ثلاثين مسافراً ، وكان طقس ذلك اليوم الخريفيّ جميلاً غيرَ أني كنت اخشى هجوم البرد فجأةً ، ولم اكن مستعداً له ، لذلك كنت معوّلاً على ان لا أطيل مدة إقامتي في حمص اكثر من يومين .

ودام تمتعنا حتى بلغنا المخفر الجمركيّ اللبناني وبعده السوريّ ، ففي الأول وقوف ومراقبة جوازات وفتح حقائب ورزم وتفتيش دقيق لئلا يكون بين المسافرين من ينقل مهرّبات ممنوع إصدارها ، وفي الثاني مثل كل ذلك وفوقه حذراً من دخول ما هو ممنوعٌ استيراده . وتفادياً من التكرار وإطالة الشرح أقول إنّ هذا هو الجاري ايّاً كان قصد المسافر واتجاهه ، وقد يطول الوقوف في حالة الاشتباه ويتكرّر في مخافر أخرى تلي الحدود حذراً من ان يكون قد حصل شيء من الاغفال او غض النظر في المخفر السابق ، كما تبين لي في العودة بطريق طرابلس وفي رحلتي التالية الى دمشق من بيروت وعودتي منها في

الطريق عينه . وهذا كله من المحرجات المؤلمات بين بلدين يُقال إنهما شقيقان !

وأخيراً وصلنا الى حمص قبل الظهيرة بقليل ، وكنت موصىً بالنزول في فندق « قصر رغدان » ومعوّلاً على العمل بالوصية لسبب خاص بي هو تخيُّلي أنني بذلك اغنى عن زيارة شرق الاردن ، وقد وجدت هذا الفندق قريباً من مكتب النقليات حيث حطت حافلتنا رحالها .



(فندق قصر رغدان الذي حللته)

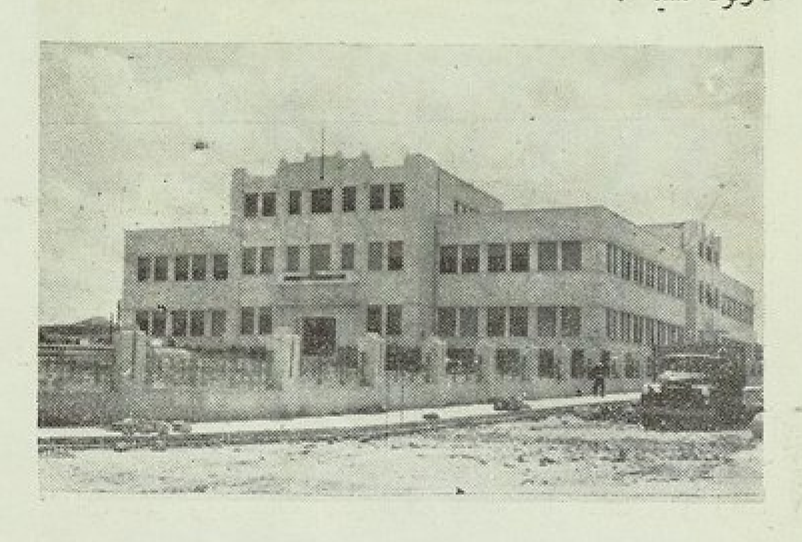
ولم أجد صعوبةً في الاهتداء الى منزل الصديق القديم انطون عيسى بندقي الذي عرفته في البرازيل فأحسن وعيلته الكريمة استقبالي وجنّد بكره الثقيف المهذّب عيسى فكان لي نعمَ الرفيق إذ هو عرّفني بالكثيرين من كرام الحمصيين المقيمين ومن سبق لهم الاغتراب الى البرازيل وسواها من المهاجر الاميركية كالارجنتين وتشيلي، وتلطف بعضهم فزارني مرحّباً في منزل مضيفي الكريم . كما سرّني أن لقيت الاديب موسى رزق سلوم الذي عرفته في البرازيل فكان لي في وقتٍ معاً الصديق المعوان والمضيف الكريم ، وفيما بعد أنفذ إليّ عدداً من

رسوم المدينة اخترت منه ما يراه القارئ، مثبتاً في هذه الصفحات .

وبسهولة الاهتداء وسرعته طالت مدة إقامتي القصيرة اضعافاً فعرفت في أصيل اليوم الاول عينه المكتبة البلدية الرحبة الانيقة الحديثة الطراز والتي تجـد من الشبيبة الحمصية الراقية إقبالاً منقطع النظير ، وبعدها جامع خالد بن الوليد ، وكفى بذكره تعريفاً ، وفي مسائه متنزه الميماس الشهير ، وقد اصبح منظماً ومستوفياً شروط المتنزهات الحديثة .

وفي اليوم التـالي زرت برفقة دليلي الكريم الامين المستشفى الحكومي الواقع في ظاهر المدينة والبالغ حـداً رفيعاً من الرحابة والاتقان ، وبرفقة صديقي موسى رزق سلوم زرت دار الحكومة الفخمة التي تتسع لجميع الدوائر ، وفيها تلطف باستقبالنا مدير الاذاعة الكاتب اللوذعي محمد روحي فيصل الشديد الاعجاب بالمغتربين والتقدير لمآتيهم.

ثم عرّفني رفيقي الاول الى حي المحطـة الحديث بشوارعه الرحبة وأبنيته العصرية الانيقة ، فدار المطرانية الارثوذكسية الجديدة ، فالكلية الارثوذكسية .



(دار الحكومة ، وقد اصبحت الطرق التي تحيط بها معبدة)

وفي وسط المدينة حديقة بديعة التنسيق تظلهـــا الاشجار الوارفة يرتادها الالوف للنزهة والاستراحة والمباسطة وتناول القهوة والمرطبات والاطعمة على اختلافها ، والاصغاء الى ما يبثه المذياع من اخبار وقطع موسيقية وغنائية . وفي إحدى زواياها مطعم رحب مستوفٍ شروط الاناقة والاتقان يرتاده من شاء ويصبح ارتياده إلزامياً في فصل الشتاء

وفي حمص عددٌ كبير من الساحات والميادين والشوارع الرحبة القـائمة في وسطها احواضٌ مشجّرة يكسوها العشب ، وتستلفت النظر فيها حركة العمران ففي كل مكان هدمٌ وبناء وتوسيع وتقويم وتجديد، ممـا يبشر أنها بعد سنوات معدودة ستصبح مدينةً عصريةً من الطراز الاول مظهراً ومخبراً .

فهنيئاً لاخواننا ابناء حمص بمـــا بلغته مدينتهم عروس الوعر من تقدُّم وارتقاء في غضون اربعة عقود من السنين .



(مشهد عام من دمشق)

في دمشق – أممتها من بيروت ، وكما غنيت في حمص عن زيارة شرق الاردن بنزولي في فندق « قصر رغدان » غنيت فيها عن زيارة

العراق بنزولي في فندق « قصر الرشيد » ، ولكن لا ذنبَ للعاصمة ولا للخليفة العظيم في ان يكون هذا دون ذاك موقعاً وأناقةً وجدةً بل ذنبي انا لانني اخترته لوقوع مكتب التقليات فيه ، لا مراعاةً لجانب الاقتصاد لان تعرفته لا تقلّ عن تعرفة زميله الحمصيّ

وكنت لأسباب لا موجب لذكرها قد ارجأت رحلتي الى دمشق حتى اواخر الخريف ، وكانت قد بلغتني انباء موجة برد شديد اجتاحتها منذ اسبوعين ، لذلك لم أغترّ بجمال الطقس الذي صادفني عــلى غير انتظار نحدّدت مدة إقامتي ، مع الذهاب والاياب ، بثلاثة ايام ، وقد سالمني الطقس فيها كلها .



(ساحة المرجة المجاورة لفندق « قصر الرشيد »)

واضطرني قِصَر المدة الى الاقتصار على الأهم فقصدت فور وصولي الى مكتب صديق فاضل عرفته في صغري ولقيته اتفاقاً في زحلة ، هو فيليب نجل اسكندر كحيل صديق والدي ، فكان كريماً وشجعني على الاتصال به حال وصولي الى دمشق ، وفعلاً انجز وعده وحقق حسن ظني إذ هو احسن استقبالي ووصلني تلفونياً بأستاذي الكبير

فارس الخوري الذي لم يكن لي بغية اعزُّ من الاجتماع به بعد فراقٍ طال تسعةً وخمسين عاماً لم يطرأ فيها على النسبة التي كانت بيننا ايُّ تبديل . وما سمع أُستاذي اسمي وأصغى الى تحيتي حتى راح يسرد لي كلَّ ما وعاه من سيرتي كأنه يقرأ في كتاب ثم تلطف باستعجالي في القدوم اليه لانه كان على موعد سابق بعد ساعتين فلم أبطىء والتقينا . وبعد العناق وتبادل التحيـــات وعبارات الود رحنـا نتحدث عن البرازيل وجاليتنا الجبارة فيها ونشاطها وحيويتها والمنزلة الرفيعة التي تسنمتها بفضل المشاريع الكبيرة النافعة التي انشأتها وما أهّل المتحدرون انفسهم له من مراكز مِهنية رفيعة وظفروا به من منـاصب حكومية سامية ، ممـــا أثلج صدره وأشاع الحبور في عينيه ، وفي الوقت نفسه جدَّد اسفه لحيلولة موانع قاهرة دون زيارته البرازيل منذ عامين .

ثم ابلغني أن في نية المجمع العلميّ القيام ببادرة تنم بقدره لجاليتنا في البرازيل ، وذلـك بمنحـه عضويتـه لبعض رجـال العلم والادب العاملين بينهـا ، كأعضاء مراسلين ، وأن اول من يفكر به المجمع الاستاذ رشيد عطيه فحمدت له حسن اختياره ، وسألني رأيي بشأن واحد او اثنين سواه فـــاقترحت اسم رشيد سليم الخوري (الشاعر القرويّ) والاستاذ توفيق داود قربان الذي يُنتظر منه بفضل نشاطه وتنقيبه الدائم الخير الكثير .

ولدى إعرابي له عن ارتياحي لِما هو بادٍ في وجهه من علائم الصحة والحيوية والنشاط شاء ان يؤيد قولي بدليل جديد فاقترح عليّ مرافقته الى سطح المنزل الذي يسكن الدور الثاني منه والمؤلف من اربعـة ادوار ، وسار أمامي بهمة الشباب متوقـلاً بخفة السلالم الثلاثة حتى بلغنا السطح وأطللنا على اروع مشهد يمكن أن يُلمّ به الطرف من دمشق . والمنزل واقع في حي المهاجرين الجاري منذ زمن تجديده بأسلوب هندسيّ بديع فالطرق المؤدية اليه كلها عريضة ومعبدة والأبنية القائمة

ن جانبيها من أحدث طراز بحيث تتنافى وتلك التسمية المتواضعة .

ومما رواه لي أنه عندما ابتناه لم يكن في تلك الضاحية الآهلة اليوم سواه ، وكان محاطاً بشبه غوطة تتعدّد فيها مجاري المياه بين الاشجار والادغال . ولما كان مقابلاً لوزارة الخارجية سألته ما إذا كان البناء الذي تحتله هذه خاصاً فكان جوابه للأسف مخيّباً لظني إذ أن جلّ الدوائر الحكومية في دمشق كما في بيروت مؤتجر . ووافقني على أن في ذلك تبذيراً لأن شأن الحكومة غير شأن الافراد فهي مستقرّة وليست مثلهم بحكم المقيم على نية الارتحال بين عام وآخر لذلك كان من الحكمة وسداد الرأي والمصلحة العامة أن تشيّد الحكومة ابنية خاصة بمجموع الاجور الباهظة التي تدفعها في خلال سنوات معدودة .

وبعد عودتنا من رحلتنا راح يفكهني بسرد حادث طريف جرى له منذ ستة واربعين عاماً مع الاستاذ رشيد عطية الذي أمّ دمشق في اواخر حزيران سنة ١٩٠٦، وعلى أثر وصوله ونزوله في فندق «الخراب» زاره في داره ولبث خمسة ايام كاملة يتوقع ردّ تلك الزيارة ولكن على غير جدوى . فلما عاد الى مقرّه في سوق الغرب بعث اليه بتاريخ ٥ تموز بقصيدة تقع في نحو عشرين بيتاً ضمّنها عتبه المرير على ذلك التقصير ، روى لي منها عن سطح الذاكرة بيت القصيد فيها وهو :

أظننتَ كلّ الردّ يقبح فعله ... ردُّ الزيارةِ غيرُ ردّ البائسِ

فأجابه في العاشر منه بقصيدة تقع في أربعين بيتاً روى لي منها عن سطح الذاكرة ايضاً الابيات التالية :

أحفيتُ في التنقيب بين معاذري ... وبذلتُ في تحريرها مجهودي
فعجزتُ عن إيجادِ ما هو نافعي ... وعلمتُ أنّ الزورَ غيرُ مفيدي
فأتيتُ مُعترفاً لعلّكَ عادلٌ ... بعقوبتي عن خطةِ التشديدِ
فتعدُّ ذنبي «خلّةً» من «فارسٍ» ... وتقولُ كم من خلّةٍ «لرشيدِ»
يا بلبلاً نزلَ الخرابَ ولم يكن ... عهدُ الخرابِ ببلبلٍ غرّيدِ

وكان الموعد المضروب قد أزف فودّعتُ وانصرفت. وفيما انا عائدٌ وقع نظري على لافتةٍ في الدور الثاني من بناء عالٍ جميل يتوسطها اسم « الفيحاء » فقلت في نفسي لا بأسَ باغتنام هذه الصدفة فأزور جريدةً واحدةً في دمشق من باب أنّ ما لا يُدرك كله لا يُترَك جلـُّه ففعلت ونعمت بمعرفة الاستاذ عبد الرزّاق الذهبيّ سكرتير تحرير تلك الجريدة اليومية الواسعة الانتشار وهو شابٌ ثقيف كريم الطبع نبيل الخلق تلطف بي ويسّر لي الحصول على رسوم من بعض المشاهد الرائعة في دمشق فكنت له من الشاكرين

ومن غرائب الصدف ايضاً أنّ الشارع الذي تحتله ادارة تلك الجريدة هو شارع البرازيل .

وكان ذلك اليوم خميساً تالياً لعيد سوريا القوميّ الذي جرى فيه العرض العسكريّ العظيم ، قضيت بقيته وسحابة يوم الجمعة متجوّلاً متفقداً مستطلعاً وخرجت من تجوالي الطويل ذاك في الأحياء القديمة والحديثة بنتيجة مرضية للغاية ، فدمشق بساحاتها وميادينها وشوارعها المستقيمة العريضة المعبدة وأبنيتها العديدة الفخمة الحديثة الطراز سائرة بخطى واسعة حثيثة لتصبح مدينة نموذجية من كل وجه . وأجمل ما فيها في نظري مجرى نهر بردى الذي يخترقها ، حتى في إبان انحساره .

وصباح السبت سرتُ قاصداً مكتب صديقي لأتلفن لأستاذي وأستأذنه في زيارته مودّعاً . وفي الطريق تذكرت المطارحة السابقة الذِكر التي جرت بين الاستاذ عطيه وبينه فخطر لي ان أنصب نفسي حكماً فيها ، ولهذا الغرض نظمت البيتين التاليين :

عتبُ الرشيدِ عليكَ لستُ أقرُّه ... يكفيه أنكَ لا تردُّ البائسا
إنّ الزيارةَ منهُ شِبهُ « عطيةٍ » ... لا تُستَرَدُّ فكيفَ اضحى يائسا

واستأنفت طريقي وتلفنت فأتاني الجواب مشجّعاً على الزيارة ، لا بل حاضاً عليها ، إذ لم يكن لدى أستاذي في ذلك اليوم ما يشغله .

وبعد وصولي بقليل أتاه زائراً عقل القطامي احد ابطـال ثورة ١٩٢٥ ووجيه آخر فأجرى بيننا التعارف ورحنا نتحدّث عن جالية البرازيل المعروفة القدر والقيمة . وسألني القطاميُ عن الشاعر القرويّ وذكره بالخير شاكراً له فضله في ما بعث به اليه من منظوماته الوطنية .

وذكرتُ لأستاذي حكاية التحكيم ورويت له البيتين المتقدمين فنهض لساعته وأتى بدفتر يتضمن القصيدتين السابقتي الذكر وسألني أن أذيّلهما ببيتيّ ففعلت . ثم خطر لي ان أفكهه بالقصيدة « البطنية » التي عارض فيها ناظمها كامل فضول الحمصيّ نزيل الارجنتين قصيدة السموأل الفخرية : « إذا المرء لم يدنس من اللؤم عِرضُه » ، ومطلع معارضته :

اذا المرء لم يملأ من الكشكِ بطنَهُ   فكلُّ غـذاءٍ يغتذيهِ قليـــلُ

فارتاح اليها وسألني تدوينها في الدفتر ليلقيها ذلك المساء عينه على مسامع نُخبة من رجالات دمشق الذين جمعوا بين كبر العقول و كبر البطون ثم ينشرها في مجلة هزلية

وملتُ عليـه اقول إنّ لي مأرباً آخر من تلك الزيارة هو أن اتعرّف الى نصفه الأفضل بعد ان لقيت نصفه الأمثل فهنأني على حسن حظي لان قرينته كانت ذلك اليوم في عطلة استثنائية حتى الثانية بعد الظهر . وقدِمت تلك السيدة الفاضلة التي اشتهرت بكل نبيل من الصفات ورفيع من الاخلاق فقدّمني اليها وإذا بالخُبر يحقق الخبرَ فهي مثال الغيرية والعطف على اللاجئين والتفاني في سبيل المعوزين . إنها رئيسة اتحاد الكنائس المسيحية الدولية ومنخرطة في سلك اربع عشرة جمعية مختلفة الغايات والاهداف الانسانية بما يضطرها الى هجر منزلها طيلة النهار وحتى منتصف الليل وبعده احياناً لتؤدي واجبها نحو من يحتاجون الى عطفها وعونها ، فهل من مطلب اسمى وخدمة اجلّ وأجدى؟

وتلطفت فاقترحت عليّ ان أبقى للغداء على ان أرافقها عند الساعة

الثانية لمشارفة مركز إغاثة اللاجئين فقبلت شاكراً، والحال تلفنتُ الى مكتب النقليات مرجئاً سفري الى الثالثة . وكانت جلسة لطيفة تبادلنا فيها الاحاديث عن جالية البرازيل وعطفها على اللاجئين، ذاكرين للاستاذ فارس دبغي مساعيه الحميدة في هذا السبيل، كما ذكرت لي السيدة خوري فضل جمعية الاوانس السوريات التي ترئسها الآنسة النقيفة ادال قسطنطين الخوري، وأرتني رسالة تلقتها منها مطوية على تحويل بألف دولار إعانة للاجئين . أما العبارة التي لا تزال ترن في أذني فهي تمني أستاذي أن نلتقي ثانية بعد انقضاء تسعة وخمسين سنة أخرى أتمناها له لكي يدوم نفعه وإن لم نلتقِ .

وبعد الغداء اصطحبتني السيدة خوري على سيارتها الخاصة ترافقنا ابنة شقيقة لها عالية الثقافة والتهذيب وتتلهب غيرة على منكوبي بلادها فلسطين . وبلغنا مركز الاغاثة فاذا هو مؤلف من عدة غرف مكتظة بعشرات الاكداس من الاكياس المتضمنة الملابس المختلفة الانواع والاشكال والاحجام، ومثلها من الاغطية الصوفية المرسلة من شتى الاماكن والأصقاع برسم التوزيع على المحتاجين . وفتحت امامي احدها وراحت مع معاوناتها المأجورات يفرزن محتوياتها لكي تعدّ منها فيما بعد رزمٌ تُرسل الى اشخاص معينين تبعاً لحاجاتهم .

في ذلك المكان تخشعتُ ولا تخشّعَ المصلي في معبد وأحنيت رأسي لتلك السيدة الوقور وودّعت وانصرفت حاملاً هذه الذكرى الطيبة العرف لأنشرها في هذا الكتاب .

حُبُّ لبنان

في حفلة تدشين مدرسة البنات التي شادها في إبل السقي صديقي الحميم الكريم جورج يوسف ابو سمره وقرينته الفاضلة منيره غطاس ابو سمره استهللت كلمتي بقولي إنه من تحصيل الحاصل الاشادة بوطنية المغتربين وحبهم للبنان وعطفهم عليه بينما نحن نقوم بتدشين هذا البناء الجميل وتقديمه لوزارة التربية ليكون وقفاً على الغاية التي شُيِّد من اجلها فهو بصمته يعرب عن هذه المزايا بما هو ابلغ من كل قول ويقيم بذاته الدليل المحسوس الملموس على صدق الوطنية وخالص الحب وجميل العطف . وإنه اذا كان جلّ المواطنين المغتربين قد فاتهم حتى اليوم إقامة دليل مثله فإننا على الاقل لا نجد في المهاجر كلها عدوّاً واحداً للبنان بينما اثبت لنا الانقلاب الاخير بصورة دامغة أن اعداء لبنان الألدّاء الذين يُخشى منهم على كيانه ومصيره مقيمون فيه . وإن بادرةً كالتي نحن بصددها تُعتبر في حقيقتها بوادر إذ هي تحفز الكثيرين للقيام بمثلها ، إن لم يكن نوعاً فقيمةً .

وعلى قدر ما تعيه الذاكرة أورد المشاريع الفردية والبلدية والاقليمية التالية التي قام بها بعض كرام المغتربين تبعاً للترتيب الزمنيّ :

خليل اندراوس — تسوير مقبرة البيادر في زحلة لذكرى نجله المرحوم البرتو الذي دُفن فيها .

ميشال وشكرالله والياس اسعد التبشراني — تعليم غير القادرين

من الاحداث في مسقط رؤوسهم بسكنتا .

جورج نعمان المعلوف – تعليم غير القادرين من الاحداث في زحلة وتلا صنيعه هـــذا آخراً تبرُّعه بخمسة آلاف ليرة لبنانية لمستشفى تل شيحا في زحلة ، وهو المستشفى الذي أتمـــه وأثثه وجهزه بالمعدات الجراحية الحديثة كرام مغتربينا وإخواننا الزحليين في الولايات المتحدة الاميركية . كما انبرى لتشييد مأوى للعجزة بنفقته الخاصة . واغتنم نسيبه نجيب قطيني المعلوف سانحة عودته الى الوطن وزيارته للمستشفى عينه فتبرع لصندوقه بألف ليرة لبنانية .

توما وغطاس وحبيب الخوري – تعليم غير القادرين من الاحداث في بلدتهم كفرقوق .

اولاد جرجس الزوزور – بناء سور وملجأ لجبانة معلقة زحلة لذكرى موتاهم المدفونين فيها .

عزيز نادر – أنشأ في مسقط رأسه القبيات مستوصفاً خيرياً مثالياً يكلفه ، خلا اكلافه الانشائية ، ثلاثة آلاف ليرة لبنانية شهرياً .

ملحم وكرم سمعان الراسي – تجهيز بلدتهما إبل السقي بمولـّد للنور الكهربائيّ كلفهما نحو مئة ألف ليرة لبنانية .

شكري الراسي – تعبيد طريق رئيسيّ في بلدته إبل السقي تبلغ اكلافه المقدَّرة نحو عشرة آلاف ريال اميركي .

سمعان سمعان الراسي – تجهيز مدرسة الصبيان في إبل السقي بمقاعد ومناضد نموذجية بلغت أكلافها ألف ريال أميركي

المربي الفاضل الطيب الذكر والاثر جبران مكاري – عندمـــا ادركته الشيخوخة وشعر بدنوّ الأجـل شاء ان يقدّم لوزارة التربية مدرسة المساواة التي أنشأها في مسقط رأسه أنفه ، وقام على ادارتهـا عدة عقود من السنين ، فاستقدم من سان باولو بكره حاتم ليقوم عنه بمهمة التقديم فكان عند ظن أبيه ببرّه واريحيته فوسّع نطاق المدرسة

من ماله الخاص وقدّمها مستوفيةَ الشروط باسم والده المحسان .

يوسف خليل – قام بأثرتين في بلدته خربة قنافار ، الواحدة تثقيفية والثانية اقتصادية جاوزت أكلافهما مئة الف ليرة لبنانية . وتقوم الثانية بتسليف المزارعين مبالغَ دون فائدة لآجال اقصاها خمس سنوات وعهد بتنفيذ هذا المشروع النموذجيّ الى حكمة ودراية النائب الجريء جان خليل سكاف .

وله مأثرة ثالثة دلت على الحب والعطف ولكنها لم تأتِ بالنتيجة المطلوبة لانه أخطأ التقدير ، ذلك أنه احب بلبلًا لبنانياً يجيد الانشاد ويطرب فأراد أن يحتكره في قفص ويضرّيه فيصبح بازيّاً يحسن الاقتناص ، وهكذا اعمته العاطفة عن حقيقة واضحة هي أن البلبل لا يمكن ان يصير بازياً وأن الذين احسنوا الاقتناص في المهاجر هم الذين يعبرون مثله بالاشارات لكي لا ينفّروا الفريسة فتفوتهم .

ولم يكن ذلك البلبل سوى الياس ربابي الاديب والخطيب المعروف . ومع أني وسواي توقعنا النتيجة التي لم يكن منها بدٌّ ، وهي عودة الربابي الى العش الذي ألِفه ، فقد قدَرت ليوسف خليل حبه وعطفه معتبراً فيه حسن النية بدليل الابيات التالية التي نظمتها للحفلة الوداعية التي أقيمت للربابي تعويضاً له بحلاوة التكريم عن مرارة الخيبة ، في بهو الجمعية الخيرية المارونية عشية الثلاثاء الواقع في ١٨ ايلول سنة ١٩٥٠ وهي :

فقدتُ الصبا مذ شبتُ دونَ خضابِ
فما قِيلَ يوماً : أنظروا المتصابي
وقد عشتُ بالذكرى ولست بآسف
فما حاجتي بالكأسِ دون شرابِ
ولكنّ أنغامي عزائي وسلوتي
وكيف أغني إن فقدتُ «ربابي» ؟

فالأبيات التالية التي نوّهت فيها بفضل يوسف خليل .

يقولون إلياساً مفارقنا غداً ... ولست أرى هذا الفراقَ جميلا
ففي وجه أخلانا تلوحُ كآبةٌ ... وفي وجهِ شانينا نرى التهليلا
وفي أرضنا حسنٌ وسحرٌ وروعةٌ ... وهيهاتِ ان يلقى الغداةَ بديلا
على رِسلكم يغنيه عن حسن « يوسفٍ »
وفيٌّ بلاه فاصطفاه « خليلا »

جورج يوسف ابو سمره وقرينته منيره غطاس ابو سمره — بناء فخم لمدرسة للبنات في إبل السقي كاملة المعدات تتسع لزهاء مئة تلميذة

واذا كانت قد ندّت عن ذهني مآثر أخرى فالعتب على ضعف الذاكرة او قلة الاطّلاع ، ولكنّ التقصير عن التنويه لا ينفي الفضل الذي تشهد به المآثر الناطقة فليقس المطلعون على ما ذُكر ما لم يُذكر، حسب اصطلاح النحاة .

ولم يقصر إخواننا السوريون في مضمار الحب والعطف فقد قام نفرٌ كريم منهم بمآثر ذات قيمة وخطر ، في حلب ودمشق وحمص وسواها من المدن و البلدان والقرى السورية .

اما القادرون من اللبنانيين الذين ما زالوا مقصّرين بسبب امتلاء قلوبهم من ذواتهم بحيث لم يبقَ فيها متّسع لسواهم فقد نظمت في الزمن الأخير بعنوان « يقظة الضمير » ابياتاً تهكمية تصح أن تكون لسان حالهم كاعتراف جميل منهم يخفف جرم تقاعدهم عن نصرة وطنهم الاصليّ ، وهي في ما يلي :

قد بنينا في غير ارضِ الجدودِ ... صرحَ عزٍّ على أساسٍ وطيدِ
وغدَونا اجانباً عن حمانا ... بقلوبٍ مقدودةٍ من حديد
لا نؤمُّ البلادَ إلاّ انتجاعاً ... وانتفاعاً ، شأنَ الغريبِ البعيد
ذكرُ لبنانَ في الشفاهِ سعيرٌ ... إنما القلبُ قطعةٌ من جليد

* * *

حبُّ لبنانَ لا يقوم بقولٍ	بل ببــذل الأرواح قبلَ النقود
بذلَ الروحَ من تخلّفَ فيه	كم طريدٍ كم مُبعَدٍ كم شهيــد
حاربوا حربنا ونحن بقينـــا	نتقيهـــا ونتتخي من بعيد
جاع بعضٌ وفات بعضاً كساءٌ	وشبعنا كاسين كلَّ جديــد
لم نجُدْ في الخطوب إلاّ بنزرٍ	لا يساوي قُصيعةً من ثريد
او بذلنا بذلَ الشحيح وتهنا	ومنّا منَّ الدعيِّ الجحــود
قــد هجرناه نِضوَ ظُلمٍ وفقرٍ	وتركناه راسفـــاً في القيود
ولدُنْ قيلَ قد تحرّرَ قلنـــا	قــد ظفرنا ولم نعُدْ بالعبيـد
إن يجاهــدْ وينتصر نحن منهُ	او يُهاجَمْ فنحن عبرَ الحـدود

***

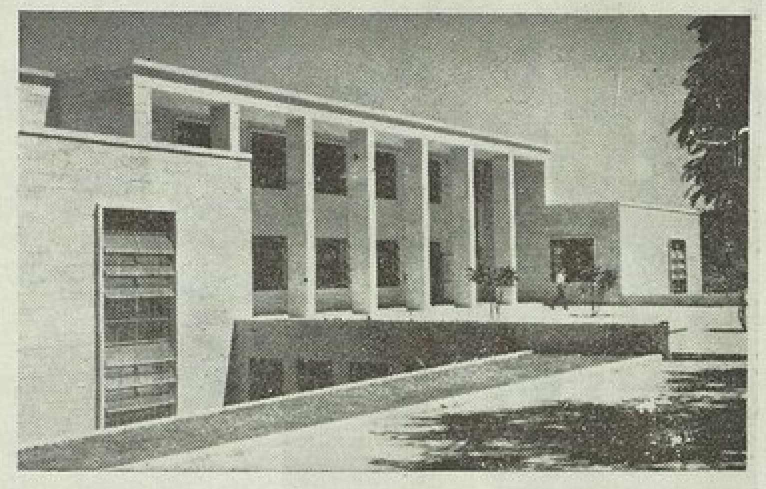
قــد نزحنـا للفتح والغنم عنهُ	وانتصرنا من دونِ عودٍ حميد
ونسينا فضلَ السلاحِ علينـــا	وهو منه من طارفٍ وتليـد
لو صدقنا في مـا نقول ادّعـاءً	لحسبنـــا الموجودَ كالمفقود
ونفرنا الى العرينِ خِفـــافاً	قبل قولِ العرين اينَ أسودي



(مشهد من مدينة صيداء ، او صيدون ، التاريخية ومينائها)

مكتبة نعمة يافث

في الجامعة الاميركية



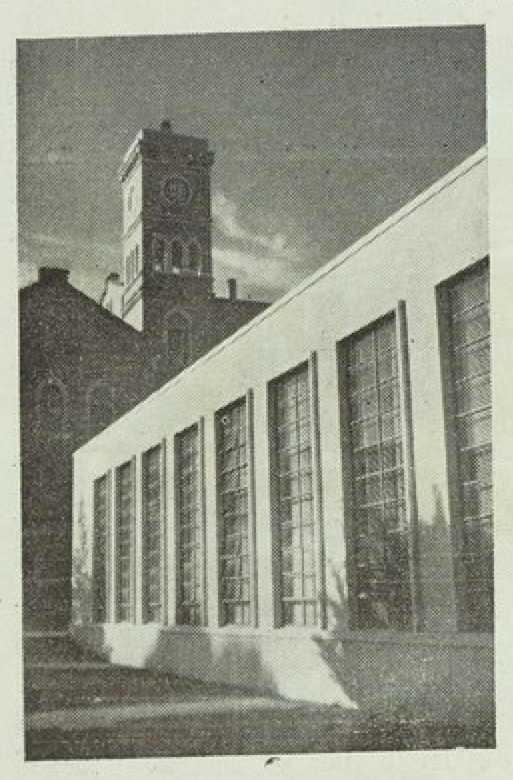
(واجهة المكتبة المقابلة للدائرة العلمية ، أقدم بناء في الجامعة)

لا أخصُّ هذا المشروع بالإفراد والتوجيه نظراً الى جسامته فقط، إذ سبق لي القول إنَّ كلاً يبذل على مقداره وضمن دائرة إمكانه ، ولكن لتيقني بعد عودتي أنه اتخُذ بالفعل اساساً وذريعة لتأميم اعظم معهد علميّ في الشرق كلّه ، لا بالتحكُّم والاكراه كما جرى في عبادان بل برضى أصحابه ومؤسسيه واختيارهم ، وأعني بذلك المعهد الجامعة الاميركية في بيروت . ذلك أن هذا الموضوع أثير منذ

ثلاثين عاماً ، يوم اعرب مجلس الأمناء في نيويورك عن استعداده للتخلي عن هذا المعهد لهيئة عربية مؤلفة من قدماء المتخرّجين بشرط أن يؤهلوا ذواتهم لتسلمه وصيانته وتنميته واستمرار عمله التعليميّ والتهذيبيّ على شكل يوحي الثقة ويضمن حسن المآل ، إذ أن مجلس الأمناء حريص على هذا التراث حرص الوالد على وحيده فلا يمكن أن يعهد به إلا الى من يحسن تبنّيه .

وليس ما يوحي الثقة كتوفّر المؤهلات في المتبني ، وفي رأسها إقامة الدليل المحسوس على استعداده للتضحية والبذل ، من باب أنّ : «مالا تتعب فيه الايدي لا تحزن عليه القلوب »

وعلى هذا أنشئت جمعية متخرّجي الجامعة المركزية في بيروت وراحت تبثُّ الفكرة وتعمل على إنشاء فروع لها في كلّ بلد يضمُّ عدداً من المتخرّجين فكانت فروع مصر وأميركا الشمالية والبرازيل والمهاجر الأخرى. وطفقت الجمعية المركزية تجمع المال بمختلف الوسائل حتى استطاعت في الزمن الاخير أن تشيّد على مقربة من الجامعة بناء فخماً مؤلفاً من عدة طبقات تستغله كنادٍ للمتخرّجين،



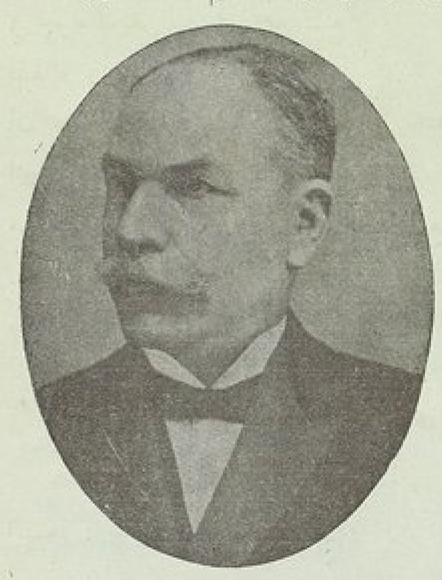
(رسم جانبي يبدو معه برج الدائرة العلمية)

واحتفظ فرع البرازيل بما جمعه من المال ليعلّم من فائدته عدداً من غير القادرين من الطلبة النجباء ، منيباً عنه في اختيارهم الاستاذ منصور جرداق ، ومشترطاً عليهم بعد تخرُّجهم وولوجهم مضمار العمل أن يردُّوا تبعاً لامكانياتهم ما أنفق في سبيلهم لكي يستفيد منه سواهم. ومنذ سنوات آثر على الفائدة المصرفية اقتناء عقار يدرُّ ريعاً ثابتاً مضموناً ، على انّ نشوب الحرب الكبرى الاخيرة حال دون استمرار هذا المسعى الحميد .

ولست على علم بما فعله إخواننا في مصر وسواها من الاقطار ولكنني على يقين من أننا قد أخطأنا القصد وضللنا السبيل إذ بالأساليب الاستئثارية التي اتبعناها وقفنا من مجلس الأمناء على هذا المعهد العظيم موقف الريبة والحذر وكنا كذاك الذي جعل للنار والماء اللذين فرضهما على نفسه شأن ما فرضه على سواه من الدقيق والسمن والعسل، او أننا أشبهنا مصدّق في إصرارنا بأن يكون التأميم خالصاً لوجه الله .

فلا عجب والحالة هذه أن نرى المجلس يعدل بدوره الى الاحجام عن الشروع في تنفيذ خطة التأميم التدريجيّ الذي اقترحه تلقائيّاً .

اما الذي عجز عنه الالوف من المتخرّجين المنتشرين في كل مكان فقد حققه ورثة نعمة يافث بمأثرتهم الخالدة التي نظر اليها مجلس الأمناء



(نعمة يافث الذي تحمل المكتبة اسمه)

بعين الاعتبار والاجلال واتخذها كحجر الزاوية في بناء التأميم الموعود بدليل أنه خطا في سبيله الخطوة الاولى، وكانت خطوة واسعة مبشّرة على ما سأبينه في الفصل التالي . ولعلّه مؤتمّ بما ورد في الكتاب فيكتفي بتلك البادرة الطوعيّة السخية اكتفاء الله بصالح واحد لكي يعفّ عن المدينة فلا يخربها .



نجيب يافث

خليفة المعلم ومستأنف جهاده النبيل

وبناء المكتبة الذي كلف نحو مليون ليرة لبنانية جاء من احدث طراز مستوفياً شروط الرحابة والأناقة والتنظيم والترتيب ويتسع لزهاء خمسمئة قارئ ودارس . وقد تلطف مديرها الاستاذ جبران بجعازي فرافقني في جولة استقرائية في جميع طبقاته وأقسامه وسرّني كثيراً أنّ علمت منه أنه نجل « الخال » الذي كانت لي صلة وثيقة بمطعمه على ما ذكرت في « العهد القديم » من هذا الكتاب ، وقد وعدته بأن أُقنع اصدقائي في البرازيل بأن يهدوا ما لديهم من الكتب العربية القيّمة الى المكتبة لتُحفظ فيها بأسمائهم تخليداً لذكراهم او ذكرى موتاهم .

مقدّمو المكتبة لذكرى فقيدهم الغالي :

عفيفة ناصيف التبشراني ارملة المغفور له المعلم نعمة يافث وأولادها السبعة : شديد ونجيب وريكاردو وفردريكو وكارلوس وغلادستون وروبرتو .

الجامعة الأميركية



(مشهد عامّ من الجامعة)

هي المعهد التربويّ الذي كان معروفاً في عهدي باسم « الكلية السورية الانجيلية » ، ولم يكن يضمّ سوى اثني عشر بناء ، وقد عدت فوجدته جامعةً تشغل ضعفي مساحتها منذ نصف قرن ويزداد عدد ابنيته الى خمسة وخمسين ويصبح عدد طلبته عشرة اضعاف ما كان عليه في عهدي .

ومما لا يحتمل الرّيب هو أن نموّه وازدهاره على هذا الشكل قد أثارا إعجابي وكانا مدعاةً لارتياحي واغتباطي ، ولكن ما أثلج صدري

شيء كرؤيتي في سدّة رئاسته ونيابتها علمين عربيين من اعلام الفكر المشهود لهم بالتفوّق في مضامير الثقافة وسعة الاطلاع وإحسان الادارة والتنظيم والتوجيه ، بعد أن كان يُضنُّ فيه حتى على المجلّين في اللغة العربية نفسها بلقب أستاذ .



قسطنطين زريق الدمشقيّ



فؤاد صرّوف اللبنانيّ

وهذان هما العلمان اللذان أشرت اليهما وهما من خرّيجي الجامعة وكلاهما في غنىً عن التعريف . وكفاهما فخراً اختيارهما في العام الفائت : الاول لمنصب رئيس الجامعة بالنيابة عن رئيسها المتغيب في اميركا ليجمع في جولة قد تستغرق عامين زهاء عشرة ملايين ريال ، والثاني كنائب رئيس اتصاليّ دائم ، وقد برهن كلٌّ منهما أنه كفوء للمنصب الذي يشغله ولكنني اعتقد ان جلّ الفضل في اختيارهما مردودٌ الى الاثر الحسن الذي احدثته المأثرة اليافثية التي تقدّم ذكرها في نفوس الأمناء .

ومما يلفت النظر أن العمل جارٍ والمساعي مبذولة لابلاغ الجامعة اعلى مستوىً ممكن من حيث الاحاطة والشمول في كلّ فرع من فروع

العلم النظرية والعملية ، وأهمها في ما يختص بلبنان الدائرة الزراعية التي يكمّلها الحقل التجريبيُّ الذي اقتُنِيَت لاجله ارضٌ صالحة في البقاع.

اما ما افتقدته وكان من الموادّ الرئيسية التي تُدرّس عندما كان لهذا المعهد صفةٌ مذهبية فهو « الأثِكس » او ما يسمى « الفلسفة الادبية » وقد عجبت لالغائها بعد ان فقدت الجامعة تلك الصفة والاستعاضة عنها بمادة « سِيفِكس » او ادب السلوك او التهذيب الاجتماعيّ الذي نعيته في ما تقدّم من هذا الكتاب . وسرُّ إيثاري هذه الفلسفة يعود الى أنها تتوائم والمبادىء الاساسية التي ترتكز عليها جميع الاديان وترفع الانسان في عيني نفسه فيتسامى ويترفّع عن الدنايا ويأتي الصالحات ، لا خوفاً من عقاب ولا طمعاً في ثواب ، كما تقنعه بأن في مصلحته في هذه الحياة الدنيا أن يكون محسناً لنفسه ولسواه ، وبهذا الشكل يعيش البشر حياةً فاضلة ويكونون إخواناً متضامنين لا اعداء متنابذين

ومهما يكن من امر فالجامعة معهدٌ مثاليّ لا يمكن أن نطمع في ايّ بلد عربيّ بأفضل منه وقد برهن الاميركيون القائمون عليه ، بالبادرة التي صدرت عنهم ، على حسن نية ونبالة خلق وانسانية مثالية ، فمن الانصاف وسداد الرأي أن نفرّق بين هذا الشعب وحكومته فلا نأخذه بما ارتكبته في فلسطين وحاولت رياء ان تبرّره او تخفف وقعه بأساليب لا تجوز على العميان فضلاً عن المبصرين . ويكفينا أن رئيسه الفاضل النبيل الدكتور بنروز كان اشدّ منا وطأةً على حكومة بلاده وقد دانها وقال فيها فوق دينونتنا وما يمكن ان يقوله فيها اشدُّنا تألماً واحتداماً .

ومما زادني ثقةً بأهلية اللبنانيين وسواهم من مثقفي الاقطار العربية الأخرى لادارة هذا المعهد ما لمسته من كفاءة القائمين على ادارة كلية المقاصد الاسلامية وهي مشروع وطنيٌّ صرف فلا ينقصنا والحالة هذه سوى التصميم والسعي الحثيث المتواصل للفوز بهذه الأمنية الغالية .

الحكم الوطني في لبنان

تاريخ في سطور – إن صلة لبنان بفرنسا قديمة عهد وقد توارث اللبنانيون حبها أباً عن جد وكانت اعزّ أمنية يجهر بها سوادهم هي أن يروا علمها المجيد يخفق يوماً فوق ربوعهم بدلاً من العلم التركي البغيض. ذلك لاعتقادهم بالتوارث والتقليد أن قد رُكّب في طبع هذه الدولة الانسانية النزعة حبّ لبنان واللبنانيين والعطف عليهم والمبادرة الى نجدتهم كلما وقع عليهم ظلمٌ او حلّت بهم كارثة. وقد برهن اللبنانيون مراراً على قدرهم لعاطفتها المفترضة هذه فلم يحجموا حتى عن بذل ارواحهم رخيصةً في سبيل نصرتها وتأييدها.

وأيّ حرج عليهم في ذلك، على الأخصّ بعد الثورة التحرُّرية الكبرى التي جرى فيها الدم الفرنسويُّ انهاراً وأدّت الى إعلان شرعة حقوق الانسان وصيرورة فرنسا جمهوريةً اتخذت لها شعاراً الكلمات الثلاث الخالدة: «حرية. مساواة. إخاء» فاشتهرت بفضله، لا عند اللبنانيين فقط بل في العالم بأسره، بكونها أمّ الحرية ونصيرة الشعوب الضعيفة المغلوبة على أمرها.

ونشبت الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ فكان طبيعياً أن يتمنى لها حلفاؤها اللبنانيون النصر. ولم يكن الاتراك يجهلون نزعتهم هذه، فعندما دخلوا الحرب سنة ١٩١٧ الى جانب الالمان طفقوا يرهقون اللبنانيين ويضيّقون عليهم الخناق، على الاخص بعد ان عثروا في

محفوظات القنصلية الفرنسوية في بيروت على وثائق تثبت على بعض احرار اللبنانيين التجاءهم الى فرنسا لكي تحرّرهم من النير التركيّ فاعتبروا هذا المسعى خيانةً عظمى فلم يعودوا يكتفون بتعقب الاحرار وسجنهم ونفيهم وشنق بعضهم بل هم حمّلوا سوادَ اللبنانيين تبعةَ تلك الخيانة إحلالاً منهم للنية محل العمل وتقديراً أنّ من لم يجهر فقد أضمر . وعلى هذا الاساس اعتمدوا سياسة التجويع الشامل وهي أدهى من التشريد والتقتيل وأمرُّ وراحوا ينفذونها بصورة سافرة لا تقبل التأويل .

وفي اواخر سنة ١٩١٧ وقع اعتداء من جانب الغوّاصات الالمانية على بعض البواخر التجارية البرازيلية فلم تجد البرازيل بدّاً من شهر الحرب على المانيا والانضمام الى صفوف الحلفاء ، وبدخولها تحرّج موقف السوريين واللبنانيين كرعايا للدولة التركية التي اصبحت عدوة البرازيل ، وبحكم هذا الانتساب كان أفراد الفريقين في ذلك العهد يُدعَون اتراكاً فرأى عقلاؤهم في سان باولو أن يعلنوا سوريتهم ويتنصلوا من تلك التابعية التي اصبحت وبالاً عليهم في بلاد يدأبون فيها وينعمون بظلّ شرائعها السمحاء فعقدوا اجتماعاً قرّروا فيه أن يجاهروا بولائهم للبرازيل والدول الحليفة ملتمسين اعتبارهم شعباً ضعيفاً مرهقاً أُكره على اعتناق الجنسية التركية ، وطيّروا الى رئيس الجمهورية برقيةً باسم الجالية السورية في البرازيل يعلنون فيها انضمامهم الى صفوف الحلفاء ويعرضون على البرازيل دماءهم واموالهم ، كما راحوا يتبرعون لصندوق الصليب الأحمر البرازيليّ بمبالغ طائلة أربى مجموعها في ذلك العهد على خمسين ألف ليرة ، او ما يساوي اليوم مليوناً . وقدرَت لهم البرازيل هذا الموقف الولائيّ النبيل فاحتضنتهم وأكرمتهم إكراماً حكومياً شعبياً منقطع النظير .

وبعد أن أمنوا واطمأنوا وصانوا ذواتهم ومصالحهم على هـذا

الشكل أنشأوا «الجمعية الوطنية السورية»، مفوّضين اليها العمل بأفضل الوسائل الممكنة على رفع الضيم عن إخوانهم اللبنانيين الذين اصبحوا عرضةً للموت جوعاً. وراحت الجمعية تستنهض الهمم وتجمع التبرعات لارسال المؤن الى لبنان بواسطة جمعية الصليب الأحمر الدولية وتوفقت الى شحن باخرة بكاملها من الحبوب والأقوات ولكن جاءهم بعد حين أنّ الاتراك أبوا ان تقوم لجنة دولية محايدة بتوزيع هاتيك المؤن مصرّين على ان يتولوا هم امره فيكونون الخصم والحكم في وقتٍ معاً، فوثقت الجمعية من سوء نيتهم وعممت على السوريين في جميع انحاء البرازيل بلاغاً مؤداه أنّ لم يعد لديهم من وسيلة لانقاذ إخوانهم من براثن الوحش التركيّ سوى مناصبة الاتراك العداء داعيةً الشبان منهم للتطوُّع وتأليف فرقة تنضمُّ الى أحد الجيوش الحليفة، وبذلك يثأرون لاخوانهم ويؤيدون حق بلادهم بالحرية والاستقلال، إذ لا ادلّ على حيوية شعب من تضحيته بالدماء والأرواح في سبيل حريته واستقلاله.

وكان الانكليز في ذلك العهد مسيطرين على البحار وفي مقدورهم تجهيز متطوعينا وتدريبهم وتسليحهم ونقلهم الى جزيرة قبرص ومن ثم الى فلسطين حيث كانت المعارك دائرة لاجلاء الاتراك عن سوريا. فانتدبتني الجمعية وزميلاً لي لمخابرة القنصل الانكليزيّ بهذا الشأن فأحسن استقبالنا وأبدى استعداده لمؤازرتنا ولكنه اشترط تحديد عدد المتطوعين لكي يخابر حكومته على اساس راهن فتتخذ الاجراآت اللازمة لنقلهم جملةً على باخرة واحدة الى ساحة التدريب في قبرص ومنها الى ساحة القتال في فلسطين. ولكننا كنا إذ ذاك في بدء نهضتنا نعمل بكل ما لدينا من الوسائل على استفزاز اكبر عدد ممكن من الشبان للتطوُّع فكيف يمكننا تحديد اي عدد؟ لذلك اعتبرنا أننا أخفقنا في مسعانا وعدنا فابلغنا الجمعية نبأ خيبتنا فتقرّر أن نولّي وجهنا شطر فرنسا فلقينا من لدُن قنصلها عكس ما لقيناه من زميله

الانكليزي" إذ هو ابدى ارتياحه لخطتنا واستعداد دولته لقبول اي عددٍ من المتطوّعين فتنقلهم من ثغر سنطس أفواجاً تبعاً لمواعيد إبحار البواخر الفرنسوية منه ، فعدنا شاكرين ومبشرين بتلك النتيجة الباهرة.

ورحنا فعلاً نُعدُّ المتطوّعين ونتلقى من القنصلية الفرنسوية البلاغات عن مواعيد سفر البواخر فنوافيها الى ثغر سنطس بالعدد المتيسر منهم . وكان جميع المتطوعين دون استثناء يُلحُّون في الابحار ويطالبوننا بالتعجيل في تسفيرهم ونحن نستمهلهم ريثما تحين مواعيد سفر البواخر . ولكنّ عددهم على ما اذكر لم يجاوز العشرات لان حركة التطويع توقفت بعد حين لسبب سيأتي ذكره .

وراحت الامور تجري على ما نشتهي ونحن نقابل بادرة فرنسا بالامتنان حتى جاء يومٌ علمنا فيه بقدوم وفد من قبل جمعية سورية أنشئت في باريس بوحي وتوجيه الوزارة الخارجية الفرنسوية مؤلف من طبيب من أصل أرمنيّ او حلبي يُدعى يوسف لكح وسياسي سوري ناشىء يُدعى جميل مردم ،وتخلف منه الشيخ يوسف الخازن إباء .

اما قصد تلك الجمعية على ما أبلغنا فقد كان الاتصال بندّاتها الفرعية في المهاجر والتفاهم معها على انتهاج خطة موحّدة والعمل وإياها يداً واحدة لابلاغ عدد المتطوّعين أعلى حد ممكن . وكانت المخابرة بهذا الشأن قد جرت مع بعض اعضاء جمعيتنا ولا علم لهيئتها الادارية به . ومع ذلك تقرر استقبال الوفد في العاصمة ومرافقته الى مركز الحركة في سان باولو .

وفي الاجتماع الاول الذي عقدته الجمعية لاستقبال الوفد الزائر بصفة رسمية والتفاهم معه بشأن الخطة الأجدر بالاتباع اعرب عن حسن نية فرنسا مؤكداً استعدادَها للعمل التحريريّ في لبنان وسوريا . ولكن على قدرِها للتضحية التي انبرى لبذلها المغتربون السوريون واللبنانيون تشترط ان نضيف الى دستورنا مادّةً نعترف لها فيها

بحقوقها التقليدية في سوريا ولبنان . وبعد الاطلاع على نص تلك المادة المنوي اقحامها في دستور الجمعية ومناقشتها طُرحت للتصويت فكانت الاكثرية في جانب رفضها وإرجاء البت في مصير البلاد الى ما بعد انتصار الحلفاء وعقد مؤتمر الصلح .

وكانت حجة الاكثرية ان البت في مصير البلاد حق للمقيمين لا يجوز للمغتربين ان ينازعوهم إياه ثمناً للعون الرمزي الذي يبذلونه في سبيلهم بإزاء التضحيات الجسيمة التي بذلها ويبذلها المقيمون ، على ما سبق لي تبيانه .

على ان هذه النتيجة لم تُرضِ الوفد الذي اثبت باستيائه منها انه كان مسخَّراً لبلوغ الغاية الاستعمارية التي تنطوي عليها تلك المادة فراح اعوانه من اعضاء الجمعية يسعون لتحقيق أمنيته بطرح اقتراحه في جلسة تالية اعدُّوا لها عدتهم بإدخال اعضاء جدد يعتمدون على موافقتهم .

وبرغم مخالفة هذا التدبير لدستور الجمعية وكل جمعية سواها ، واحتجاج الاكثرية الفائزة عليه ، رجحت كفة اصحاب المال والنفوذ الذين جهلوا او تجاهلوا سوء نية فرنسا من فرضها تلك المادة التي لا تخرج عن كونها ابتسامة صديق تخفي وراءها نواجذ عدو ، او قفازاً مخملياً يستر براثن المستعمر .

وعلى أثر تلك المخالفة الصارخة لكل قانون وعرف ، وفوز الاقلية التي اصبحت في الجلسة التالية اكثرية ، انسحبتُ وبعضَ الزملاء من الجمعية ورحنا نناصبها العداء ونشنُّ عليها في صحفنا غارات شعواء محذّرين المواطنين من بذل دمائهم ثمناً لاستعبادهم بدلاً من أن يتقاضوا لقاء حريتهم المسلوبة ابهظ الاثمان ، ويظلون خاسرين . وهكذا وقفنا حركة التطوُّع ولكنَّ فرنسا لجأت الى أسلوب سياسيّ بارع هو انها اوفدت سفيرها الى سان باولو ليؤازر الجمعية والوفد فأعلن في اجتماع عامّ مقسماً بشرف دولته أنها لاتنوي لبلادنا سوى الخير وأنها

منسحبة على أثر تحريرها من النير التركيّ تاركةً لأهلها حق تقرير مصيرهم . ولكنني ورفاقي لم ننخدع بهذه المناورة ورحنا نؤكد للمواطنين انه لا أهون على فرنسا من التنصل من تصريحات سفيرها على اساس أنّ الغاية تبرر الواسطة .

وكان ما كان من امر الانتداب الذي اقرّته جمعية الامم ودام خمسةً وعشرين عاماً لم تبلغ في أثنائها البلاد المستوى الذي يؤهلها للاستقلال . ولولا اندحار فرنسا الاخير لظلت رازحةً تحت وطأته .

هذا بكل اقتضاب تاريخ الانتداب مما قد يجهل السواد تفاصيله لحدوثه في مهجر سحيق . ولكنّ حقيقة ما رميت اليه هو ان أثبت للمقيمين أن المغتربين لم يكونو يوماً دونهم في العطف على وطنهم الأصليّ والاستعداد للتضحية في سبيل هنائه وإسعاده ، لا بالمال فقط بل بالارواح ايضاً ، فليطمئنوا وليثقوا بما سبق لي قوله ، وهو أن اعداء لبنان فيه لا خارجه .

ومما يجب ان يزيد اللبنانيين والسوريين ثقةً هو امتداد هذا الشعور وانتقاله الى المتحدّرين من الاصليَن السوريّ واللبنانيّ بدليل التظاهرات التي أقاموها في جميع انحاء البرازيل احتجاجاً على ضرب دمشق ، دون فرق بين المتحدّرين منهم من اصل سوريّ او لبنانيّ .

عودة الحكم التركيّ – إن امر الانتداب معروف فقد ضجت منه البلاد وتألبت على مكافحته بكل وسيلة اكثريتها الساحقة ، بأحزابها وطوائفها ، ولم ترضَ عنه سوى أقلية من النفعيين الانتهازيين من باعة الوطن ولو بأكلة عدس . وجاء وقت انتقض عليه امين الريحاني بصورة سافرة على ما سبق بيانه . ولكنه لسوء حظ لبنان عاجلته المنية قبل تقلّص ظل الانتداب عن ربوعه ، في حادث لم يكن في الحسبان . ولكن ما فاته منذ عقد من السنين أُعطي لي أنا بعد عودتي التي لم تكن اقل مفاجأةً من منيّته ، فهو قصد الاتراك بالذات دون أن يخطر له

في بال أنهم سيعودون ممثلين افضل تمثيل بحكومة وطنية تلعب دورهم بشكل يفوق الاصل براعةً وإتقاناً .

لقد حل الرئيس السابق مكان عبد الحميد وفعل فعله وتذرّع بمثل وسائله للاحتفاظ بالسلطان والتشبّث بسدّة الحكم . والغريب أنه لم يخجل من الفرنسويين الذين عاب عليهم عسفهم وطغيانهم فناوأهم وانتهى امره معهم بان اعتقلوه وحجروا عليه في قلعة راشيا فهبّت البلاد بأسرها تؤيده وتنتصر له ، مما اكرههم على الافراج عنه مع رفاقه وإعادته الى منصبه حرّاً موفورَ الكرامة ! ألم يخجل على قرب عهده بهم أن يبذّهم بعد توليه شؤون بلاده في ما استنكره منهم وهم الغرباء الاستعماريون الطامعون، وأعني الاستيلاء على مقدّرات وطنه وتحويله الى مستعمرة يستغلّها ويُرهق أهلها بمختلف الاساليب المنكرة ؟

ألم يخجل من الذين نصروه فخذلهم وأعزّوه فأذلهم وحفظوا عهده فخانهم وصدّقوه فكذبهم ؟

ولم يكتفِ بهذا بل هو راح يخدع المغتربين بتصويره لهم حكومته حكومةً مثالية لا يمكن ان تنعم البلاد بأفضل منها ، في رسالته اليهم وما أعرب عنه من المبادىء السامية في خطابه الافتتاحيّ لدورة الاونسكو التي عُقدت في لبنان ، وما ابدى فيه من براعة وسعة اطّلاع واستمساك بالمُثُل الانسانية العليا ، مما كسب له احتراماً وتقديراً عالميين .

لقد برهن بصورة عملية أن الفرنسويين قد احسنوا الى البلاد باعتقالهم اياه وكانوا ، وهم الغرباء الذين لا يُرجى منهم الاحسان ، أبرّ منه بها ، هو الوطنيُّ ، إذ هو كان شرّاً عليها منهم ، وأنه إنما كان يسعى لاجلائهم عنها ليستأثر بالفريسة دونهم !

وكم سمعت من مشيدٍ بذكائه وعلمه وسعة اطلاعه عادّاً إياه، حتى بعد سقوطه ، رجلَ لبنان الاوحد ،فكنت اندب في سرّي وجهري حظ

لبنان لفقره بالرجال الى هذا الحد الميئس اذ مصيره قطعاً الى الاضمحلال. إن الانكليز على عظمتهم وسعة سلطانهم ابوا الاعتراف لتشرشل الذي انقذهم والعالمَ بأسره بأنه رجلهم الاوحد ، مع انه كان مثالَ البطولة والنزاهة والاخلاص والوطنية الحقة ، فكيف برئيسنا السابق وقد برهن على أنه مجرَّدٌ من كل هذه الصفات ؟ إنّ المتغنين بمقدرته ومؤهلاته لا يفرقون في شيء عمن يتعزى عن الاندهاش بكون السيارة التي دهسته من نوع فخم انيق وأن سائقتها حسناء بالغة حدّ الظرف والكياسة والجمال !

لقد اتضح لي على أثر وصولي الى لبنان انّ لا فرق البتة بين ما كان عليه يوم غادرته منذ نصف قرن خلا وما صار اليه سنة ١٩٥٢ التي عدت فيها اليه . فلا اختلاف إلاّ في المظاهر والتسميات ، اما في ما عدا هذه فكل شيء فيه باقٍ على حاله : طغيان وإقطاعية ورشوة ، محسوبيات ووساطات وشفاعات ، فقدان امنٍ ودوس حقوق واستهتار بمصالح الناس ، ظلمٌ وفقرٌ يفرُّ منهما من استطاع ويقاسي مضضهما من بقي ، ولا يأبه لهما من كان منهما بمنجاة .

وما الذي كان في زمن الاتراك اكثر من هذا ، فهل انا فريسة خداع السمع والبصر وأنني في لبنان في عهده الاستقلاليّ النيابيّ ، الذي سمعت به وقرأت عنه وهماً ، وفي العهد التركيّ فعلاً ؟

ولا عبرة بحرية الفكر وانطلاق اللسان والقلم ما دام العقاب الصارم منتظراً من يعثر لسانه او يزلُّ قلمه ، ومفسرو الرموز من رجال القانون كمفسري الأحلام لا تخفاهم خافية . فاذا كان الناقد حاذقاً حذراً ولم يقع في الفخ كان عقابه إعارة ما يقوله أذناً صماء ، فالمسؤول الاول لا يصغي للصيحات وإن تعالت ، ولا يأبه للمتهم مهما تكن صائبة . ومن لا ينبهه من غفلته الصياح لا يمكن أن يلقي بالاً لما يُطلقه الشعب من شكوى وتذمر وأنين ، فمذهبه مذهب نيتشه القائل :

«إن المغلوب لا يجوز ان يُترك له سوى عينيه ليبكي بهما» . ولو هو شاء الاصغاء لما استطاعه لان زمرة الشر والفساد التي احاط بها نفسه تلجأ إذ ذاك الى قرع الطبول ونفخ الابواق فتجرف كلَّ صوتٍ مهما اعلولى ، وكلٌّ منهم ندٌّ لأبي الهدى الرفاعي وأحمد عزّت العابد في تخدير وجدانه لينفسح لهم المجال للعبث والافساد والارتكاب ، متخذين اسمه تعويذةً ، لعلمهم انه محاطٌ بهالة من التقديس تحول دون تناوله بكلمة سوء ، فأسلوب الحكم في لبنان ديموقراطيٌّ على غرار الولايات المتحدة الاميركية ولكنه في ما يختص بالرئيس ملكيٌّ على غرار إنكلترا دونما أيّ نظر الى الفرق البيّن بين الدولتين من حيث انطلاق يد الرئيس وتقيد الملك التامّ بإرادة شعبه ممثّلًا بمجلس العموم .

حتى إن لجرائدنا العربية في أميركا ملء الحرية في تناول الرئيس وسمعته على ما تشاء وأن تقول فيه ما لم يقله مالك في الخمر دون ان يجرؤ على إسكاتها لان حرية الفكر والقلم واللسان في بلاد العم سام مقدسة ، بينما جرائدنا في لبنان مقيدة بواجب احترام الرئيس الى حد أن تكذّب سمعها وبصرها اذا هو اتى امراً فريّا .

ولا ننسَ الى كل ذلك أن كلَّ رئيس تولى شؤون الولايات المتحدة الاميركية غادر كرسيَّ الرئاسة افقرَ منه عندما جلس عليه ، فعلامَ نتشبه به في سلطانه ونخالفه في تنزُّهه ؟

افمن اجل هذا المصير جاهد اللبنانيون في لبنان وخارجه وملأوا اسماعَ الكون بتغنيهم بلبنانهم العزيز بعد أن اصبح دولةً مستقلةً ذات سيادة ومكانة بين الشعوب ؟

ولكنَّ هذا هو الواقع فقد تحرّروا من حكم الاجنبيّ ليستعبدهم إخوانٌ لهم في الوطن والجنس . فلبنان كان دولةً في الخارج ومزرعةً في الداخل يستغلها الحكام والاقطاعيون والمتمولون من ابنائه ، فما كان اشبهه بالقبر المكلس !

فيا لخَيبة الامل بجبيس راشيا وأعوانه الذين غضب الشعب لِما وقع عليهم وأعدّ عدته لبذل دمائه لفك إسارهم وإعادتهم الى مناصبهم معزّزين مكرّمين .

وإن ما استفاده الرئيس واعوانه من اموال الامة لا يُعتبر شيئاً مذكوراً بالنسبة الى الضرر الادبيّ الذي ألحقه بالبلاد باساءته اخلاق اهلها وإفساد ضمائرهم ، اذ ان الناس على دين ملوكهم .

تلبية النداء – كان من حقي وقد عدت الى وطني لبنان بعد نصف قرن كامل من مغادرتي إياه للمرة الاولى أن اطفر وأُغني ولكني وجدته في مأتم فاستحال عليّ إبداء الاغتباط والابتهاج .

وما على المرء إن هو سمع نداء قلبي ، على الاخص اذا كان المنادي وطنه الحبيب .

لقد طرق سمعي هذا النداء منذ سنوات لا تقلّ عن سبع ، وكان المنادي اللبنانيُّ الأول ، بل بالأحرى المسؤول الاول في ذلك العهد عن كيان لبنان ومصيره ، ثم تكرّر بلسان مسؤولين آخرين .

لبنان ينادي ابناءه المنتشرين في كل صقع وتحت كل كوكب أنْ عودوا الى وطنكم الباسط ذراعيه لاعتناقكم وضمكم الى صدره الحنون

وكانت النداآت كلها عاطفية وعلى وتيرة واحدة متّفَق عليها .

لبنان يرحّب بأبنائه المغتربين دون ان يطمع منهم برفد او عون . إنه يريدهم أن يعودوا اليه بعد طول الغياب ومرير الكفاح ليتمتعوا في أرجائه ، سهلاً وجبلاً ، بالراحة المستأهَلة ويطفئوا بعودتهم شوقهم اليه وشوق إخوانهم المقيمين اليهم . إنه يريد قلوباً لا جيوباً .

ذلك أن لبنان لا يحتاج الى مال لانه ليس مديناً لأحد ، وموازناته السنوية المتتالية متعادلة الكفتين ولديه للطوارئ مالٌ احتياطيٌ فهو في مأمنٍ حاضراً ومستقبلاً .

اما النداء الاول الذي أشرت اليه فهو رسالة الرئيس السابق التي

حمل السفير الأول للبنان لدى الحكومة البرازيلية نسخةً منها ، وشاء صديقي الصناعيّ الكبير عزيز نادر ، الذي اشتهر بصدق وطنيته وأريحيته ، أن يعممها بنفقته فعهد إليّ بطبع خمسة آلاف نسخة منها لتوزيعها في جميع انحاء البرازيل ، فنضّدت حروفها بيديّ إذ لم اعثر في ذلك العهد على منضّد ذي كفاءة .

وبلغ من اقتناعي بصحة ما جاء فيها وتحمُّسي بسببها للعهد الوطنيّ الجديد ورجاله أني نظمت لحفلة استقبال السفير في النادي الرياضيّ اللبنانيّ ابياتاً كان من حسن حظي أنّ حالت موانع دون إلقائها في تلك الحفلة ، وأكتفي الآن بايراد بضعةٍ منها .

قالوا استقلّ فقلتُ شيء حاصلٌ ... ما كان تحليقُ النسورِ جديدا
لبنانُ في العهدِ القديم مسوّدٌ ... أيكونُ في العهد الجديد مسودا ؟
ما ذلّ إلاّ لـلاله تعبُّداً ... لا يُحسبُ المتعبّدون عبيدا
ابناؤهُ مثلَ النجوم تناثروا ... وغدَوا له خلفَ البحار جنودا

***

اما الرئيسُ فكلُّنا نشتاقهُ ... ومن القساوةِ أنْ يظلّ بعيدا
فقدومه هو للجميع « بشارةٌ » ... وأرى قدومَكمُ له تمهيدا
ومتى أتى «الخوريّ» أصبح «شيخنا» ... وله أقمنا كلّ يومٍ عيدا

ولكن اين تلك البشائر السارّة مما تتالى نشره في الصحف شهراً بعد شهر وعاماً بعد عام وكله مما ينفي ما جاء في تلك الرسالة المزيّفة التي شاءها الرئيس ان تكون طعماً جذّاباً

ولكنّ المطالبة بنت الاقتناع والاخلاص والثقة بطهارة الذيل ونقاء الصفحة ، لذلك رأينا حكومة العهد الجديد في سوريا لا تكتفي بمطالبة المهاجرين ببذل العون لوطنهم بل تنعى عليهم تقصيرَهم في أداء الواجب ، مع أنهم لم يكونوا يوماً من المقصّرين . وقد فعلَت ذلك بلسان وزرائها المفوّضين في بلدان المهجر قائلةً لمواطنيها إن هذا الوطن

لنا ولكم وعليكم نحوه ما علينا فعلامَ نخدمه نحن المقيمين وتتقاعدون انتم المغتربين عن نصرته .

وكم رأيت في لبنان من الأنانيين الجشعين الذين بعد أن ظفروا بثروات طائلة بفضل تواطؤهم مع حكومة جائرة على اكثرية شعبية كادحة في سبيل القوت اليوميّ باتوا لا يبالون بما يحلُّ بالبلاد وأهلها من ضيق وأزمات خانقة . وطالما سمعتهم يبارون الحكومة في تبجحها بأن لبنان في نعيم بفضل ما يعتمد عليه من الموارد غير المنظورة التي حيرّت الخبراء الاقتصاديين ، لانه وهو يُصدِر وشلاً من الضروريات ويستورد بحراً من الكماليات على اختلافها لا يبدو عليه شيء من ادلة العجز الماليّ . اما وهذا هو الظاهر فلا يهم الحكومة ولا الجشعين ولا الخبراء أن لا تكون حاجات تسعة اعشار الشعب الضرورية مؤمنة .

ولو لم يكن لصاحب الفخامة وحاشيته من الأبناء والاخوة والأعوان والمحاسيب نصيب كبير من هاتيك المبالغ الطائلة التي استجلبت بها هاتيك الكماليات التي تستنزف دم البلاد لكان الافضل أن توظّف في مشاريع إنشائية ، زراعية وصناعية وتعدينية ، تزيد الانتاج المحليّ وتُرخص الحاجيات بدلاً من إغلائها وإكراه الطبقات المتوسطة والعاملة والفقيرة على ابتياع الأصناف الضرورية المستجلبة بأسعار فاحشة ، او تجوع وتعرى . ناهيك بالأساليب الترويجية التي لجأ اليها الجشعون ليزيّنوا للشعب استنزاف المحفوظات والمقدّدات والأشربة والمرطبات الأجنبية ، وقد مازت الطبيعة الجوّادة بلاده بخير ما يؤكل ويُنتهل لو صحت النيات وتضافرت العزائم على إنتاجه بمقادير تفيض عن حاجته ، وأخص بالذكر الماء العذب المبذول . وفي متناوَل اليد مزجه بما يفضل الرحيق مما تنتجه بساتين لبنان من مستقطرات الأزهار وعصير الاثمار ، ويهيء تحضيره سبيل الارتزاق لالوف العاملين .

وصاحب الفخامة وأعوانه لا يجهلون أن عودة المغتربين لا تقل استحالةً عن استنزال النجوم من ابراجها ، ولكنهم اتخذوا النداآت العاطفية وسيلة بارعة لدغدغة عواطف النازحين واستدرار عطفهم على ذويهم فيوالون إغداق النقد النادر عليهم بمقادير اوفر تتسرَّب في النهاية الى ايدي المستوردين الذين يؤدون لهم الجزية عما يأذنون لهم باستيراده من الكماليات الكفيلة بزجّ البلاد بعد سنوات معدودة في وهدة الافلاس .

وإذن كان تبجح بعضهم بالموارد غير المنظورة من قبيل ذرّ الرماد في العيون ، إذ ما تلك الموارد المحكيّة في الواقع سوى المنظور الملموس من اموال المغتربين التي يُساء استعمالها فيزداد بها الاغنياء غنىً والفقراء فقراً ، دون استثناء أولئك الذين يتلقونها من ذويهم في المهاجر ، فمتى يخجل اصحاب السطوة والسلطان في لبنان من ذواتهم فيتورّعون عن ابتزاز اموال المهاجرين بهذا الأسلوب الشائن المنكر ؟

ولكن اذا هم لم يخجلوا او يرعووا فليعلموا أنهم بسلوكهم على هذا الشكل يمهدون لسقوطهم هم في الحفرة التي يحفرونها لاخوانهم المجاهدين عبر البحار ، لانهم وهم بمثابة احجار مزخرفة تتوّج البناء سينتهي امرهم بالسقوط من شاهق بانتزاعهم بأيديهم حجارة الأساس المتواضعة التي يقومون عليها . او هم اشبه شيء بمن يقف على غصن ويقطعه بيده من أصله . وما هاتيك الحجارة سوى الشبان الذين يأبون أن يهيئوا لهم سبيل العمل والانتاج ويُكرهونهم على هجر البلاد فلا يبقى فيها من يستطيع ان يستنزف مستورداتهم فتكسد ويحل بهم البوار .

وما الشبان الذين يهاجرون سوى الصفوة من اهل البلاد بشممهم وإبائهم وعلوّ همتهم . ولا يتخلّف فيها سوى العالات من خائري العزائم الوكلين المستجدين وظيفةً ولو إسميةً تدرُّ عليهم القوت الذي لا يستأهلونه . وبمثل هؤلاء تزداد البلاد فقراً وشقاء .

إن مورد الهجرة آخذ في التقلص تدريجاً بموت المسنّين ، ورهن الانقطاع التامّ بعد عشرين عاماً على الأكثر ، وإذ ذاك يصبح اغنياء اليوم في طليعة من يفتقرون بانقطاع ذلك المورد الذي يتسرّب الى جيوبهم بأساليبهم المتقدم ذكرها ، فسبيل لبنان إذن هو الاعتماد على نفسه واستغلال موارده الطبيعية الى ابعد حد ممكن ، حتى لا يبقى فيه شبر واحد غير مُستغَلّ . وقد لمست بمنتهى الارتياح والاغتباط ما يقوم به بعض الافراد في المناطق الجبلية التي تعلو عن سطح البحر زهاء تسعمئة متر ، وتصلح بفضل هذا السموق لزراعة التفاح ، فيحوّلون تلك المنحدَرات الى مدرّجات مسطحة تضمن استقرار الاغراس واستفادتها من التربة وماء الريّ فتنمو وتعطي خير الثمار . وليس افضل من ان تنشّط الحكومة هذا النوع من الزراعة وتعممه بتسليف المزارعين قروضاً بفائدة زهيدة طويلة الآجال وإعفائهم من الضرائب سنوات معدودة ريثما تزدهر مزروعاتهم وتغلّ .

بعد هذه المقدّمات انتقل الى موضوعيّ الرئيسيين وهما الانتاج وعون المغتربين :

الانتاج – القاعدة الاساسية للانتاج هي ان يكون على قدر الحاجة لانه اذا زاد فسدت الزيادة او كسدت وضاع ما أنفق في سبيلها من جهد ومال ، واذا نقص اورث النقص كارثة . ولنا على ضرر الزيادة امثلة صارخة ، منها إحراق مقادير هائلة من القطن في اميركا الشمالية والقمح في الارجنتين ، والبن في البرازيل ، والشبان في الحاضر كما في الماضي السحيق في لبنان . لذلك تحدّد الدوائر الزراعية الانتاج من كل صنف بمقدار يكفي للاستنزاف المحليّ وما يمكن إصداره الى الأسواق الأجنبية ، وتحتاط بكل الوسائل للحؤول دون النقص .

ويسري على البشر الحكم نفسه ولكن بصورة غير مدركة إذ لو هم أُعطوا الخيار لاختار كلٌّ منهم ، له اولبنيه ، أعلى المناصب ولاختلّ

التوازن بنقص الايدي التي تعمـــل وتنتج وتمارس مختلف المهن التي اصطلح الناس على اعتبارها دنيئة . ولكنّ القوة الخفيـة الحكيمة المدبرة تنقذ البشر من انفسهم وتكمل نقصهم بإعدادها القدر الكافي لكل مجتمع من الزرّاع والصنّاع والباعة والساقة والخدم والحمالين والزّبالين الخ .

اما الوسائل التي تعتمدها فمما يستنكره الناس لضعف مداركهم وقصر نظرهم وضيق أُفق تفكيرهم ، كأنْ يكون الوالد كسولاً او سكيراً اومقامراً او مُقعَـداً بحكم مرض او عاهـة فيعجز عن تعليم اولاده وتهذيبهم فينشأون مُعَدّين بطبيعتهم للاخذ بهاتيـــك المهن ، بينما أن البنين الذين يستطيع والدوهم تعليمهم وتهذيبهم ينتهي امرهم بالظفر بالشهادات العالية وتسنم المناصب الرفيعة ويكون منهم اصحاب المهن الحرة كالأطباء والصيادلة والمهندسين والمحامين وأصحاب المتاجر والمصانع والمزارع الخ .

وعندما يزيد او ينقص عدد اية فئة عن المقدار اللازم يختلُّ التوازن وتحدث الازمات فتسبب انحطاط الرفيع وارتفاع الوضيع ، تبعاً لمقدار الزيادة والنقص الحاصلَين

وإذن فبانتفاء عامل الاختيار ينتفي كلُّ مبرّر للمفاضلة بين الفئات المختلفة الآ بمقدار تجلية او تقصير كلٍّ من افرادها في القيام بواجبه وإحسانه او إساءته عمله . لان كل مجتمع لا يخرج عن كونه آلة متعددة القطع والاجزاء ، ولكلٍّ من اجزائها مهما جلّ او هان وظيفته ، وسيان تعطل او نقص ايٌّ منهـا على السواء اختلت الآلة بكاملها ووقفت عن الحركة والانتاج .

ونظراً الى كثرة عدد المتعلمين في لبنـان والتهافت البادي على تحصيل العلوم العملية على قلة ، والنظرية على كثرة ، فلا ندري لماذا لا تتدخل وزارة التربية لتحديد الانتاج من الصنفين للحؤول دون

صيرورة العلم كارثةً على البلاد ، وهو من الضرورة بمثابة النور والهواء والماء . ولكنّ الذي يضيره هو إساءة فهمه او استعماله إذ هو يولّد عند من يزدانون به من ابنائنا عكس المراد منه : إنه على ما رأيت وثبت لي يولّد فيهم صلفاً وكبرياء وترفعاً عن صنوف الاعمال ، اذا لم يتهيأ لهم ما يطمحون اليه من المراكز التي يعتبرونها رفيعة ، لان الذين يتولونها عندنا يسيؤون استعمالها ايضاً ، وفي طليعتها الوظائف الحكومية ، بينما الدوائر بأسرها تشكو التخمة والاكتظاظ . فإذا أصرّ المتعلم على شغل وظيفة تليق على زعمه بمقامه ، وإلا قعد عن العمل ، اصبح العلم لعنةً بدلاً من أن يكون بركةً ، وشراً على البلاد بدلاً من أن يكون خيراً .

وعلى مفاخرتنا بالاستقلال وإنكارنا على الاجانب حق التدخل في شؤوننا ، لماذا لا نعمد الى الاستقلال في الرأي فنتعهد احوالنا بالاصلاح تبعاً لوضعية بلادنا الخاصة والظروف الاستثنائية التي تحيط بنا ، بدلاً من أن نلجأ الى محاكاة من ليسوا في مثل حالنا . إذ رُبّ دواء افاد غيرنا كان ضاراً بنا .

او اذا نحن اصررنا على التقليد فعلامَ لا يقتدي المتعلمون منا بأندادهم في اوروبا وأميركا حيث يُعتبر العلم صقلاً وتكميلاً ، ولذلك يُطلب لذاته لا لما قد يؤدي اليه من ربح او خسارة ، فكم بينهم من حملة الشهادات العالية يعملون زرّاعاً وساقةً ونُدُلاً ، الى ما لا يقع تحت حصر من صنوف الاعمال . وهم المفضّلون لانهم بحكم ما تحلوا به من علم وتهذيب يحسنون كل عمل يقومون به اضعاف ما يحسنه الجهلة والسوقة ؟

وعلامَ ، ونحن في بلدِ الاشعاع ، لا نلجأ الى الابتكار غير آبهين لما يتقيد به سوانا من تقاليد وعادات ومصطلحات فنعمد — وبلادنا صغيرة لا تقوى على الدفاع ولا يحميها سوى الضمان الدوليّ ، كما هي

لا تصلح للاكتساح ولا هي تنويه – الى نوع آخر من التجنيد غير مألوف عند سوانا من الشعوب ، وأعني التجنيد الزراعيّ فنفرضه كما نفرض التجنيد العسكريّ على كل فتى بين السادسة عشرة والثامنة عشرة ، بعد أن يكون قد حصل على الشهادة الابتدائية ، فيعمل مدة ثلاث سنوات في مزارع نموذجية تنشئها الحكومة بدلاً من الثكن والمعسكرات فتفيد بها وتستفيد منها . وقد يألف بعض أولئك الفتيان العمل الزراعيّ ويستسيغونه فيثابرون عليه ، وتزداد البلاد به انتعاشاً وازدهاراً . وإذا هم عافوه بعدها ظلّ لديهم متسع من الوقت لاستئناف دروسهم والفوز بالشهادات العالية ، ولكنهم يكونون قد تعلموا الزراعة وألفوها فلا يعودون يستنكفون من تعاطيها اذا اضطرتهم الظروف ، بدلاً من ان يلجأوا الى الكسل والبطالة ؟

هذه خواطر عرضت لي على أمل أن يُنظر اليها بعين الاعتبار وتوضع موضع الدرس والمناقشة للتثبت من فائدتها وإمكان تنفيذها عملياً

عون المغتربين – إن عون المغتربين لأهلهم وذوي قرباهم في الوطن الاصليّ ، ، او استعانة هؤلاء بهم ، قديما عهد كالهجرة نفسها . فكان المغترب اذا ما ردّ اكلاف سفره التي كانت في المتوسط عشر ليرات انكليزية بدأ تبعاً لتحسن احواله يطالب نفسه او يطالبه ذووه بما يسد بعض الحاجات الدائمة او العارضة على قاعدة :

إنّ الكرامَ اذا ما ايسروا ذكروا من كان يألفهم في المنزل الخشن

وكانت اكلاف السفر يؤديها الآباء او بعض القادرين من الأنسباء، او تُستمدُّ اقتراضاً بكفالة او رهينة . ولكن كم اتفق لراغب في الهجرة أنْ لم يكن يملك مالاً او ليس لديه ما يُرهن او يُباع فاضطر الى رهن نفسه باقتراضه اكلاف السفر من مرابٍ جشع يغتنم فرصة حاجته لاستغلاله كما تُستغلُّ السوائم فيشترط عليه أنْ يشاطره ثمرة جهاده سنوات معلومة كشريك مضارب فأمضى له بذلك عهداً معزّزاً

بتواقيع الشهود . وقام جلُّ المقترضين على هذا الشكل بعهودهم ، إذ كانت الأمانة والوفاء في ذلك العهد لا يزالان من الحلى الخلقية التي لا يتنزّل عنها اصحابها بأيّ ثمن .

ومع الزمن أخذت الدائرة تتسع ، متناولةً اولاً الحاجات القروية كترميم الكنائس او تشييد المدارس او فتح الطرق . وكانت المطالبة في بادىء الامر تجري بالمكاتبة ، ولكن ، بفعل التقاعد احياناً من جهة المغتربين وتفاقم الحاجة عند المقيمين ، لم تعد هذه تفي بالغرض فراح المقيمون يأتمون بالقول المأثور : « ويفعل السيفُ ما لا يفعلُ القلمُ » ويشدُّون الرحال معتمدين على فعالية الحضرة والصوت الحيّ فيحسن المغتربون استقبالهم ويكرمون مثواهم ويعودون مزوّدين بالمقدار اللازم من المال وفوقه . ولكنّ الاستدرار لم يساوق ازدياد الدَرّ إذ في العقود الثلاثة الاخيرة أصبح الوشل بحراً ولكنّ المستقين ظلّوا مكتفين بالوشل لعدم حاجتهم محليّاً الى اكثر منه فكان يقتضي إذن أن تقوم في البلاد هيئات او منظمات تنشىء مشاريعَ أعمّ وأنفع يتسع بها النطاق ويصبح اوفر قابليةً للاستيعاب ، ولكن هذا ما لم يفطن اليه احد ، كما أنه لم تقم في البلاد حكومة واحدة تتنبه الى هذا الموضوع الخطير وتعيره ما يستأهله من الالتفات والاهتمام ، لذلك ظلّ كنز الهجرة الثمين مقفلاً . ونتج عن ذلك الاهمال الذريع أن المهاجرين انفسهم دانوه وراحوا يسجلون على المقيمين تقاعدهم وتقصيرهم ، كما يثبتون قابليتهم للدَرّ لو وُجد في البلاد مستدرُّونَ بما انبرى بعضهم لانشائه من المشاريع النافعة ؛ على ما تقدم من الامثلة .

اما ابلغ ما أثرته من ادلة عطف المغتربين على ذوي قرباهم في الوطن فهو أن إحدى نزيلات مأوى العجزة الذي أنشأته جمعية اليد البيضاء في سان باولو اقتصدت في غضون سنوات مئة ليرة من مرتب شهريٍّ استمدته لها من سيدة نبيلة كريمة ، وشاءت أن تبعث

بها معي لأخ لها في بيروت ، ثم حملتها لهفتها على اختيار شخص سبقني في القدوم ، وبقي لديّ عنوان اخيهـا الذي عثرت عليه آخراً بين محفوظاتي .

لقد فاتت لبنان فرصتان لاستعادة عدد كبير من المغتربين بأموالهم وخبرتهم : الواحدة على أثر انتهاء الحرب الكبرى الاولى وتولي فرنسا الانتداب عليه وعلى سوريا ، عندما أخذ الكثيرون بما اشتهر عن فرنسا من أنها محرِّرة الشعوب وواضعة شرعة حقوق الانسان فتوقعوا لوطنيهم في عهدها حياةَ عدلٍ وأمنٍ ورخاء وراحو يتأهبون للعودة ، حتى إن بعضهم صفى اشغاله فعلاً وعاد بثمرة جهاده ليستغلها في وطنه وبين اهله وذوي قرباه ومواطنيه ، ولكن لم تنقضِ على عودة الطليعة أسابيع معدودة حتى قفل العائدون الى المهجر نادمين على تسرعهم ، لا لِما حلّ بهم من خسارة او فاتهم من كسب بل لفقدانهم في وطنهم ما كانوا يتمتعون به في غربتهم من حرية وأمن وصون حقوق. وبطبيعة الحال اتعظ إخوانهم بمثلهم فوقف منهم من كان على أهبة اللحاق بهم عمليات التصفية واستأنفوا اشغالهم شاكرين الله على استفادتهم من تسرُّع سواهم .

وكانت الثانية عندما استقلّ البلدان وتولّت إدارة شؤونهما حكومتان وطنيتان ، فشُغل لبنان عن التمهيد لعودة مغتربيه بكل ما يزيدهم تشبُّثاً بمهاجرهم ، ولم يكن لبلوغ أمنيته في حاجة الى اكثر من إجراء العدالة وتوطيد الأمن وإحلال النظام محلّ الفوضى والحؤول دون هجرة المقيمين بتهيئته لهم سبل العمل والارتزاق ، وإلا استمرّ سيل الهجرة وكان استمراره نذيراً للمغتربين بسوء الحال والعقبى ومنفراً لهم من العودة ، فكيف وقد ثبت لهم أنّ من كانوا يدّعون الوطنية والاخلاص لم يكونوا يرمون من وراء مناوأة فرنسا والعمل على إجلائها عن البلاد الا الى الحلول مكانها وبدّها في سياسة الارهاق

والاستغلال؟ وقد احسن المغتربون هذه المرة إذ هم تعلموا من سابقتها فلم يتسرّعوا ولم يغالوا في تفاؤلهم، وكانت نتيجة تريُّثهم المحمود أنهم أدركوا بعد زمن قصير أن الانقلاب كان إسمياً ولم يجرِ التبديل الا شكلياً.

ولكنّ انقطاع امل المغتربين من العودة إلا مستجمّين او منتجعين لم يُنسهم واجبهم نحو وطنهم فراحوا يوسّعـــون دائرة غوثهم له، منبرين من تلقاء ذواتهم لانشاء مشاريع نافعة تتكافأ وما اصبحوا عليه من بسطة ورخاء، إنْ كان في سوريا ام في لبنان، على ما تقدم بيانه.

على ان المشاريـع الفردية التي قـام ويقوم بهـــا افاضل المغتربين وكرامهم لا تعدو، على جسامتها بالنسبة الى نبل العاطفة التي اوحتها وتوحيها، أنْ تكون علالاتٍ او سواقيَ مبعثرة لا يترتب عليهـا كبير فائدة. فلكي تأتي بالفائدة المطلوبة يجب تحويلها الى مجرى واحد يتدفق فيروي ويندفع فيحرّك ويولّد.

إن الحاجة الى مشاريع حيوية يشترك في إنشائها اكبر عدد ممكن من المغتربين، ولو بمبالغ زهيدة بالنسبة الى ثروتهم الضخمـة، فتحصل من هذا التعـاون المنظم فوائد ذات شأن وخطر في ترقية البـــلاد وإنعاش اقتصادياتها وانتشالهـا من الوهدة التي زجهـا فيهـــا الافراد الأنانيون الجشعون.

لقد فاق اللبنانيون العزّل الانكليزَ بفتحهم السلميّ والتوسع فيه الى اقصى حدٍّ ممكن، ولـكنّ هؤلاء عرفوا بفضل التنظيم وإحسان الادارة كيف يستفيدون من ملحقاتهم عبرَ البحار واستبقاء سيطرتهم عليها، وعجزنا نحن عن الاحتفاظ بأيٍّ منها وأصبحت على وشك أن تخرج من ايدينا الى الابد ونصبح كأننا ما فتحنا ولا غنمنا.

وبينا هم انقضت على فتوحاتهم قرون عديدة ولا يزالون محتفظين بجلّ ذلك الملك الواسع نرانا نحن على وشك ان نُضيع جميع ممتلكاتنا

نهائياً في اقل من قرن واحد . فهل رأى الانانيون الذين تولوا الحكم اية كارثة انزلوها بوطنهم ؟

ولا عبرة بالثروات التي جنوها ما دام جشعهم قد أدى الى سقوطهم ونبذهم ، فالمال لا يفي بفقدان الكرامة ومصيره الى الزوال ، ولكن العار الذي لبسوه لا يُمحى . وما أصدق ما قاله الفيلسوف بايكون : « إن أسوأ الأحياء حظاً هو ذاك الذي يمشي في جنازة صيته » . ولهان الامر لو انه اقتصر على الاستغلال غير المشروع ، فالمال معوّض ولكن المصاب الاكبر والأدهى هو أن سياسة الفساد التي اعتمدوها انتقلت بالمثل والقدوة والعدوى والضرورة الى الشعب بأسره فانحطت الاخلاق وانعدم التهذيب الاجتماعي وتحوّل معظم السكان الى وحوش ضارية لفقدان كل منهم ثقته حتى بأخيه واعتقاده انه إذا ظل حملاً كان نصيبه الافتراس ، وأن سبيله الوحيد هو ان يكون ذئباً مفترساً .

إن للبنان في الخارج ملكاً يفوقه سعة ألف ضعف ، وثروة تجعله نسبياً أغنى بلدان العالم ، دون استثناء الولايات المتحدة الاميركية . فما اعظم غبنه لانه لم يستطع أن يستفيد من هذا الخضم العظيم الا رذاذاً لا ينعش فضلاً عن أن يطفىء عطشاً . ولكن إذا كان قد فاته جل هذه الثروة الفلكية فلا يزال لديه مجال لاستفادة بعضها ، ولكن للفوز بهذا البعض شروطاً اذا عمل بها ضمن كيانه الى الابد وإلا ظل عرضة للأحداث .

ولبنان في وضع خاص يختلف عن سواه من جميع الاقطار العربية إذ في خارجه ما يقرب من عدد المقيمين من سكانه . ومهما بلغ من اغترار المقيمين بما وقع لهم من ارباح طائلة بسبب ظرف عارض إبان الحرب العظمى الاخيرة وما غنموه بفضلها من اموال وأرزاق وعتاد عندما جُن جنون المحاربين فباتوا لا يعرفون للمال قيمة ولا يحسبون له حساباً وراحوا يُغرقون البلدان الفقيرة المحتلة بجميع

مقوّمات العيش يحسبونها هباء . ذلك لان مصير كل ذلك الى الزوال، فكل ما لا يُنبع ينفد ، والعمدة على الموارد الدائمة الثابتة ، وهذه تنقص عن الحاجة في زمن الاستقرار . كما أنه قد ثبت تبخُّر احتياطيّ الحرب وبدأ العجز يظهر في الموازنة ، برغم التبجح المعهود بالموارد غير المنظورة .

ومن يدقق في الأمور ولا يؤخذ بالأوهام يرَ ويشعر ويلمس اليأس والضراوة البادين في سلوك سواد السكان على اختلاف طبقاتهم : من باعة وتجار وصناع وزرّاع وملاّكين وفندقيين وسوّاقين ، فإنهم لا يرَون في المقيمين من إخوانهم سوى عظام او ذئاب مثلهم لذلك يحصرون همهم في افتراس الحملان القادمين من الخارج ويغالون ما استطاعوا في استغلالهم ، وهذا طبعاً ينفّر الزائر ويحمله على إطلاق لسانه عند عودته فينفّر بدوره سواه من القدوم .

ولا يكفي أن يلوّح المقيمون للمغتربين بجمال لبنان وجودة هوائه وعذوبة مائه و كثرة وسائل التمتع في ربوعه ، فهذه كلها من هبات الطبيعة لا من صنع أيديهم . وكل ما يستطيعونه هو أن يُديلوا من محاسنها ويحوّلوها الى قبح ويمرّروا حلاوتها بالوسائل التي تقدم ذكرها فلا يعود يستسيغها احد .

والواقع هو أنّ امل لبنان الوحيد ومستنده الاكيد اصبح ثروته في الخارج ، وهو ثروة قارونية لا اقول بإمكان نقلها لانه مستحيل إذ هي صارت او صائرة بعد قليل الى ايدي اعقابهم الأجانب عنهم ، ولكنّ الممكن هو اغتنام بعضها من اصحابها ما داموا في قيد الحياة، لا هبةً لكي تبدّد كما بُدّد سواها مما كسبه لبنان في الظرف الاستثنائيّ الذي تقدم ذكره، بل لتوظّف في مشاريع حيوية توجد موارد وتهيء عملاً لألوف العاطلين وتحول دون هجرتهم . والذي أقول به هو الاعتدال الى اقصى حدوده لان الطمع بالاكثر يُفقد الأقلّ . ويجب

أن يكون اعتماد لبنان على كياسته ولباقته وحذق وبراعة ممثليه في الخارج فيحملون المغتربين على المساهمة في هاتيك المشاريع، ولكن بعد ان تؤلّف للقيام بها شركة وطنيـــة تدعو المغتربين الى الانخراط في سلكها والمساهمة في تسييرها وإدارتها وتوجيهها ، وتقوم على اساس اقتصاديّ بحت يهدف الى الانتاج الذي يعود بالنفع على البلاد ويفي بالجهد ورأس المال . وتظلّ أسهم المغتربين إرثاً لأولادهم فلا يكون ارتباطهم بوطن آبائهم عاطفيّاً فقط ، بل نفعيّاً ايضاً ، وبذلك يصبح من مصلحتهم إيثار لبنـان كمنتجَع فيتمتعون فيه وفي الوقت نفسه يتعهّدون العمل الذي هم بعض اصحابه . وهذا هو المعقول والمضمون والدائم ولا يحتاج الى دعوة وتشويق وإقناع . وليكن اسم الشركة: « الشركة الوطنية للزراعة والصناعة والتعدين » .

والذي أقدَم وفتح وكسب بجدّه واجتهاده ثروةً يتركها لأعقابه لا يُعقل ان يُستكثر عليه ، لا من جهة اولاده ولا من جهة حكومة البلاد التي جمع ثروته فيها ، الحقُّ بأن يوظّف في وطنه الاصليّ الذي زوّده برأس المال من واحد الى عشرة بالمئة منها يستغله في وطنه ويخلّفه فيها لورثته .

فاذا كانت إدارة الشركة منظمة ونزيهة وحكيمة تتضاءل امامها النقطة الرابعـــة بقيود وشروط وتسخير لأغراض وتعريض لحروب تذهب برأس المال والغلة .

ولو جعلنا رأس مال الشركة خمسمئة مليون يساهم في توظيفها مناصفةً المغتربون،والمقيمون شعباً وحكومةً، في مدى عشر سنوات، لمـا كنا البتة مغالين . وهذا التحديد راجع الى مراعاة حالة المقيمين ، إذ لو اقتصر الامر على المغتربين لاستطاعوا وحدهم تغطية هذه القيمة بواحد في المئـــة فقط من رؤوس اموالهم الضخمة . ولكنّ الشرط الاساسيّ هو أن يحصل المغتربون على الضمانات الثابتة الوافية لأنّ اي

مموّل ، وإن لم يكن يهدف الى الكسب ، يهمه أن لا يذهب ماله ضياعاً دون أن يفيد سواه ، إذ ليس من يزرع إلا على نية الحصاد ، حتى في حقل الاحسان المجرّد ، وإلا زهد في الاحسان وفضّل عليه تحجّر العاطفة .

ولا يحول دون قيام هذا المشروع الحيويّ الانقاذيّ ونجاحه سوى ما اشتهر من إحجام القادرين من المقيمين عن كل ما يحتاج الى وطنية وإيثار وتضحية ، مؤثرين الاساليب الانتهازية الاستغلالية المعهودة . وقد أعجبني الدواء الذي وصفه احد الحكماء الخبيرين لهذه الزّمانة وهو سنُّ تشريع يستند الى حكم الضرورة يفرض على القادرين المساهمة القسريّة بما لا يقل عن خمسة وسبعين في المئة من ارباحهم السنوية ، ولنا في ذلك أسوةٌ بالانكليز والاميركان الذين ابلغوا الضريبة الحربية على الارباح الفاحشة زهاء تسعين بالمئة . ويظلُّ الغنيُّ اللبنانيُّ بالنسبة الى ندّه الانكليزيّ او الاميركيّ افضل حالاً ومآلا بما لا يُقاس ، إذ بينما يُنفَق ما يؤدّيه هذان في الاستعدادات الحربية ويُفقَد نهائياً يُقيّد ما يؤديه هو باسمه ويُستغَلُّ لحسابه .

لقد حصل في لبنان انقلابٌ يبشر بخير عميم للبلاد فالرئيس الجديد من الذين صفت نياتهم وحسن قصدهم ووضحت نزاهتهم ، وقد بدأ بعملية التطهير بتؤدة وحكمة وأحسن اختيار اعوانه ، والمأمول أنْ يثابر على خطته الحكيمة هذه فتتجدّد مدة رئاسته وهكذا يستمرُّ الاستقرار الزمنَ الكافي لتنفيذ كل امانيه الصالحة بحيث يألف متولو الاحكام والشعب برمته أسلوب الحكم الجديد القويم فلا تكون لهم رجعة الى القديم .

وعلى هذا أدعو ذوي العلم والاختصاص والاختبار والمقدرة المالية من إخواني اللبنانيين الى درس هذا المشروع بدقة ورويّة ورسم خطة له تضمن نجاحه فيحققون لوطنهم العزيز الجميل ما يصبو اليه من منعة

ورخاء وتوطيد كيان ، ويحول دون الهجرة البغيضة .

هذا هو العمل البنائيُّ الجدي الذي أعرضه على النخبة المثقفة الواعية النزيهة المخلصة من اهل بلادي .

وسبيل الحكومة الجديدة بعد ترميم ما تهدّم وتقويم ما تعوّج وإصلاح ما فسد أن تعتمد سياسة بنائية قائمة على التنظيم والاقتصاد وحسن التدبير ، إقالةً للبلاد من عثارها والسير بها قُدُماً في معارج الرقيّ والفلاح . وبهذا كله توحي الثقة للمغتربين فيركنوا اليها ويولوها ثقتهم ويهرعون الى التعاون معها وتلبية مطالبها العادلة لكي تبلغ بوطنهم العزيز الى الذروة التي يريدونها له . وهذا بمثابة رسالة الفاظها اعمال مشهودة وملموسة تزري بكل العبارات المعسولة والنداآت العاطفية التي اصبحت لكثرتها وكذب معظمها كالنداء على الذئب .

ولا ريب في أن المورد الحقيقيّ المنظور ، الذي يسمى تضليلاً او تجاهلاً غير منظور ، هو ما يبعث به المغتربون الى ذويهم ، او ما ينفقه المصطافون من النقد النادر الآخذ في التناقص من سوريا ومصر ، والمتزايد من الأردن والعراق والمملكة السعودية والكويت ، والقليل حتى الآن ، وهو رهن التزايد ، من المهاجر الاميركية متى اطمأن المغتربون الى وجود العدالة والأمن والنظام في وطنهم العزيز لبنان ، مع تشجيعهم وتيسير الانتجاع لهم بمختلف اساليب التذييع والتشويق والاقناع .

ولما كان مورد الهجرة آخذاً في التضاؤل ، ومصيره الى الانقطاع التامّ في مدى عشرين عاماً على الاكثر ، كان من الحكمة وسداد الرأي الاحتياط للكارثة قبل وقوعها فيعمد لبنان منذ اليوم الى سياسة الاقتصاد والتعويل على النفس ، نافياً من ذهنه وجود هذا المورد غير المنظور وينصرف بكليته لتحقيق الخطة التي تقدّم ذكرها ، مهيّئاً بها لنفسه من موارده الخاصة ما يكفيه

وأيُّ ضير من كل هذا، ولو صحَّ رأي المتشائمين فلم يتم المشروع التعاونيّ الذي أشرت اليه؟ إنه لا يمكن ان يُنتج الا الخير، على غرار ما حدث لأولئك الشبان الثلاثة الذين اوصاهم والدهم المحتضَر بالاحتفار على كنز ثمين في الحقل الذي اورثهم اياه فراحوا يحرثونه ويقلبون ارضه حتى ازدادت غلته اضعافاً فكانت هذه الكنز الموعود.

وقد تتحقق الآمال ويصيب لبنان يوماً الحظ الذي اصاب البلاد السعودية والكويت فيتدفق البترول في سحمر ويحمر تدفُّقَه فيهما ويصبح في مقدور رئيسنا اذا أمَّهما يوماً ان يتكرَّم فيهما تكرُّمَ سموّ وليّ العهد السعوديّ عندما أمّ لبنان زائراً وكان في وقتٍ معاً الضيف والمضيف الكريم. وهكذا تنقلب الآية ويصبح اغنى المغتربين افقر الى لبنان منه اليهم، وهذا ما نؤثره ونتمناه لوطننا الحبيب.

ولما كان المدى الذي حددته لنضوب المورد من المغتربين يمثّل ثلاث دورات، وخاب الأمل في التجديد، فالمأمول ان تكون الدورة الحالية الصالحة نموذجاً للحكومتين اللتين تليان بعدها الحكم فتتألف كلٌّ منهما من نخبة صالحة من اصحاب الاهلية والنزاهة والوجدان السليم وتستأنف خطة سابقتها فتعلي البناء حتى يبلغ التمام.

ويأتي بعد الحكام من حيث المسؤولية الموظفون الذين يجب أن يضعوا نصب اعينهم المصلحة العامة ليستديموا عملهم وانتفاعهم لان إهمالهم وتهاونهم يؤديان قطعاً الى ازدياد عددهم وبقاء مرتباتهم على حالها، بحيث لا تعود تفي بحاجتهم. كما هو حاصل وملموس اليوم.

ثم يأتي دور الأنانيين الجشعين فيكفُّوا عن المغالاة في الاستغلال لانه مؤدٍّ قطعاً الى إنهاك قوى المستنزفين فتتناقص مواردهم وينتهي امرها الى النضوب التامّ.

وبعد هؤلاء جميعاً يأتي دور الافراد من سائر الطبقات فيعتبر كلٌّ منهم مسؤوليته كعضو في جسم المجتمع لا يُجيز لنفسه المطالبة بحق قبل

ان يسبق هو الى القيام بالواجب المفروض عليه ، والذي اذا قصر في تأديته أثر تقصيره في سواه ، وعلى التوالي يتسلل الخلل الى سائر الجسم فيُقضى عليه هو كعضوٍ فيه .

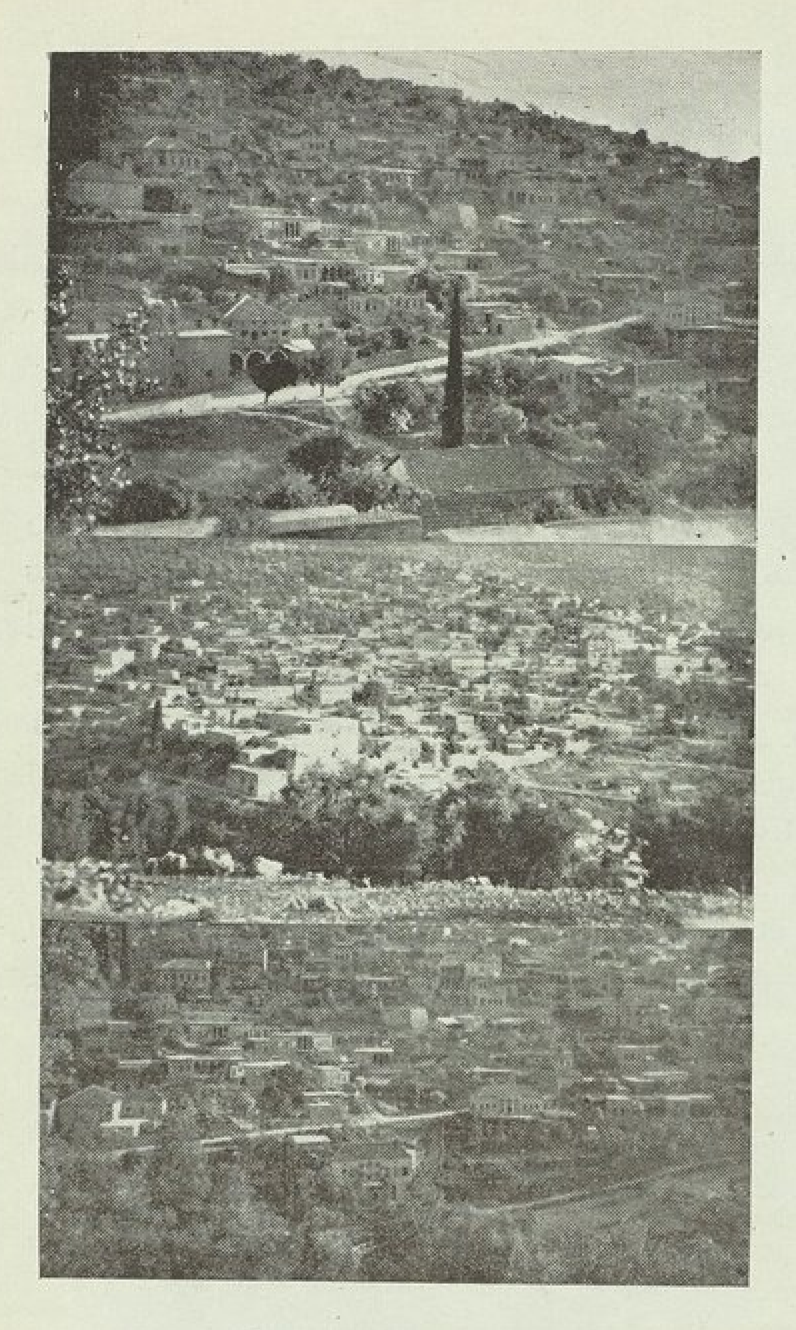
كلُّنا مسؤولون – لقد قلت في الرئيس السابق وأعوانه كل ما اوحاه اليَّ وجداني وواجبي الوطنيّ ، غيرَ أنَّ هناك حقيقةً لا أريد أن أتجاهلها وأودُّ ألاّ يجهلها أحد وهي أنه لا يشرّف ايَّ شعب أن يُشهّر حاكماً استبدَّ به طيلة سنوات ، إذ هو بذلك يعترف ضمناً أنه كان مطيةً ذلولاً ركبها ذلك الحاكم الى اغراضه الشخصية وأعمل في شاكلتيها مهاميزه وألهب قذالها بسوطه ، بدلاً من ان يكون حسب السنّة خادمها المطيع ومنفّذ أغراضها وراعي مصالحها ، فهو مهما بلغ من القوة والسلطان فردٌ ضعيف بالنسبة الى مجموع الامة ، لم يبلغ مأربه منها الا لتخاذل وأنانية كل افرادها،خنوعاً او ممالأةً او انتفاعاً، ورحم الله القائل :

ظلمُ الرعية كالعقاب لجهلها ألمُ المريض عقوبة الاهمالِ

والبرهان على ذلك أنها عندما اتحدت وأجمعت رأيها طوّحت به واستعادت حريتها .

الكيان اللبناني – يجب ان يكون دستور الايمان عندنا المحافظة على هذا الكيان ولو كان بالشكل المخزي الذي كان عليه في العهد الأخير ، وقد قلت فيه ما لم يقل مثله عدوٌ . ولكن هذا لا يعني أني أستسيغ ايَّ تدخُّل اجنبيّ، فما من شخص ، مهما يكن مريضاً مشفياً، يرضى بأن يستبدل شخصيته ؟

اما الخارجون عن هذا الكيان ويتطوّعون لابداء الرأي او التدخُّل فيجب أن يرتدعوا ويخجلوا من ذواتهم لان كل اقتراح يبدونه بهذا الصدد لا يخرج عن كونه قحةً وسماجةً ، إذ خير لايِّ جسم الموت من ان تكون صحته وحياته مستعارتين من سواه .



(ثلاثة مشاهد رائعة من حاصبيا منبت الأجداد)

حقوق المرأة

لقد سرّني ظفر المرأة اللبنانية بحقوقها السياسية بفضل إصغاء حكومة الانقلاب لنداء الحق والواجب واستجابتها لهذا المطلب العادل، وهو اعتبار المرأة عضواً عاملاً في جسم الأمة بحيث يحق لها ان تنتخب وتُنتخَب ، ولكنها حصرت هذا الحق بحاملات الشهادة الابتدائية على الاقلّ ، منكرةً إياه على الأميات . ولكنّ الذي عِبته على متزعمات هذه الحركة المباركة في لبنان ، والتي انتصرت بفضل جهادهنّ ومثابرتهن ، هو سلبيتهن في مطالبتهن لاخواتهن الأميات بمثل حق المثقفات ، أسوةً بالأميين من الرجال المتاح لهم حق التصويت ، بدلاً من الموقف الايجابيّ المنتظر منهن وهو مطالبة الحكومة بمساواتهن بالرجال في حرمانها الأميين منهم ايضاً من حق الانتخاب . غيرَ أن حملتهن الصادقة حققت مطلبهن هذا فأصبح للأمية حق الأميّ ، فعسى أن ينجم عنه الخير المطلوب .

وكانت فاتحة الخير الاولى لهذا المسعى الذي تكلل بالنجاح تعيين الحكومة عضواتٍ ثلاث في المجلس البلديّ هنّ : ابتهاج قدُورة ولور ثابت وألِن ريحان . ذلك أن المرأة ادقُ شعوراً من الرجل وأرغب في التجميل والتنظيم والتكميل ، وليست عرضةً للمساومة والاستنزال والتفريط بحق الامانة .

بقي أن تبرهن المرأة اللبنانية بصورة عملية على استيهالها هذا الحق

بقيامها بما يرتّبه عليها من واجب ، ويجد الفريق العامل المدرك من النساء الذي انتصر على الحكومة ، بفضل جهاده ومثابرته على المطالبة بحق المرأة المشروع ، نصرةً من الفريق الاكبر المتقاعد اللامبالي المنصرف الى كلّ ما يضرُّ به وبمصلحة بلاده ، وإلا كان شرًّا عليه من الحكومة السابقة التي حالت دون فوز نساء لبنان بذلك الحق ، سواء كنّ مثقّفات ام أميات .

وأنا وإن تأخرت عن زميلي الكريم جرجي نقولا باز الذي اشتهر بانتصاره للمرأة ، لا أقِلُّ عنه إيماناً بها بدليل أني عندما اطّلعت على كتاب الذكريات الذي اصدرته الأديبة المعروفة سلمى صائغ في سان باولو كتبت اليها اقول : « قرأت كتابكِ فآمنتُ بالنساء وكفرت بالرجال » . وقد أثرتُ بالاختبار الشخصيّ في المهاجر الثلاثة : البرازيل والارجنتين وتشيلي ، ومهاجر أخرى بالسماع ، كلّ ما زادني اعتقاداً بقدرة نسائنا وتفانيهن . وقد طالما غبطتهنّ ونوّهت بفضلهن لِما قمن به من المشاريع الانسانية التي اخفق فيها الرجال إخفاقهم في توطيد دعائم السلام في العالم ، وأصبح الأمل في كل ما يعود على البشرية بالخير معقوداً على النساء ، اذا أفسح لهنّ الرجال المجال .

ويكفيني لاثبات قولي هذا الابياتُ التالية التي ودّعت بها في مطار سان باولو السيدة الثقيفة المجاهدة سلوى خوري قرينة صديقي الصناعيّ نسيب ميخائيل محفوظ عند ما قامت منذ عامين برحلة الى لبنان وسوريا وهي :

سيري بأمنٍ فعينُ الله ترعاكِ ... يامَن مسحتِ دموع البائس الباكي
فيكِ الفضيلة والتقوى نجلّهما ... ليرحم اللهُ من للخير ربّاكِ
بنتاً وأختاً وزوجاً كنت صالحةً ... وامتزتِ أمّاً فمن يحصي سجاياكِ
سيري وبُثي بذورَ الخير في وطن ... له حقوقٌ علينا فهو أنشاكِ
وفي غيابكِ لا « سلوى » تخامرنا ... وطيب عهدك « محفوظٌ » كذكراكِ

واذا تجاوزنا عن التسمية والتعيين فمن دواعي سروري واغتباطي

آنه برغم تيار المدنية الزائفة الذي جرف الكثيرات من سيداتنا في المهاجر لا يزال لدينا عددٌ كبير من اللواتي أستطيع ان أسجل لهن شرف المقاومة والثبات في معاقلهن المنيعة بحيث يصحُّ ان توجَّه الابيات المتقدمة الى كلٍّ منهن ، كما سرَّني ان اجد في لبنان الذي طغى فيه ذلك السيل اضعاف طغيانه في المهاجر عدداً كبيراً من امثال من ذكرت . وإني واثقٌ من أنه لا يسوء السيدة سلوى البتة ازدياد عدد ندّاتها اللواتي يستأهلن ان تُقال في كلٍّ منهن تلك الأبيات التي قيلت فيها لانها لو انفردت باستيهالها لأصبحت كالطير المهيض الجناح واستحال عليها تنفيذ نياتها الصالحة .

وخير دليل على كفاءة المرأة اللبنانية ومقدرتها على الادارة والتنظيم أن جامعة الهيئات النسائية تنضوي تحت لوائها ثنتان وتسعون جمعية مختلفة المقاصد والأهداف .

لقد تهيأ لي بفضل الاخت ابتهاج قدُّورة أن احضر اجتماعاً في منزلها العامر كنت فيه الرجل الوحيد بين زهاء مئة سيدة وآنسة من زهرات مجتمعنا البيروتيّ في مختلف المضامير المشرّفة ، عقدته احتفاء بالسيدة امينة السعيد المبرّزة في مضمار الثقافة والتحرير والتوجيه في مصر ، والتي لا تحتاج الى تعريف فيها ولا في ايّ قطر عربيّ آخر .

لقد كانت فرصة نادرة لم يتهيّأ لي مثلها عمري ، أُتيح لي فيها التحدُّث الى عدد كبير من ارقى سيداتنا ثقافةً وتهذيباً وتفكيراً ، كالسيدة حنينة الطرشا المجاهدة منذ عشرات السنين في ترقية شأن المرأة في لبنان وإحدى دعائم مجلة صوت المرأة ، لسان حال تلك النخبة الصالحة من سيداتنا ، وندّتها وصديقتها الطبيبة جمال كرم حرفوش والمربية القديرة الآنسة زاهية قدُّورة ، وأضرابهن في مضامير الثقافة والتهذيب والاحسان

وفي ذلك الاجتماع الراقي اطمأننت على لبنان ومستقبله وخرجت منه اوفر ثقةً بالمرأة اللبنانية وتغنياً بفضائلها .

الصحافة في لبنان

أيُّ شيء في هذا الوجود يكثر ولا تقلُّ قيمته بنسبة فيضه عن الحاجة ؟ حتى إنَّ الصحف ، على جلالة قدرها ، غير مستثناة من هذا الحكم .

وليس الكساد مردوداً الى الكثرة بل هو يتناول النوع ايضاً ، بدليل أن بعض الصحف المصرية يصادف رواجاً كبيراً في لبنان ، حتى إن جريدة الأهرام ، على غلاء ثمنها ، تبلغ الى اصغر قراه ودساكره .

لا أنكر أن في لبنان صحفا ذات قيمة ولكن الكثرة تتخم فتصيرُ الشهيَّ نفسه تافهاً . فكيف وجلُّ اعمدتها تشغله الاخبار الخارجية والداخلية المتكرِّرة ، وفي هذا ما فيه من بعثرة القوى والتبذير والاسآم . فحبَّذا الادماجُ الطوعيُّ بعد ان ندَّدَت بعض الصحف بحكومة الانقلاب عندما لوَّحت بعزمها على فرضه بمرسوم اشتراعيّ .

ولا بد من استثناء الجرائد الحزبية التي نبذُّ بعددها اعظم بلدان الارض ، ففي روسيا حزبٌ واحد وفي كلٍّ من إنكلترا واميركا حزبان

وأؤكد للزملاء أن جريدةً واحدةً مستوفيةَ الشروط من حيث الحجم والمادة يُقبل عليها المغتربون مهما يكن بدل اشتراكها السنوي لأنها وإن صدرت بستَّ عشرة صفحة تغنيهم عن عشر صحف لا يفضُّون غلافها لِما تقدَّم من الاسباب ، بينما هي لا تكلف مصدِريها اكثر مما تنفقه الصحف العشر مجتمعة .

التربية الوطنية

نعيت في ما سبق على كثرة من اهل لبنان تكلّمهم باللغات الاجنبية ، وبنوع خاص" اللغة الفرنسوية ، وأعود الآن الى هذا الموضوع بشيء من الاسهاب :

أريد أن أُسلّم بالأمر الواقع فأعترف بأننا قد استُدرجنا بمختلف الاسباب والعوامل الى تقليد الغربيين ، ولكن علامَ ، وقد أصبح هذا لسوء الحظ ديدَننا ، لا نقلّدهم في الحرص على لغاتهم وصيانتها من كل عبث ؟

ويبرّر مطالبتي هذه كوننا اصبحنا مستقلين في ادارة شؤوننا وعندنا وزارة تربية مسؤولة في الدرجـــة الأولى عن اللغة وسلامتها وتعميمها وفرض تعليمها للنشء . فلبنان عربيٌّ بحكم انضوائه تحت لواء الجامعة العربية فكيف يصحُّ والحالة هذه ان يكون بلغته مالطيّاً ؟

والذي لحظته هو أن بعض اللبنانيين قد تفرنسوا الى حدّ ان يرَوا في تكلم العربية سبّة" تدعو الى الخجل ولكنّ الأكثرية المعوّل عليها تجنح الى الفرنسوية او الانكليزية لعجزها عن التعبير المحكَم بلغة البلاد والأجداد ، والتبعة في هذا العجز تقع على أعضاء المجامع اللغوية التي أنشئت في مختلف الاقطار العربية لعدم إيجادهم الاوضاع للمستحدثات فأبقوا اللغة في حـالة جمود وعجز عن التأدية الصحيحة . وتأتي بعـد المجامع وزارات التربية والمعاهد العلمية على اختلافها . وأخيراً تقع التبعة

على الآباء الذين لا ينشّؤون اولادهم في حداثتهم على حب اللغة فيقتصرون في مخاطبتهم عليها حتى ترسخ في اذهانهم وتتمكن فيها ، فاذا جاء دور البناء في المدرسة قام على اساس متين ثابت . ومتى حذق التلميذ لغته هان عليه تعلمُ وحذْق اية لغة سواها ، وفي وقت قصير .

الى كل ما تقدّم لا يجوز ان نغفل هذه الحقيقة وهي أننا اصبحنا في عصر كثرت فيه الموادُ التي لا بدّ من تدريسها ويجب ان نفسح لها مجالاً ، لا باهمال لغتنا او وضعها في مقام ثانويّ ، بل بتبسيط قواعدها والاقتصار على الضروريّ اللازب من مفرداتها وتعابيرها .

والاصلاح المطلوب لا يتمُّ في يوم او عام ولكن يكفينا الآن أن نتنبه ونبدأ بالعمل ، « وكل من سار على الدرب وصل ». ولا تفوتني الصعوبة التي تقوم في وجه وزارة التربية بإزاء المعاهد الأجنبية التي لا نستطيع الاستغناء عنها حاضراً نظراً الى ضعفنا ، حتى ليُخيَّل إليّ أننا من هذه الجهة في مثل موقف الشحاذ الذي لا يحق له ان يشارط . فلنبدأ على الاقلّ بمدارسها فنفرض تعليم الأحداث مبادىء العلوم كلها باللغة العربية حتى سن الثانية عشرة ونتدرّج في ذلك حتى يأتي يوم ترغم فيه المعاهد الاجنبية على الرضوخ لمساقها التربويّ هذا تحت الرقابة الوطنية المشدّدة ، كما هو جارٍ في البرازيل منذ أعوام ، حيث لا يُسمح بتعليم الأحداث اية لغة اجنبية قبل ان يبلغوا الثانية عشرة .

ومن أدلة الاستهتار الشائع التغاضي عن عبث الأفراد الى حد ان يعلقوا لافتات بخطوط انيقة جميلة كالتي تلي ، دون اية مراقبة او محاسبة او إكراه على احترام لغة البلاد :

مؤشش كراسي . المعهد الرقص . محل تطريز اليدويّ . مصبغة السويسرانية . هذه امثلة قليلة من مئات ولكنها تكفي لان تُخجل وتحفز الى العمل لكي يرتدع امثال هؤلاء العابثين .

الادب في لبنان

لقد كان الادب بمعناه في جملة ما جنى عليه الحكم الوطنيُّ الذي كان مفروضاً أن يزدهرَ الأدبُ في عهده اضعافَ ازدهاره في عهد الانتداب ، فلا بدعَ إذن أن نبكي من هذه الجهة على ما بكينا منه . لقد دفن فؤاد حبيش «المكشوف» وأحلَّ مكانه مؤسسة للطباعة والنشر ، وانصرف كرم ملحم كرم ، أخصبُ دماغٍ في لبنان واغزرُ قلم إنتاجاً ، الى تأليف الروايات الخيالية ، وغاص سواهما من الأدباء المجلّين في خضمّ السياسة ، كما غاص الشعراء البارزون في لجّ من اليأس وراحوا يتحينون المناسبات التي تدرُّ . وهكذا تحوّل الأدب عندنا من ادب نفوس الى ادب بطون .

ولم يسلم ادب المجالس نفسه من مثل هذا المصير الكئيب . وقد حاولت عبثاً إحياءه فاستعنت بصديقين أديبين كريمين هما البير الريحاني والطبيب وليم نعمة ، وتوفقنا الى عقد عدة جلسات في منزليهما العامرَين ضمت عدداً كبيراً من خيرة الأدباء والاديبات ونخبة من الشعراء . واذا استثنينا إلقاء بعض المنظومات القديمة ورواية بعض النكات المأثورة لم ينبثق من هاتيك القرائح الخصبة النيّرة أدب .

اما القليل الذي ظفرت به بفضل الصدف والسوانح العارضة فأثبته في ما يلي من الصفحات تبعاً لمواقيته :

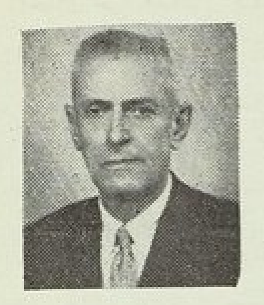
مجنونان

بلفظه

وبفقره



احمد الصافي النجفي



المؤلف

كنا ذات ليلةٍ نسمر في احد القصور اللبنانية في سان باولو فخطر لي أن أرسمَ للحضور في ذلك النعيم صورةً من جحيم احترق بناره قديماً الشاعرُ البغداديُّ ابو الشمقمق فحلّق في وصفه في سماء الاجادة بقوله :

انا في حالٍ تعالى اللهُ ربي أيَّ حال
ليس لي شيءٌ اذا قيل لمن ذا ؟ قلت ذا لي
ولقد أفلستُ حتى صحَّ أكلي لعيالي

فالأبيات التالية في وصف مسكنه :

برزتُ من المنازلِ والقبابِ فلم يعسر على احدٍ حجابي
فمنزليَ الفضاء وسقفُ بيتي سماء الله او قِطعُ السحاب
فانت اذا اردت دخلت بيتي عليَّ مسلّماً من غير باب
لأني لم أجد مصراع بابٍ يكون من السحاب الى التراب

فأشاع التباين الهائل بين الصورتين العيانية والذهنية المرح والضحك بين الحضور إذ كانت النار التي صهرت نفس ذلك الشاعر ، وسبكتها في هاتيك الأبيات ، برداً وسلاماً عليهم وهم في ذلك النعيم .

وما خطر لي قط بعد ذلك الحادث العارض أن التقي يوماً بأبي

شمقمق آخر حي متقمص شخصية ذلك الشاعر الذي طواه اللحد منذ اجيال حتى قذفتني الأقدار الى بيروت والتقيت في مكتب الصديق البير الريحاني بالشاعر البغدادي ايضاً احمد الصافي النجفي فحسبته وقد دخل علينا بزيّه البدوي الساذج ذا حاجة مجهولاً ولكن سرعان ما خاب حدسي إذ ما كاد مزوري الكريم يتبينه حتى وقف له إجلالاً وأجرى بيننا التعارف المألوف فتصافحنا وجلس هو على المقعد طاوياً ساقيه بعدان حرر قدميه العاريتين من نعليه .

واستهلت حديثي معه بذكر ابيات له كنت قد عثرت عليها في عُرض مطالعاتي فأعجبتني وحفظتها لانها صورت لي شاعراً صنواً لي في العزوف عن المادة ، إلا ما قات منها وستر وأظلّ ، مع مراعاة الفرق الكبير بين ارستوقراطيتي الظاهرة وشعبيته بحيث خجلت أمامه من نفسي ، لذلك أنست اليه ورحبت به وراح واسطة العقد يراقب حركاتنا ويصغي الى ما نقول جذلاً مغتبطاً ، كما يروق لعاقل أن يرى مجنونين يتبادلان الآراء . اما تلك الابيات فهي :

يا قوم مالي مشكلٌ معكم	لقد اقتسمنا وانتهى الامرُ
لكمُ الثمار تباعُ رابحةً	وليَ المروج الخضر والزهر
ولكم سفائنكم محمّلةً	في البحر ماخرةً ، ولي البحر
والقصرُ لي منه مناظرهُ	ولكم اثاث القصر والقصر
ولكم مدينتكم وما ضمنت	وليَ النسيم الحلو والعطر
ألروح لي ، فخذوا الجسوم لكم	دنيا كمُ لكمُ ، ولي الشعر

ورحت كلما رسمت صورةً نثرية مني تعرب عن حقيقتي وآرائي ومبادئي يأتيني فوراً من منظومه بمثلها شعراً سلساً رقراقاً لا تعقيد فيه ولا تعاظل ولا إبهام ، حتى أزف وقت الانصراف فأراد زميلنا أنْ يهيء لنا جلسة اطول في جو شعري لنستأنف حديثنا ونستوفيه فكان لنا ذلك بفضله بعد يومين في الفريكة في منزله المطل على الوادي الموحي

وشيء آخر كنت أفتش عنه وهو شاعر صادق ، وقد وجدته في الصافي المجنون لان الكذب أداته العقل ، لذلك كان والجنون ضدّين لا يلتقيان . فالصافي مرآة تعكس الأشياء كما هي دون اية حيطة او حذر او خشية ، ائتماماً منه بقول حكيم رواه لي عن لسان جعفر الصادق ، وهو :

« من تعوّد ان لا يكذب رزقه الله حدْساً صائباً ورؤيا صادقة »

وسألته لماذا لا يتقيد بعاداتِ المجتمع فأجابني :

أأتّبع العاداتِ وهيَ زخارفُ
وما زلت بين الناس اسعى لرفعِها
ولست بعــادات الانام مقيّــداً
لأنيَ ما شاركتهم يومَ وضعها

وعندما عرضت عليه العنوان السابق أنشد من نظمه :

في الكون مجنونانِ : ذاك لعبقرٍ يُنمى وذا لا يدرك الأشياء
هـذا يُديرِ العاقلون جنونه وجنون ذاك يدبّر العقلاء

وهو لا ينظم متعمّلًا ولا مكلّفاً ولو في حضرة ملك ، وقد ينظم ديواناً في أيام ولا ينظم بيتاً في سنوات . ومن اقواله في ذلك :

لا أطيق النظم إنْ شئتُ وإنْ اجهدت فكري
إنْ بركان شعوري إنْ يَهِجْ يقذِفْ بشعري

وأوردت التحديد التالي للأديب تبعاً لمفهومي من الأدب :

« الأديب كائن يهدف الى الجمال والكمال في كل فن ومطلب . يرضى من المادة بالكفاف ويترفّع عن الشكوى ما دام في هــذا الكون كادح أجدر بها منه . وبينما هو يرى نفسه من جسم البشرية في موضع القدم لا يرى — لاستغنائه — من هو اكبر منه » ، فأنشدني :

لا أرى اكبرَ مني لا أرى منيَ اصغر
إنْ أجدْ اكبر مني واحداً فالله اكبر !

وكان قد اهدى إليَّ اثنين من دواوينه العديـــدة قابلته على اثر مطالعتهما فأعربت له عن استحساني لكلّ ما قرأته . ولكن على جزالة شعره وسواغته ثبت لي انه وزّع الروائع التي كان قد القاها في سمعي على جميع دواوينه فليته يجمعها في ديوان واحد برسم المغتربين فيمتعهم ويضمن الرواج والدرّ فأبى لأنه لا يراعي في ما ينظمه اذواق الناس ومفاهيمهم المتباينة ، ويعتقد أن منهم من يُقبلون على ما قد يعدُّه بعضهم تافهاً ، فلا يجوز أن يكون نصيب أولئك منه الحرمان

والحقُ يُقال إن شعر الصافي لا يُشبَع منه ولا يُملُّ فقد ضمتني ذاتَ ليلةٍ والبير الريحاني وزوجه الراقية جلسة في منزلها العامر كان مطربنا ونديمنا الوحيد فيها ديوانه «التيّار» الذي اجتزناه من الضفة الى الضفة فرُوينا من الراح دون أن يُطفأ لنا ظمأ الى ابياته الملاح .

وهو لا يقبل هبة اياً كان مصدرها ، فاذا تورّع لأمر عن ردّها حوّلها لمؤسسة خيرية . وقد تبرعت له وزارة المعارف العراقية بطبع بعض دواوينه فقدّم لها من النسخ ما يعادل رأس المال واكتفى زهداً منه باجتناء الفائدة .

هذا هو الصافي : نفس من دُرّ في جسم من صدف ، او هو منها في مِهرجان ومن مظهره في مأتم . ويبدو قدرُه لنفسه وحرصه على كرامتها في البيتين التاليين :

هذي الأمانة قد عييت بحملها ... إنَّ النفوس أمانة الخلاّقِ
أوصلتها لِليوم وهي سليمةٌ ... أأعافها عند القليل الباقي ؟

وقد طلبت منه رسمه فتردد بحجة أنه لا يريد أن ينكب قرّائي ، ثم لانَ ولكنه عاد آسفاً لفقدانه الرسم الوحيد الذي يصلح للنشر ، فاستعنت عليه بالريحاني وكان أن أخذناه يوماً على غرّة وفزنا بالرسم المنشور .

وهو أنوف عيوف الى الحد الذي عبر عنه بهذين البيتين :

اذا الأرض بي ضاقت سموتُ عن الأرضِ
وأرفضُ خفض العيش إذ يقتضي خفضي
وآكل من نفسي إذا افتقرت يـدي
وهيهـات يوم الجوع آكل من عِرضي

اما أروع ما وصف به نفسه فهو في رأيي الابيات التالية بعنوان : « اكلُ الحرام » :

يممتُ مثلَ ذوي الخلاعة حانةً ... ووضعت أقداح المدام أمامي
قرّبتها مني وإنْ لم أحسُها ... حتى أشوّهَ سمعتي ومقـامي
حتى مَ أعبـد سمعةً وهميةً ... فكأنها صنم من الاصنام
حطمتها من بعد ما شوّهتها ... فخرجت من دنيا من الأوهام
وغدوت حرّاً مثل قومي عائثاً ... لمـا صبغت الصيت بالآثام
أمعنت في نقل المدام تعدّياً ... لم أرع للصهباء حقّ ذمـام
وأكلت نقلاً كان حقاً للطلى ... هذا ، وحقّ الراح ، أكلُ حرام
وخجلت من إبريق خمر مُمتلٍ ... يرنو إليّ ، ومن فراغ الجام
ظمئت كؤوس القوم حيناً وارتوت ... حيناً ، وجامي طول ليلى ظام
فسقيت كأسي جرعةً ومزجتها ... حتى أُغالطَ أعينَ الخدّام
ترنو الى عيني عيون حبـابها ... شزراً ويمعن عطرهـا بملامي
كم أنّبتني اكؤسي في صمتها ... ورمت إليّ بقـارصات كلام
ولكم جلت لي نورها لتنيرَ لي ... قلبي وأغرت عطرهـا بمشامي
فبقيت ارمقهـا بطرف جامدٍ ... والكأس تدعوني بقلب دام
فكأنّ بنت الكرم مني زوّجت ... هرِماً حكى هرَماً من الأهرام
والناس حيناً يضحكون تعجُّباً ... مني وحيناً من جمود مدامي
يتهامسون علامَ جئتُ لحانهم ... أوَ مـا نهتني جبتي وحزامي
هـذا يقول لخلّه ذا مُتّقٍ ... فيجيبه بل ذا من الأنعام
أنظرهُ أفنى نقـله فكأنه ... سكّير نقلٍ او صريع طعام

كُفِّرتُ بين الشاربين وقبل ذا كُفِّرتُ بين مشايخ الاسلام
عُفت الذين قدِ اتَّقوا لقيودهم فاذا قيود الشاربين أمامي
ألكلُّ منهم عابدٌ عاداتهِ تالله تلك عبـادة الاصنام
أنىّ ارى حريةً ضيّعتهـا طالت عـليَّ سياحة الاقوام

ومن روائع صراحته وتعاليله :

عندي عيوبٌ بنفسي سوف أظهرها لأنّ إخفاءها مكرٌ وتدجيلُ
والعيب يجدر أنْ يبدو ليعرفهُ كلُّ الأنام فلا يعروه تضليل
إني وإنْ كنت في جهلٍ له صغرت نفسي فأجهل مني العصر والجيل
بعوضةٌ انا في الدنيا، وحين أرى بعض الورى فكأني بينهم فيـل

والبيتان التاليان ادق وأصدق تعبيراً :

ألا كاملٌ في الناس يبدو به نقصي فقدغرّني بالنفس،بين الورى فحصي
يلوح كمالي حين فحصي لجيرتي ويبدو لنفسي، حين اخلوبها، نقصي

وفي قدْره لشعره وإنصافه لسواه :

إذا راقني شعرٌ تراني مردِّداً له منعشاً روحي به والنواديا
ارى شعرَ غيري شعرَ نفسي متى يرقْ وأبرأ من شعري اذا لم يرُقْ ليا

وتبدو إنسانيته في الأبيات التالية بعنوان : « ملاك وشيطان » :

عجبت للناسِ يُدعى كلُّهم بشراً وذا ملاكٌ وذا يبدو كشيطانِ
هـذا يرقُّ لذي بؤسٍ فيطعمهُ وذاك يسلب خبزَ البائس العاني
أحاول السبَّ للانسان من رجلٍ مؤذٍ، فيسكتني إحسان إنسانِ
حتى حسبت،وفعلُ الناسِ مختلفٌ، إحسانَ ذلك تكفيراً عن الثاني

ومن اطرف المواضيع العالمية التي تناولها « القنبلة الذرية » :

يا ذرةً لبنـاء الكون ناسفةً هل تستطيعين نسف الحرص والطمع
قد انفجرت فزلزلت الوجود بنا هلاّ انفجرتِ لنا في رأس مخترع
فكُّ الكهارب من دنياك مُحكمةً اخفُّ من فكِّ ما في النفس من جشع
ياذرةَ العقل في دنيا الورى انفجري وحطِّمي عـالم الأوهام والبدع

هذي قيامتنا الصغرى قد ابتدأت ... فهل قيامتنا الكبرى على التبع
عجبت للعقل من سرّ الآله دنا ... والخلق ما زال خلق النمر والضبُع
رام المغفلُ أسراراً محجبةً ... والحزم يزجره عنها وليس يعي
لم يكشف السرَّ حتى نابه ندمٌ ... وراح يصفق غبناً، كفٌ منخدع
يروم للسر إرجاعاً لمنبعه ... والعلم بالسر شيءٌ غيرُ مرتجع
لا غروَ أن تُهلكَ الانسان تجربةٌ ... فإنه كأبيه، عادم الورَع

وما كادت تولد القنبلة الهدروجينية حتى ولّدت لشاعرنا موضوعاً جديداً فقال :

أليس من حدٍّ لسخف البشر ... فعلمهم القاهمُ في سقَر
حسبكَ برهاناً على سُخفهم ... قنابلٌ من هدروجينٍ وذر
قد أُعطيَ العقلُ لهم هادياً ... فجُنَّ هذا العقل حتى انتحر

ثمّ شاء أن يختصر وصف نكبة العالم بالعلم فقال :

ماذا يفيدك بعد اليوم يا بشرُ ... إن كنت بالعلم لا بالجهل تنتحرُ

وقال في السرعة التي اصبحت اليوم داء العالم العُقام :

ايها العالم المجدُّ سريعاً ... قف بمقدار ما تعي ما اقولُ
انت تعدو، فهل امامك قصدٌ ... هل وراء الوصول إلا الوصولُ

وقال في مشكلة الروح تجاه المادة الطاغيه بعنوان « المسيح في نيويورك » :

انا والعصرُ قد تعاكست سيراً ... فكأني أعيش في عصر نوحِ
انا أسمو في عالم الروح دوماً ... في زمانٍ لم يعترف بالروح
فكأني المسيحُ حلَّ بنيويوركَ ... فماذا يكون حالُ المسيح ؟

وكان يوماً يفتش عن غرفة في بيروت او إحدى ضواحيها فأقلّته آنسة على سيارتها الخاصة وراحت تمنّيه بغرفة تخصه بها من منزل تبنيه في رأس بيروت، تتواءم بناء وأثاثاً وروحه الشعرية، تبعاً لتصميم مرسوم في فكرها، فقال فوراً :

قالت سأبني غداً بيتاً تقيم بهِ معي ، هو َ اليوم مبنيٌ بافكاري
فقلت : حسبي َ أني اليوم أسكنهُ بيتاً بفكركِ لا بيتاً باحجارِ

ومما يشرّفه ويشرّفني أنه استنسب البيت الاخير كما أثبتُّه بعد أن كان قد رواه ونشره كما يلي :

فقلت حسبي َ أني اليوم َ اسكن في بيتٍ بفكركِ لا بيتٍ باحجار

وبصر يوماً في احد شوارع دمشق بطفلة اجمل من دمية علم ان اسمها « سلمى » فوصفها بهذين البيتين :

سلمى الى الحورِ تُنمى في وجهها الحسنُ تمّا
لو عاد « مجنونُ ليلى » لصار « مجنونَ سلمى »

وكتب عنه أمين الريحاني فصلاً جميلاً مسهباً في كتابه « قلب العراق » ، ولم يطق صبراً ريثما ينجز الكتاب فغلّف الملزمة التي تحتوي ذلك الفصل وأنفذها اليه الى دمشق معنونةً كما يلي :

« الى الذي يشرّف « مقهى الكمال » ويغنيه بغير المال — الى احمد الصافي النجفي المحترم في كل حال » .

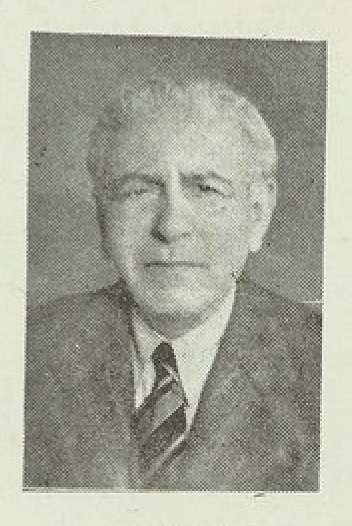
ومما يصح ان يُسمى « شعر آخر ساعة » ، الابيات التالية التي نظمها صباح الخميس الواقع في ٤ حزيران سنة ١٩٥٣ :

مبعثرةٌ جميعُ الكتب عندي قدِ انتشرت كعائلتي بداري
تعيش بغرفتي متنقّلاتٍ فليست تستقرُ على قرار
وكتبُ المترفين مجلّداتٌ تعيش غريبةً عيشَ الاسار
محرّمةٌ على انظار قاري مهيأةٌ لجاهٍ وافتخار
مثبّتةٌ كجزءٍ من جدارِ منسّقةٌ كأحجارِ الجدار
غدَتْ موؤودةً في مكتباتٍ فقد بُليَتْ منَ الموتى بجار

هذا ما اكتفيت به لضيق مجالي لا لنضوب مَعينه أختتمه بقولي له:

بروحي انتَ يا صافي لأنتَ الموردُ الصافي
وانت الدرُّ مكنوناً بأسمالٍ كأصدافِ

بلبل يرثي اخاه



نقولا فياض



خليل مطران

في جلسة ثنائيـة ضمتني والصديق الطبيب والشاعر نقولا فياض ، وهو الدرّة الوحيدة الباقية من ذلك العقد النضيد الذي سبق لي ذكره، القى عليّ من محفوظاته القصيدة التالية التي صدّرها بهذه المقدّمة المقتضبة:

« وكانت الحكومة اللبنانية تنوي إقامة تمثال لخليل مطران في ساحة الاونسكو فدعا وزير المعارف ، وكان يومئذٍ رئيف ابي اللمع ، بعض الأدباء الى داره وتباحثوا في الامر وأجمعوا على إقامة الحفلة والتمثال بعد شهرين ، ووقع الاختيار على ستة منهم للخطابة نثراً وشعراً فأعدّ الناظم هـذه القصيدة ، غير أن الوقت مضى ولا خبر من الحكومـة فاذا الحفلة لا تُقام ولا تِمثال ولا كلام . وبقيت القصيدة مدفونة »

ولرؤيتي في هذه القصيدة أثراً يفوق التمثال قيمةً وأبقى لذكر الفقيد الغالي الذي قيلت فيه خُيِّل اليّ أنّ موعد بعثها قد حان فابتززتها من الناظم لأنشرها في هذا الكتاب كخير كنز ادبيّ عثرت عليه في لبنان

قلْ للبنان ما جفاك الخليلُ فخليلٌ يروي ثراه النيلُ
كوّنته الحياةُ منك ومنهُ فاستوى الأرزُ عنده والنخيل
وهوَ اليوم حيث شاء فلا يُحرم قطرٌ ولا يُعاف قبيل
غلب الوقت والمكان وأضحى في ذرى المشرقين روحاً تجول
تتمشى النجوم بين قوافيهِ ويسري بها النسيم العليل
شاعرٌ أسبغ الشباب على الشعر فكان الجديدُ في ما يقول
كان في خاطر العروبة فكراً شقَّ عنه حجابها المسدول
فجلاها آيات نورٍ ونارٍ وعلى كل آيةٍ تنزيل
ذاهباً بالقريض كلَّ سبيلٍ عزَّ فيما مضى اليه السبيل
حاملاً مشعل الهدى في دروبٍ ضاع فيها الهدى وضلَّ الدليل
وطلولٍ يبكي عليها سواهُ ويُغنّي لها فتحيا الطلول
باعثاً من رقادها هِمماً أخنى عليها خنوعها والخمول
شاهراً حربه على كلِّ بغيٍ تقصر الحرب دونه ويطول
وبيمناه من سلاح الليالي قلمٌ كالحسام ماضٍ صقيل
طالما ألهب النفوسَ زئيرٌ منه او أطرب النهى ترتيل
يا لخمر البيان من شعر مطران وفيها التحريم والتحليل
فتعبُّ العقولُ منها ولكنْ مثلها قلّما تصبُّ العقول

فتنةُ الأرضِ يا يراع فزدني فتنةٌ في السما لها تهليل
وأطِلْ في الحديث عنها فلا كان يراعٌ في وصفها لا يُطيل
تلك أخلاقه وأيُّ فتىً في الناسِ يحبوك ما حباك الخليل
خصّهُ الله بالعفاف وبالزُّهد وبالودِّ ثابتاً لا يحول
وحنانٍ على الضعيف فلا يبلى رجاءٌ ولا يُخيَّبُ سول
وهب الناس وقته وقواه وكفاه شحوبه والنحول
يجذب الناس كلَّ يومٍ اليه حبُّهُ الناسَ والسخاء الخجول
وحديثٌ يمرُّ بالأذن كالسحر ويمشي في اللبِّ وهوَ شمول

وله من تواضع النفس ما يرخص معه المديح والتبجيل
يرسل الخالدات وهو صموت لا ادّعاء بها ولا « تدليل »
ومن الناس مَنْ اذا قال بيتاً سبقتـه زموره والطبول

يا هزار الوادي نزلت عليه من رُبى بعلبك نعم النزيل
عيّد المسلمون قبل النصارى لك لمّا دعـاهمُ اليوبيل
ورأينا كيف الوفاء على الارضِ يغذّيه فتية وكهول

يا خليلي هـذا رثاؤك لا إغراق مني فيه ولا تضليل
لا بحارٌ غيضت ولا دُكّ طودٌ لا ولا آن من ذُكاء الأفول
غير أنّ الخمائل الخضر أقوت من أمير الغناء فهي ثكول
وضلوع القيثار حُطّم فيها وترٌ قد يعزُّ منه البديل
وجنود الأخلاق ، يا ويح للأخلاق ، أودى عريفها المأمول
شُقّت لبنان والفراق قصيرٌ كيف يسلوك والفراق طويل
لا تظنّ الرحيل يقصيك عنه ليس يقوى على القوافي الرحيل
فهي في سمعه وفي ناظريه نغمٌ ساحرٌ وضوءٌ جميـل
وهي تحت الشفاه اعذب ما يُروى فيُروي منها النهى سلسبيل
أوحشت عرشها جبابرة التاريخ فاليوم عرشك المشغول
انت كالكوكب البعيد تزولُ النار منه ونورهُ لا يزول
يمسح الأفقَ والقرون ومنهُ يتلقّى الضياء جيلٌ فجيلٌ

إيهِ لبنانُ ما ذكرتك إلا هزّني الوجد والفؤاد عليل
لم تشأ أن يغيبَ وجهُ كريمٍ عن مغانيك ، والكرام قليل
فأقمت التمثال ذكرى لأمسٍ يتغنى بـه الغدُ المجهول
حاملاً للشباب رمزاً جميلاً يلتقي المجدُ عنده والجميل
انت يا مَنبتِ العباقرة الاحرار والدولة التي لا تدول
فيك للخلد الف معنىً ومعنىً قبل أنْ ينحت الصفا الازميل
حفظَ اللهُ للجمال مغانيكَ وظلُّ الأديب فيها ظليل

نموذج مهجري
من ادب الرقاعة

استجابة لاقتراح من
احمد الصافي النجفي

وليمة أحذية

لو قلتُ ، على المجاز ، إنّ السادة رزق ، قازان وشركاه يأكلون الأحذية ويشربونها لاستهجن الناس قولي . ولو كان هؤلاء السادة اصحاب مصنع قبّعات مثلاً لما استهجنوه . ومستند المستهجنين طبعاً هو أنّ القبعات محترمة لأنها لباس الرؤوس ، والاحذية محتقرة لأنها لباس الارجل ، في حين أنّ من الرؤوس مـا هو مقرُّ قذارة تستنكف منها الاحذية نفسها . وإذا نحن راعينا الاهمية كان التفوّق نصيب الارجل ايضاً لان الذي يفقد رأسه لا يتألم البتة في حين أنّ من يفقد رجليه يقضي حياته متألماً . وعلى هذا اقول بكل جُرأة إن رزق ، قازان وشركاه لا يأكلون الاحذية ويشربونها فقط بل هم يُطعمونها ويسقونها سواهم ايضاً ، وبسخاء حاتميّ ، مخالفين ذلك الامير الشحيح الذي قيل فيه :

أميرٌ يأكلُ الفالوذَ سِرّاً ويُطعم ضيفه خبزَ الشعير

بعد هذه المقدّمة المقتضبة أقول :

لناصر شاتيلا صاحب جريدة المجد هوّز عليّ حقوق لا أنكرها ، بسبب خدمات سابقة لا اجحدها . ولما كان لا حقّ بلا واجب رأيت ان لا اعود من رحلتي الاخيرة الى الريو عاصمة الفن والجمال بيد فارغة لان المثل يقول : « اليد الفارغة مجوّية » . ولكانت المهمة هينة لو أنّ الهدية لناصر نفسه ، إذن لأتيته بطاسة من الشعر المستعار يستر بها صلعته وانتهى الامر . على أنها اصعب من ذلك بما لا يُقاس لعلمي

الأكيد أنّ ناصراً غيريٌ نزيه يأبى هديةً لنفسه ويؤثرها أن تكون لقرّائه . فالهدية اذن يجب أن تكون لأبجد هوّز لا لصاحبها ، ومن اين لي بهدية تليق بصحيفة الفكاهة والمجون المستحب في محيطنا هذا وأدباء الريو وشعراؤها ابعد الناس عن ولوج هذا المضمار ، فهم إما كسول متقاعد ينظم في العام كلّه بيتاً او يكتب سطراً ، والشهوانيُّ الذي لا يتغزّل الا بجمال الحسان ولا يصف الا الاثدية والأفخاذ والأعكان ، والصوفيُّ الذي يعيش على الارض ويسبح في السماء ، فمن اين تأتي الفكاهة وليس من ينزع الى الدعابة والمعابثة اللتين تنبُوان بالقرائح عن مواطن الجد وتغريانها بابتداع النكتة ؟ ولكن أخيراً خدمتني الأقدار على شكل لم يكن في الحسبان واستنزلتُ للمضمار حتى اصعب أدباء الريو مراساً وهو صديقي الشاعر نعمة قازان شريك العنوان المشهور : « رزق ، قازان وشركاه » لصنع أسبق الاحذية في مضمار السير كميةً وشكلاً ونوعاً . وكان هو الجاني على نفسه دون ان يدري إذ هو أبى يوماً إلا اصطحابي الى المصنع برفقة بعض اعضاء الوفود التي قدمت الى العاصمة من سان باولو للاشتراك في احتفال مهيب . ذلك أننا ما أنهينا دورتنا في المصنع مهللين للذكاء والاقدام ومعجبين بكل ما تقع عليه العين من ادلة النظام والترتيب والاتقان وعدنا الى المستودع الرحب المكتظّ بنتاج ذلك المصنع الهائل حيث قمنا بما رتبه علينا الواجب من الثناء والتهنئات الحارّة وخير التمنّيات حتى هبط صديقنا الشاعر من جوّ الالهام الذي يسبح ابداً فيه ويعود منه بالخرائد الحسان وراح ينظر الى أقدامنا نظرة الصناعي الحاذق والمضيف الكريم . وعلى الأثر اخذ يسأل كلاً منا عن قياس قدميه فادركنا قصده واحتججنا ، على الطريقة الشرقية ، بالاكتفاء والرغبة عن التثقيل ، وكان احتجاجنا طبعاً من اللسان ، ولكنه أصرّ فانصعنا واخترنا من الأحذية اجودها وأمتنها .

واذ ذاك بدرت من مضيفنا عبارة كانت نواة هذا المقال وعنوانه دون أن يخطر له في بال أنه سيستنزل الى مضمار هو ابعد الناس عن خوضه، وهي : « إن ثمن هذه الاحذية يفيض عن اكلاف وليمة فاخرة » . وللحال اغتنمت تلك السانحة وافتتحت سوق النكتة بقولي بلسانه من معلقته التي « ملأت الدنيا وشغلت الناس » :

كلوا يا فراخي ، كلوا وانعموا فانَّ أباكمُ في نعمةِ

وعقبت عليه بقولي بلسانه البيتين التاليين موجهين إليَّ :

لو كان يُهدى الى الانسان قيمته لكنتُ أهدي لك الدنيا وما فيها
لكن حذوتك هذا النعل معتقداً أن الهدايا على مقدار مُهديها

وقد قلتها مقتبساً ومستنداً الى قوله هو في معلقته ايضاً :

يا رُبَّ معنىً عملتُ به وكان لغيري غدا عملي

فجاراني هو في هذا الاستناد تلطُّفاً وأجاب قائلًا :

لقد اهديتُ توفيقاً حذاء فقال الحاسدون وما عليهِ
أما قال الفتى العربيُ يوماً شبيهُ الشكلِ منجذبٌ اليه

وفاضت قريحته فقال ، لا فُضَّ فوه :

لوكان شعري كشعر البعض احذيةً لكنت املأ هذا الكونَ اشعارا
لكنَّ شعري مساميرٌ « مبشّمةٌ » أودعتها في رؤوس الناس أسرارا

وهاجت قريحة الرفيق انطون سليم سعد فكلفني النظم بلسانه فقلت :

رآني نعمةٌ أمشي الهوَينا مخافةَ ان أجور على مداسي
فقال إليك يا هذا حذاء فقلت القيد من شرِّ المآسي
ولكنْ انت جوّادٌ فعذراً رضيت به على عيني وراسي

وغار الرفيق ميشال جبور الخوري الخطيب المعروف فنظمت بلسانه ايضاً :

عجبتُ لشاعرٍ يُهدي حذاء لملقي الدُرِّ من فوق الكراسي
حذاء ساءني ان احتذيهِ مخافةَ ان يقصّرَ عن قياسي

ولكنْ حينَ سرتُ به اختيالاً رفعتُ به على الاقران راسي

وعدنا الى المدينة بمحمولنا من تلك الاحذية المغذّية للقرائح فذاع الخبر وتعالت شكوى الرفاق والأدباء الذين حرموا من مثل تلك النعمة فأرضينا الرفيق فريد ابو موسى بما حضر من محل إبرهيم سعد وأخيه سليمان الذي يتغذّى من مصنع غاندي فطرب وتلعثم على غير عادته بعبارات الشكر فقلت فيه :

فريدٌ نال إنعاماً فريداً حذاء صنع «غاندي» لايبارى
وإذ لبس الحذاء غدا طروباً وعند الشكر عربد كالسكارى
فقلت لنعمة ذا السكرُ عكساً فرأسُ فريدنا في الرِجل صارا

وادّعى الأديب اديب سعادة حقّ الزمالة وطلب المساواة ، وكنا في المقهى المجاور وقد أُقفل المحل فلم نستطع تلبيته فأمضّه الجوع وقال بلهجة الملسوع :

وقفت ابكي على حظي وقد لمعت انوارُ احذيةٍ في ارجلِ الخُطَبا
فقلتُ يا نعمةٌ اخطأتِ ذا أدبٍ مُني علـيٌّ وإلاّ أهجرُ الأدبا

فأجابه الاديب والشاعر عفيف الأشقر ، وقد اخطأه الحذاء ايضاً ، بلهجة المشارك المؤاسي :

يا زميلي الكريمَ في الحرمانِ نحنُ كنا فريسةَ النسيانِ
فعزاء فاننا مثلُ « غاندي » ولنا الفخرُ أننا حافيانِ
نحتذي المجدَ إن يفتنا احتذاء ولنا الأرضُ والسما كسوتانِ

وعطف مشيراً اليّ ومُبطناً الحسد :

رأيتُ توفيقَ يمشي مِشيةَ البطلِ فقلت ماذا ؟ فقالوا فازَ بالأمل
قد نال نعمةَ ربّ الشعر مغتبطاً أعني حذاء بـه يعلو على زُحَلِ

فأجبته فوراً :

يقولُ صحبي هنيئاً يا أخا ادبٍ هذا الحذاء مُغذّ كلّ ذي سغبِ
فقلتُ مهلاً فهذي « نعمةٌ » حصلت هيا احسدوني على «رزق» بلا تعبِ

وشكا في اليوم التالي الاديب انطون شكور الحرمان يصيبه من حديقه الحميم نعمة فقلت :

يقولُ انطونُ والأيام مُدبرَةٌ ... ما كان نعمة بالتقصير معذورا
لو أنه كلفيفِ القوم عاملني ... لقلتُ قولاً غدا في الناس مشهورا
أنا شكورٌ ولكنْ حين شكلني ... بشدَّةٍ نعمةٌ أصبحتُ «شكورا»

والتقينا الشاعر نسيم الخوري فقال معاتباً نعمة :

أُخبرتُ نعمةُ جوَّادٌ بأحذيةٍ ... يا طالما غذَّتِ الافرنج والعربا
وقد رأيتُ ضيوفاً يخطرون بها ... لمـــا اتونا وقالوا إنهم خُطبا
فقلتُ والنفسُ قدزادت مرارتها ... ألا يرى حولهُ في ارضنا أدبا؟
عجبتُ منهُ غريباً في تصرُّفه ... يجوِّعُ الأهل كيما يُطعِمِ الغرَبا!

وخطر لي أنَّ ناصراً سيطالبني حال وصولي بمثل نصيبي فأعددتُ له سلفاً الخطاب والجواب التاليين :

أقام صحابي في غيابي وليمةً ... وقد أكلوا حتى أصيبوا بتُخمةِ
فقلتُ وجوعي صافرٌ في أضالعي ... أهذا جزائي ما ذُكرتُ بلقمة ؟
سأشكو الى «رزقٍ» مصابي «بنعمة» ... لعليَ بعد القحط أحظى «بفردة»
فألبسها عنــــد التنزُّه حالجاً ... ومعتنقاً خوفَ السقوط «أجيَّتي»
وأصبرُ صبرَ الكاذبين على الطوى ... الى أن يجي دوري وتأزفَ رحلتي
فآكلُ وحدي مثل ما اكل السوى ... وأنزلُ بالساهين عــــنيَ نقمتي
وعندئذٍ يصفو دماغي «بشدَّةٍ» ... وأمشي كذئبٍ بعد فوزٍ بنعجة

فأجيبه بالبيتين التاليين وهما مسك الختام :

اقول لناصرٍ والعتبُ ظلمٌ ... مررت بخاطري وحياة راسكْ
ولكنْ رُغم بحثي عن حذاء ... فشلتُ وماوجدتُ على قياسكِ

هذا في عُرفي ادب يدلُّ على ديموقراطية حقة . وبعد ان تطالع يا قارئي العزيز هذا المقال أسرَّ إليَّ رايك ، وماحسب الا انك تستطيب هذه الوليمة فوق استطابتك الولائم الفاخرة ولو كلفت الوف الليرات.

الانكليز في السودان

(ما عليهم وما لهم)

تفرّد الانكليز بفضائل لا يشاركهم فيها احد كما اشتهروا برذائل هي مُشاع بينهم وبين جميع الشعوب . والحكيم هو من أنفق وقته في اقتباس فضائلهم بدلاً من ان يضيعه عبثاً في مخاصمتهم لرذائلهم .

ولا يسع منصفاً ان يُنكر عليهم تفوّقهم في مضامير الحرية والعدالة والنظام ، ولكنهم في بلادهم كالمضيف الكريم يقيّد نفسه بواجب إكرام الضيف الى حد التجاوز عن إساآته . او هم بالاحرى كالأسد في قفصه ، فما على من يشاء ان يتأكد من شدة بأسه ومدى ضرارته وبطشه الا ان يواجهه طليقاً في غابه ، وهذا هو شأنهم في المستعمرات حيث يعتمدون سياسة الطوارئ تبعاً لاختلاف البيئات والظروف والحالات العارضة . وهم بالطبع لا يجهلون ما يرتكبونه ولكنهم يبرّرونه بضرورة المحافظة على كيان الامبراطورية والابقاء على هيبتها في النفوس ، ومنطقهم في ذلك أنه ما دامت الامبراطورية قائمة ففي وسعها ان تعوّض عما قد ترتكبه مكرهةً من ظلم او إجحاف ، او تصلح بحسن السياسة ما تكون قد افسدته بالاحتكام الى القوة الغاشمة . اما اذا هي انهارت فانها تفقد كيانها ويستحيل عليها التعويض او الاصلاح. وليس لنا ان نغالي في تجريمهم ومنا القائل:

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفةٍ فلعلةٍ لا يظلم

ونحن الشرقيين سواسية في ما نالنا من الغربيين ولكن لا يضيرنا

شيء كالاقتصار عـلى الشكوى والصخب ولا ينفعنا شيء كاعترافنا بأن الذي مكّن الغربيين منا هو نومنا ويقظتهم ، وجهلنا وعلمهم ، وانحطاطنا أخلاقياً وارتقاؤهم .

ولتوطيد هيبـة الدولة وفرض احترام العنصر الانكليزي عـلى الشعوب الخاضعة لسلطانه يحرص الانكليز كل الحرص على الترفـع فلا يغريهم شيء بالتبذّل ويحرّمون على انفسهم الاختلاط بسواهم اجتماعياً. ففي الخرطوم كان كبارهم من مدنيين وعسكريين ينتبذون حياً خاصاً يمتدّ على طول الشارع المحاذي للنيل يسكنون فيه بيوتاً رحبة انيقة تحيط بهـا حدائق غناء تبسق فيها اشجار غضة تحجبها عن ابصار المارّة ، وقد ابتنتها لهم الحكومة وجعلتها وقفاً عليهم بأجور زهيدة ، حتى ليصحّ القول إن كل كبيرٍ انـكليزيّ يقيم في منزل يعتبر في بلاده قصراً ويتمتع بحديقة لا تقلّ كثيراً عن بعض حدائقها العمومية. ولهم نادٍ خاص يختلفون اليه ويمارسون فيه مـا يشاؤون من اساليب اللهو والقصف والتبذّل دون ان يتعرّضوا لنظرة استهجان او ازدراء، كما أنهم لم يكونوا يسمحون للوطنيين وابناء الاقطار العربية الأخرى بمجاورتهم في الاسفار البرية والبحرية ، باستثنـاء من هم في الدرجـة الاولى من الموظفين ، تقديراً منهم أن هؤلاء على جانب من التهذيب ، ولو اختار الموظف الثانويّ ان يدفع فرق الاجرة بين الدرجتين لما وجد عرضه قبولاً .

ولصغارهم مصغّر ما لكبارهم من كل وجه ، كما ان في أولئك نسبياً مثل صلف هؤلاء ، وهذا ما لم اكن أطيقه ، ففي رأس العوامل التي حملتني على هجر السودان اضطراري للعودة من بورت سودان حيث كنت مستقلاً في مكتبي الى الخرطوم حيث كنت على علم بأنني سأكون فيها تحت إمرة رئيس كتّاب على وشل من العلم والتهذيب ، إذ انه نُقل الى السلك المدنيّ من الصفوف وكان فيها رئيس عشرة .

وهـذا السلوك الذي يجرح عاطفة ذوي الاحساس مفروضٌ في المستعمرات عـلى كل إنكليزيّ ، صغيراً كان ام كبيراً ، مدنياً ام عسكرياً ، فهو مقيد بواجب الظهور بمظهر لائق ، محاسبٌ على ما من شأنه ان يحطّ من قدره وبالتالي من قدر دولته ، حتى إنهم في سبيل الابقاء على هيبة واحترام الجنس الابيض لم يكونوا يسمحون لغانية بدخول السودان لاستغلال أيّ فنٍّ من فنون الترفيه او الاغراء .

وتمكيناً لاحترامهم في نفوس السودانيين فرضوا على كل راكب، أيّاً كان شأنه ، أنه اذا أبصر بضابط او موظف انكليزيّ مقبلاً أن يترجّل ليؤدي التحية ويقف وقفة الاحترام والاجلال ، ولا يعود الى ظهر مطيته الا بعد ان يكون قد ادّى الواجب المفروض . ولطالما غالى بعضهم في احترام الجنس الابيض فترجّلوا محيين من هم ليسوا بإنكليز

ولكنّ الانكليز في الوقت نفسه حكماء مرنون وقابلون للتكيُّف والتطور تبعاً لمقتضيات الحال فلا يفوتهم مبدأ أنْ لا أخذ بلا عطاء . من ذلك أنهم على اثر احتلالهم مصر ومن بعدهـا السودان راحوا يراعون الى ابعد حد شعائر اهل البلاد وتقاليـدهم وعاداتهم الدينية والاجتماعيـة . ولم تفتهم حتى المظاهر ففرضوا عـلى انفسهم الاعتمار بالطربوش في الدوائر والمكاتب والاحتفالات الرسمية . ومنذ ذلـك الحين فرضوا على كل موظف إنكليزيّ أن يستطيع على الاقل التكلم بالعربية الدّارجة على ان يتعلمها تدريجاً قراءةً وكتابةً وهيأوا السبيل للراغبين في تعلمها من طلاّب الوظائف بإنشائهم كرسياً لتدريسها في كلٍّ من جامعتي أوكسفورد وكيمبردج . وكان الموظفون الانكليز، من الحاكم العامّ فما دون ، يواصلون دروسهم العربية على ايدي موظفين يجيدونها ، ويكسب هؤلاء من التعليم ما يفي بنفقاتهم فيقتصدون مرتباتهم بأكملها .

وبحكم السياسة السائدة كان كلٌّ من الانكليز أستاذاً في المرونة

وسوم النفس احياناً ما لا يطاق ، وكنا نحن الشرقيين ، على اختلاف قومياتنا ودرجات تهذيبنا ، نتخلف عنهم اشواطاً في هـذا المضمار ، حتى إني وسواي طالما رأينا كبيراً انكليزياً يستقبل ذوي المكانة من السودانيين ، الكاسين والعراة ، النظاف والقذرين ، استقبالاً حافلاً تتخلله المصافحة والعناق والتربيت ، ويجلسون القرفصاء يتناولون بأيديهم طعاماً سودانياً يستتفهونه بطبيعتهم ، متظاهرين باستساغته والتلذذ به

وأذكر من اساليب محاسنتهم للشعب السوداني واستمالتهم إياه أنه كلما نوى الحاكم العام القيام برحلة تفقدية في اية ناحية من نواحي البلاد كنا نعد له في الخزينة قراطيس تتضمن نقوداً نحاسية وفضية حديثة السبك لكي تبهر بجدتها ولمعانها ابصار من ينفحهم بها من طالبي رفده

والدولة الانكليزية لا تميز في مضمار العدالة بين الانكليزي وغير الانكليزي الا انها تحرص على صون كرامة رعاياها في نفوس الوطنيين وسواهم فتعاقب المذنبين منهم في بلادهم . من ذلك ان ابرهيم ديمتري الذي كان امين سر سلاتن باشا روى لي أنه عندما كان مرة في لندن بصر بكبير انكليزي عرفه في الخرطوم ممسكاً بعنان حصان انتظاراً لعودة صاحبه لقاء دريهمات يتوقعها أجراً على خدمته تلك . وحكاية ذلك الكبير انه ارتكب ذنباً استوجب إعادته الى انكلترا ومحاكمته فيها فثبت إجرامه وعوقب بالنبذ والحرمان . وكان اول ما تبادر الى ذهن صديقي أن يحييه ويبدي له اسفه لما آل اليه حاله وينفحه بمبلغ يستعين به على الدهر ، ولكنه لم يلبث ان عدل عن فكرته خشية ان يعرضه لما هو اقتل من الفاقة او ان يتعرض هو لمفاعيل سورة غضب تأخذ ذلك المجروح الكبرياء فيجزيه على صنيعه الجميل بالرفض القبيح .

وعرفت موظفاً لبنانياً اسمه امين الحداد كان يشغل وظيفة كاتب ومترجم في الدائرة الحربية المصرية في الخرطوم وظللت زمناً أعجب

كيف أن ثلج المشيب لم يطفئ لهيب حدته وأن صدره لم يستعر شيئاً من سعة وترامي البلاد التي يقطنها حتى علمت سبب نزقه وضيق صدره وهو أنه حوكم مرة لقبوله سرج حمار هدية من احد ذوي المصالح من مشايخ السودان وحُكم عليه بفقدان « الاسبقية » فظل اعواماً عديدة واقفاً ورفاقه يتقدمون حتى علاه من كان دونه رتبة ومرتباً ، وهكذا كان احد فرائس العدالة الانكليزية التي لم أرَ أشد منها وطأة على الراشي والمرتشي ، الا في المستعمرات حيث تؤاخذ الموظفين وتعذر الوطنيين لاعتبارها ان هؤلاء رَبوا في احضان الجهل وتحت رهبة الظلم والارهاق .

وكان جلّ الذين يبدأون بوظيفة مفتش من أبناء العيال العريقة الغنية لا يملكون سوى مرتباتهم الضئيلة بالنسبة الى ما كانوا يرتعون به في بلادهم من بحبوحة لان الارث عندهم ينتهي الى البكر الذي يحمل لقب الاب ويتولى مهمته فينفق على إخوته ويعنى بتثقيفهم وتهذيبهم الى أن يتهيأ لهم الانخراط في سلك يدرّ عليهم نفقتهم ويشقوا وحدهم طريقهم الى الارتقاء فلا يطالبون اخاهم الأكبر بشيء ولكنه يغتنم طوعاً بعض المناسبات فيمنحهم على سبيل الهدية او التذكار بمبلغ من المال ينفقونه في بعض ما يتوقون الى التمتع به من الكماليات .

والانكليز هم الذين ألغوا الرق في السودان برغم احتجاج « الأسياد » وبعض العبيد ايضاً ، تاركين لهؤلاء الخيار في أن يبقوا عبيداً او يتحرروا . ولكن في الحالة الأولى اشترطوا على السادة إحسان معاملة عبيدهم وعدم إرهاقهم او معاقبتهم بوحشية .

اما من حيث الشجاعة والاقدام وتحمل ما لا يُحتمل فعلى شدة مراس السودانيين واتصافهم بشجاعة تكاد لا تُصدّق فقد وجدوا في الانكليز انداداً ، ولم يروا شيئاً من الغضاضة في إعطائهم حقهم من الاعجاب والتقدير .

ومن الامثلة على شجاعة الانكليز ورباطة جأشهم أنْ كان في الخرطوم ضابط كبير يُدعى هنتر ، ونظراً الى ما كان يبديه من ضروب الشجاعة حرّفوا اسمه الى عنتر. وحدث يوماً أنْ كان هذا الضابط في حديقة قصر الحاكم العامّ يتحدث الى سيدتين من ذوات المقام فاذا به يراهما تحوّلتا فجأةً الى تمثالين ارتسمت على محياهما ادلة الجزع الشديد . فالتفت الى الجهة التي تسمّرت فيها اعينهما واذا به يرى اسداً مقبلاً فأدرك للحال حراجة الموقف . واتفق إذ ذاك أن يكون سلاحه الوحيد الذي لا يردُّ غائلةً ولا يدفع خطراً قضيباً من الخيزران فأشار الى رفيقتيه بالتماسك والتزام الصمت وسار لمقابلة الاسد مصوّباً اليه نظراتٍ حادّةً ممغنطة ومشيراً بعصيّته الواهنة في اتجاه القفص الذي أفلت منه لاهمالٍ او سهوٍ ارتكبه الحارس ، فما كان من ملك الوحوش ، وقد رأى من إقدام ذلك الضابط ما يفوق شجاعته ، الا أن ارتدّ على اعقابه وواصل سيره حتى دخل القفص المفتوح وأقفل عليه الضابط الباب .

وكان الانكليز بالمقابلة يحترمون السودانيين لشجاعتهم وصراحتهم ويحسبون لهم حساباً لنفورهم من الذل واستعدادهم الدائم للانتقاض والعصيان . لذلك وجد السودانيون انفسهم بعد الفتح في نعيم بالنسبة الى ما نالهم من الظلم والارهاق في ايام عبدالله التعايشي الذي خلف المهدي . ولكن لم يخلُ الامر من ثورات قام بها الطامعون في التسوُّد في أصقاع نائية عن مركز الحكم والقوة فاستغلوُا جهل الشعب واستسلامه فسيّرت عليهم الحكومة حملات عديدة . وعندما كنت في رفاعة حصل انتقاض في مركز الكاملين التابع لمديرية النيل الازرق، والذي يبعد عن الخرطوم مسيرة يومين على الجمال ، وكان ضحيته قائد المئة المصريّ محمد شريف والمفتش الانكليزي مونكريف اللذان اصطحبا بضعة جنود لقمع عصيان قام به احد المتعصبين ، ممهداً له بالامتناع عن

دفع الضرائب . وكان من رأي محمد شريف تسيير قوة كافية ولكنّ مونكريف استجبنه ورأى ان يأخذ العصاة باللين . وبعد ان فاوضهم بواسطة رسول دخل عليهم في مجلسهم فاستقبلوه ورفيقه بالترحاب وأوسعوا له في صدر المكان . ولكن ما إنِ استقرّ بهما المقام حتى انقضّ عليهما المتآمرون فاجتثوا لسانيهما وقتلوهما شرّ قِتلة ، مما اثار الخواطر واطلق الألسنة بالمطالبة بالانتقام الذريع .

ولكنّ الانكليز على مسارعتهم لقمع كل عصيان لم يلجأوا يوماً الى البطش والارهاب بمعناهما ، بل كانوا يؤثرون المهادنة والرفق والتفاهم ، لنسبتهم كلّ انتقاض الى وحي زعماء جهلة مغرضين.

وكما أنهم لم يتجاهلوا يوماً ما تعمر به صدور السودانيين من عزّة ونخوة وإباء وقابلية للانتقاض والعصيان لم يكن يفوت السودانيين تفوّق الانكليز على المصريين وانصياع هؤلاء لأوامرهم ونواهيهم ، فهل يُلامون بعد ذلك على استصغار شأن المصريين ورفضهم البات ان يكونوا لهم في ذلك العهد انداداً ، فضلاً عن أتباع ؟

وأيّ برهان ادلُّ على انحطاط العقلية المصرية في ذلك العهد من سماعي موظفاً يفاخر بأن رئيسه الانكليزيّ وجّه اليه ما لا يُطاق من الاهانات والشتائم ، متخذاً تلك « البادرة » من رئيسه «المحبوب» دليلاً على ما بينهما من رفع الكلفة وما يضمره له هذا من الحب والاعزاز!

اما عدم الاهلية وسوء الادارة والائتمان فدليلي عليها أن الجامع الوحيد الذي كان جارياً تشييده في الخرطوم انفقت عليه دائرة الاوقاف المصرية سبعين الف جنيه ولم يتمّ وكنت احسبه لا يتمُّ لان بناءه على ما اذكر كان مورد كسب لبعضهم

ترعة بناما أُخطىء في تقدير اكلافها مرّة واحدة وقد تمت ، اما هذا الجامع فقد أُخطىء في تقدير اكلافه مراراً وقد ظلّ الخطأ ممكناً . وقد سمعت أن جميع الذين تعاقبوا على بنائه من مدنيين وعسكريين

ابتنوا لذواتهم بيوتا من المواد التي كانت تُستجلب لبنائه ، فكيف يتمُّ وليس من يرغب في إتمامه .

ويزداد هـــذا السلوك فظاعةً إذا هو قيس بسلوك رؤساء المصالح من الانكليز فإن هؤلاء كانوا يغتنمون عطلاتهم السنوية لكي يتسوّقوا ما تحتاج اليه مصالحهم من الآلات والمعدّات من افضل المصادر في اوروبا ، نوعاً وسعراً . فاذا ما تلقوا من المصانع كوسطاء العمالةَ التي تفرضها هذه على نفسها حوّلوها توّاً الى الخزينة لتحسم من ثمن ما ابتاعوه

وإذن فلم يكن السودانيون في ذلك الزمان على خطاء في حكمهم على المصريين ، ففي مصر نفسها كانت تظـاهرات الحزب الوطنيّ أشبه شيء بالألاعيب إذ لم يكن يحتاج رجال الامن في قمعها الى اكثر من إطلاق الماء الحارّ على المتظاهرين ، حتى إن عقـلاء المصريين لم يكونوا يعتقدون أن أولئك المتظاهرين واعقـــابهم يمكن أن يتلقوا يوماً بصدورهم الحراب ويثبتوا امام وابل من الرصاص فيكيلوا لمستعبديهم بالكيل عينه ، لان الايمان بالوطنية كان سطحياً والغـــاية من طرد الانكليز فاسدة لا تتعدى انطلاق يد الجاهل المتعصب في إيذاء نفسه وسواه واستبداد القويّ بالضعيف ، فبلوغهـــا إذن كان أضمن وسيلة للتدمير لا للتعمير .

كان المصريون إذ ذاك آلات تحسن الطاعة والتنفيذ ولكنهـــا لا تصلح للادارة والتنظيم لان مصر كانت مصر الجهل والتعصب ، مصر التخاذل والتواكل ، مصر الخنوع وضعف الثقة بالنفس ، مصر الخاصة دون العامة ومصر الموظفين دون سائر الطبقات العــاملة . وكانت المدارس الأميرية لا تخرّج الا الذين يصلحون للوظـائف يلتمسونهـا بالتذلل والزلفى ويحرصون عليها حرص من يخشى الموت جوعـــاً ، وجلُّ التجار اجانب يهمهم بقاء المحتلين في البلاد ، والفلاّح المصريّ يرزح تحت وطأة مستغلي جهده من المحتكرين والمرابين ، فأنى للبلاد

ان تنهض ولشعبها ان يثور ويسير في طريق الارتقاء ؟

ولكنَّ حسن طالعها قيّض لها ان تنجب الزعيم البركانيّ مصطفى كامل الذي ايقظ النيام وألهب الصدور بحرارة الايمان وأفهم المصريين أنهم بشرٌ كسواهم لهم حقٌ بالحياة الحرّة يجب ان يطلبوه ولو في حلوق الاسود ، فكانت الحماسة الوطنية والنهضة القومية . وكان أنه عندما جاء سعدٌ وجد الحديد حامياً فضرب وتمّ له تكييفه على ما اراد . فالمرحوم مصطفى كامل إذن اعدّ له الطريق بأن نفخ في الشعب المصري حياةً وعرف هو كيف يستفيد من تلك الحياة ، وفي ايامه وبتوجيهه عكف النشء المصريُّ على طلب العلم الصحيح والتحلي بالاخلاق الفاضلة فاستفادت مصر اساتذةً من ابنائها يعملون مخلصين فازدهرت فيها العلوم والفنون وسادها النظام والأمن ونشطت الى الأخذ عن الانكليز كلَّ ما كان عاملاً في تسوُّد الانكليز عليها

إن السودانيين لم يكونوا يحبون الانكليز ولكنهم كانوا يحترمونهم ، ونظراً الى ما كانوا يلحظونه من خضوع المصريين لهم كانوا يعتبرون الاشتراك في الحكم حكايةً لا يجوز ان يؤخذوا بها ويرَون في خضوعهم للمصريين عبوديةً مزدوجة ، او على حد قول الشيخ ناصيف اليازجي : « فيا ويلَ عبدِ العبدِ ذلٌ على ذلِ » . لذلك ما كنت اعتقد انه سيأتي يومٌ يقرُّ فيه السودانيون سياسة وحدة الوادي ويرضون بانضواء بلادهم تحت التاج المصري .

وإذا كان في الزمن الاخير قد نشأ في السودان حزب يرضى بالحالين فالفضل في ذلك عائدٌ كله الى صيرورة المصريين احراراً ينازلون الانكليز بالقوة ويرغمونهم على الجلاء عن بلادهم بحيث اصبحوا في نظر السودانيين انداداً لا يرون اية غضاضة في أن ينضموا اليهم ويكافحوا معهم من اجل حريتهم واستقلالهم ويطيعوهم طاعة الاخ الاصغر لأخيه الاكبر .

وكان اول عهدي بالاطلاع على النشاط الذي يبديه إخواننا المصريون لتحقيق هذه الأمنية الغالية عام ١٩٤٧ الذي تسنى لي فيه سماع السفير المصري محمد وجيه رستم يدلي بآرائه في هذا الموضوع الحيوي في اجتماعات عامة وجلسات خاصة في أثناء زيارته للجاليتين السورية واللبنانية في سان باولو بدعوة من صديقي الأديب والصناعي فيليب لطف الله ، وبعد ذلك في السفارتين اللبنانية والمصرية في ريو دي جانيرو .

ومما اذكره أنني عند زيارته للنادي الرياضي اللبناني استقبلته بهذين البيتين :

أودعتَ مصراً صدرَ حرٍ ماجدٍ   وأتيتَ تعرُضها على الأبصارِ
وقلوبنا أولى بها فانزِل إذن   من كلّ قلبٍ مخلصٍ في دارِ

وعندما ودّعته في المطار يومَ عودته الى العاصمة القيت في سمعه هذين البيتين :

آمنتُ بالسودانِ قطراً مؤمناً   وكفرتُ بالسودانِ قُطراً جاحدا
ما دام للقطرينِ نيلٌ واحدٌ   فغداً نرى القطرينِ قطراً واحدا

وعند توديعي إياه في السفارة عائداً الى سان باولو بعد زورة قصيرة للعاصمة تلطف فقدّم لي مذكرةً تتضمن مستندات ووثائق تاريخية تثبت حقّ مصر في دعواها ، استدللت منها على أن هذه الحركة أعمق وأعرق مما كنت اتصوّر ، ثم رحت اتتبع سيرها وتطوُرها في مصر وفي السودان وما يجري بشأنها من محادثات بين المصريين والسودانيين وأخبار البعثة السودانية الى الاقطار العربية لاقناعها بحق الشقيقة مصر في مطلبها وموافقة اكثرية سودانية عليه ، كما طالعت الشيء الكثير في مجلة المصوّر الى أن قرأت في العدد ١٢٧٧ منها الصادر في اول فبراير سنة ١٩٤٩ بلسان عبد الرحمن عزام امين سر الجامعة العربية ما يأتي :

« كنتُ اظن أن القبائل السودانية التي تتكوّن منها الآن اغلبية اهل السودان اقبلت عليه عبر البحر الاحمر عن طريق ارتوبا . فلما زرت السودان في عام ١٩٣١ تبينت أن الاكثرية الساحقة ، بل تسعين في المائة من هؤلاء العرب السودانيين ، إنما وُلدوا في شمال الوادي وجنوبه تجمعهم صلة الدم والنسب والقربى »

طالعت هـــذه الفقرة فتذكرت أنني في غضون الاشهر السبعة التي قضيتها في مركز رفاعة من أعمال مديرية النيل الازرق ، وتنقلي بينها وبين واد مدني حاضرة تلـــك المديرية ، انتهيت من مراقبتي لهيئات السكان ولهجاتهم وعاداتهم وأساليب عيشهم الى القول بعروبتهم وإنهم يمتُّون بأصلهم الى الجزيرة العربية ، أي أنني كنت على وفاق وصديقي عبدالرحمن عزام في ما كان يعتقده ، او يظنه ، قبل زيارته للسودان سنة ١٩٣١ .ولكن مما دعا لاستغرابي هو أنه بعد زيارة عارضة للسودان غيَّر ظنه ذاك في حين أني بعد أن قضيت عشر سنوات في ذلك القطر ، وحتى اطلاعي على رأيه المتقدّم ، لم أغير رأيي .

وكنت بالاكثر أستند في اعتقادي الى طائفة من الالفـــاظ التي يستعملونها وكلها فصيحة الاصل ، والى القارئ بعضها :

الدهك : من دهك ، طحن . التدليك : من دلك ، مرس ، غمز ، فرك ، دعك . الفسَل : من فسل ، الرذالة ، والمفسول الرذل الذي لا مروءة له . الزُول : الشجـاع ، الجواد ، ويطلقونهـا على الشخص احتراماً وتعظيماً في الخطاب وفي الاستفهام فيقولون «يا زول ، ومين الزول » ؟ المريسة : من مرس التمر في الماء نقعه ومرثه باليـــد حتى تتخلل اجزاؤه . ومن ألطف ما سمعته في الخرطوم تسميتهم الدرّاجة « حمار الحديد » !

وهم يستطبُّون بعلاجات بدائية لا اعلم اذا كانت مألوفة في الصعيد المصري فيداوون الحمى بالحمية والمعرّقات . ولدغ العقرب بفرك المكان

بالثوم ولسع الحية بامتصاص السم . امــا الزهري فيداوونه بتطهير الامعاء بشربات الصودا يستخلصونها من التراب ، والسيلان بنقيع التمر المختمر مضافاً اليه مسحوق جذر يستخرجونه من ضفاف النيل ، وقد ثبتت لي فاعلية هذا الشراب ولكنني لسوء الحظ لم أعنَ بحفظ اسم ذلك الجذر العجائبيّ او التحقق من نوعه

على أنني لا اجزم في شيء وأعتبر رأي الصديق عزام هو الاعلى ، لانه إذا لم يكن اعرف مني بالسودان فهو يفوقني بما لا يُقاس في معرفة القطر المصريّ .

ومما يثبت إخلاصي لاخواني المصريين ويبرّئني من تهمة الحط من قدرهم في مـا سبق لي أن اوردته عنهم من الحقائق بصراحتي المعهودة الابيات التالية التي استهللت بها محاضرةً موضوعها « الاجتماع » دُعيت لالقائها منذ خمسةٍ وأربعين عاماً في النادي المصري في الخرطوم :

يشوقهُ قائلٌ في مصرَ ذي بلدي — وهو الشآمي وغيرَ الصدقِ لم يُرِدِ
فتىً من الشامِ يهديكم تحيتهُ — وقلبــه ليس يُهديه الى حــدِ
مخافةَ القول قـد جادت سجيتهُ — بمـا « لهندٍ » ولولا ذاك لم يجُدِ
لا اكذبُ اللهَ قد اضحى لها ابداً — يا ويلَ صبٍّ بلا قلبٍ الى الأبدِ
لولا «اجتماعي» بصحبٍ عزَّ صاحبهم — بكيتُ قلبي بكـاء الأمّ للولدِ

والغريب أنني لا ازال اذكر هذه الابيات كما كتبتها والقيتها في تلك الحفلة في حين أني اضعت صورتها عـلى أثر إلقائها ولم أروِها بعد ذلـك الا لصديقي الاديب الطبيب صموئيل الخوري في إحدى الليـالي المقمرة في بـلدة واو حاضرة مديرية بحر الغزال ، ولا ازال اذكر مداعبته إياي بتأويله لفظة « عزّ » الواردة في البيت الاخير !

ومما لا يزال عالقاً بذهني من تلك المحـاضرة أنني ضربت مثلاً للاجتماع الراقي من التقاء النيلين الابيض والازرق وسيرهمـا معاً متضافرَين على ما فيه الخير للبلاد والعباد .

ويسرني أن اختتم بمجيء هذا بذكر حقيقة تدعو الى الاعتزاز وهي اننا نحن السوريين واللبنانيين لم نكن في ذلك العهد متخلفين عن إخواننا المصريين والسودانيين في طلب الاستقلال فقد كنا نحلم به منذ خمسة وأربعين عاماً ، حتى إن صديقي فريد عطية روى لي أنه بينما كان مرةً مسافراً بمعية المستر كرَي مدير المعارف سأله هذا : « مَن تفضّلون من الدول لادارة شؤون بلادكم اذا تقلّص عنها يوماً ظلُ الاتراك »؟ فأجابه بكل جرأة وصراحة : « إننا نفضّل أن نعيش احراراً مستقلين، ولا نريد أن تحكمنا دولةٌ اجنبية اياً كانت ،وفي راس القائمة انكلترا»!

وهذا ما كرّرته خطّياً جواباً على سؤال مماثل وجّهه اليّ المستر اتلي سنة ١٩١٦ في سان باولو، وكان اذ ذاك قنصل بريطانيا العامّ فيها.

والحقُ يُقال أن نصيب هذين الجوابين كان الاستحسان والتحبيذ!

ومن غرائب الصدف أنني بعد أن وضعت نقطة الختام لهذا الفصل أطلّ عليّ في مكتب الريحاني وجهٌ من اكرم الوجوه في السودان هو الشيخ احمد البشير الطيب هاشم الذي كان مفتش تعليم في وزارة المعارف ويقوم بعد إحالته الى المعاش بوظيفة ناظر مدرسة البنات الثانوية في أم درمان ، وقد جاء يحمل الى الأخ البير رسالةً ووصاةً من شقيق قرينته وديع شقير الصيدليّ في الخرطوم .

ومما زادني به استئناساً وله إجلالاً هو أنه نجل المغفور له رجل التقى والفضل والنبل الشيخ الطيب هاشم مفتي السودان من ١٩٠٠ الى ١٩٢٤ ، وقد اتصلت به بواسطة صديقي الحميم نسيب فيلبيدس الذي كان يجلّه ويقدُر صفاته النادرة .

والشيخ احمد في السادسة والخمسين وقد امّ لبنان للاستمتاع بجماله وجودة هوائه وعذوبة مائه وليتعرّف اليه كقطر عربيٍ بعد ان عرف الكثير سواه من الاقطار الشرقية والغربية ، فنِعمَ النزيل .

وقد أدب له الأخ البير في منزله فكانت ليلةً من ليالي العمر

شوارد وخواطر

الى هنا انتهت الصورتان كما تهيأ لي رسمهما ، لا كما اردته . وقد سبق لي أنْ اعددت هذا العنوان المطّاط او العوّام لكي أورد تحته كلّ ما فاتني كتنقيح للصورتين او تكميل لهما . وقد تبيّن لي أنني كنت مصيباً ، وما احرى هذا الفصل بأن يُدعى « الكشكول »

التاريخ يعيد نفسه — وأول استدراك او تصحيح أسارع الى إثباته هو إبراء ذمة الاديب فؤاد حبيش مما أضفته الى هـذا الكتاب بعد أن عرضته عليه ، وهو كثير يقتضيني على الأقلّ مشاطرته المسؤولية التي حمّلته إياها برمّتها في البيان الذي استهللت به تحت عنوان «ميت» فكأنني جعلته يُمضي على بياض وأطلقت يدي في تقييد مـا أشاء على حسابه دون أن يجد الى التنصّل منه سبيلا . وسرُّ شعوري معه من هذه الجهة هو أنني نُكبت منذ ربع قرن بمثل نكبته بي إذ سألني صديق مقدّمة لرواية عرّبها واستنزل احد الأثرياء لدفع اكلاف طبعها بتقديمها اليه ، فإذا بي ارى بعد صدورها أنه دسّ في مقدّمتي عبارة لا أوافق عليها ولا يمكن ان تصدر عني ، فكأنه قوّلني ما لم أقل مذيّلا بإمضائي الذي لا أستطيع إنكاره .

صورة الغلاف — هي صورةٌ التقطها لي اتفاقاً في شرفة منزله في سان باولو صديقي وأخي شفيق عيسى المعلوف ، فكانت تلك المرّة الاولى التي رآني فيها بغير عين الحب . ولكن ايّاً كانت نظرته إليّ فإنه يظلُّ في نظري الشاعر المحلّق ذا الخلق الكريم والطبع النبيل .

خطوط الغلاف ورموزه – من وضع الخطّاط المعروف فهد العنداري ، وقد كان في تقاضي الأجر عنها « فهداً » .

خطوط الفصول والمواضيع – ولما علمت اتفاقاً انه الساقية قصدت الى النبع ، وأعني الأستاذ الاكبر الشيخ نسيب مكارم الذى ربطتني صلة صداقة بأخيه في البرازيل الشيخ عبدالله سعيد ، غيرَ مبالٍ بتحذير بعضهم إياي من أن نسبة تلميذه اليه كنسبة الدلف الى المزراب . ذلك أني ذهبت متحـذّراً ومتسلّحاً بحجته على المواطنين وهي انهم لا يقدّرون الفن لانهم يقيسون الانتاج الفنيّ بالدقائق التي يستغرقها ويضربون صفحاً عن السنين التي أنفقت في الدرس والتمرّن لبلوغ الغاية فيه . وكانت حجتي المقبولة على اقتضابها أنّ الادباء ليسوا اقلّ غبناً من اصحاب الفنون

ونسيب مكارم ليس خطاطاً فقط بل رجل فضل ايضاً ، فهوالشيخ الذي شكا إليّ التدهوُر الخلقيّ في بلادنا فرفّهت عنه بعضَ الشيء بقولي إنّ جميع بلدان الله قد نُكبت بعد الحربين الكونيتين الأخيرتين بانحطاط المستوى الخلقيّ فيها، ولكنّ الذي جسّم نكبتنا ولا سبيلَ الى التغاضي عنه هو ان الاخلاق الفاضلة التي اشتهر بها اجدادنا وورثناها عنهم كانت رأس مالنا الوحيد !

طبع الكتاب – لم يكن من الممكن ان اتوفّق الى افضل من مطبعة صادر وريحاني لأطبع فيها كتابي هذا لأن البير الريحاني متوليّ شؤونها أديبٌ قبل ان يكون تاجراً . وقد وثقت بصورة عملية من أنه يقدّم الروح على المادة وتهون عليه التضحية بهذه في سبيل تلك ، إذ انا على يقين من أنّ صفقته معي لم تكن رابحة ؛ وإني احمد الله عنه على أني بحكم الشاذّ الذي لا يُقاس عليه ، اذ لو كان كلّ زُبنه مثلي في التدقيق وإضاعة وقت العمال في التنقيح والرتق لكانت « مطابع صادر وريحاني » في خبر كان قبل هذا الزمان . وقد زاد على ذلك

أنه أعار كتابي عناية خاصة إذ هو اقترح تذييله بفهرس للأعلام وتطوع لوضعه، مضحياً في هذا السبيل بوقته الثمين، شأنه في خدمة مشاريع عديدة تقتضيه التغيب عن مكتبه عدة ساعات يومياً. وقد نبهني بسلوكه الفذ هذا الى افتقار لبنان لأمثاله من الغيريين فلا يكون كذلك التلميذ الذي بعد أن فاخر والده بأنه الأول في صفه سُئل عن عدد من تفوّق عليهم « محروسه » فأجاب أنه الوحيد!

ولم يكتفِ بما تقدّم بل هو رأى أن يُصدر من هذا الكتاب بنفقته طبعة شعبية يعرضها للبيع بسعرٍ مغرٍ لا يدرُّ ولا يُضِرُّ.

هذا هو اعترافي وهذه حكايتي مع البير الريحاني ولا أزيد

بركة المكتب – اما بركة المكتب فصهره العالم العامل يوسف صادر الذي لم تقعده الثمانون عن خدمة العلم والأدب والمشاريع الوطنية والخيرية، وإشاعة المهابة والوقار، مقترنين الى دماثة الخلق وأنس المحضر. ومن دواعي حزني أن الأجل لم يمهله ريثما يقرأ هذه الفقرة المقتضبة المعبّرة عنه، وقد عدّد صفاته النادرة وبكاه جميع عارفيه

الحرب بالنظارات – لا أستغرب أن يتبادر الى بعض الأذهان أني كنت أبطأ من سُلحفاة في إصداري هذا الكتاب بعد إقامة عام كامل في لبنان، بحيث اكون قد كتبت اقلّ من صفحة في اليوم. فلمثل هؤلاء اقول إن المسألة ليست مسألة ملء صفحات بل إعداد تربة وبذر وتعهُّد ريثما ينبت الزرع ويعقد وينضج ويئين وقت حصاده. وقد كنّيت بهذه العمليات كلها عن الدرس والاستطلاع والتثبُّت من الامور وقتلها تفكيراً وتعليلاً، فكل مدة تُنفق في هذه السبل تظل قصيرة، بدليل ما نقضته من احكام وما عدّلته من آراء في غضون الاشهر التي قضيتها متنقلاً ومقيماً، بما قصّر في نظري الزمن الذي قد يستطيله من لا يشعر مثلي بالمسؤولية ولم يعانِ ما عانيت من الكدّ والارهاق، لذلك اعجب بدوري للذين يقضون

ويمضون على أثر دراسة سطحية لا تستغرق اكثر من ايام او اسابيع .

واني أقيم من نفسي وشعوري الخاص شاهداً على أن الغريب او القادم بعد غيبة سنين يتبيَّن ما لا يراه المقيم ولا يُحسُّ به ، فإن جميع ما أعربت للوهلة الاولى عن استفظاعي اياه اخذت مساوئه تتضاءل رويداً في نظري حتى بتُّ لا أستبعد ، لو انا أقمت عاماً آخر فقط ، ان يأتي يوم اتغاضى فيه عنه او أستسيغه كالمقيمين تماماً .

دستور الايمان عندي – لو كان ابن زُرَيق البغداديُّ متسلحاً مثلي بدستور الايمان الذي سننته لنفسي منذ عهد بعيد لما امضَّته الجيبة وقضى يأساً بعد ان نظم رائعته التي خلَّدته على مرِّ العصور ، ومطلعها:

لا تعذُليه فانَّ العذلَ يولعهُ   قد قلتِ حقاً ولكن ليس ينفعهُ

فدستوري الذي قويت بفضله على كل ما تلقيته من أنباء مؤلمة ، وما حلَّ بي من خسائر فادحة ، بالنسبة إليَّ ، يتألف من شقَّين : اولهما أن صحتي كنزي الوحيد فاذا فقدتها فقدت كل شيء ، لذلك لا يجوز ان يهمني شيء في هذا الوجود كالمحافظة عليها واحتمال كل مكروه في سبيل صيانتها ، إذ في جنايتي عليها بالتألمُ او الشكوى جنايةٌ على نفسي وعلى كل من يهمني امرهم ويهمهم امري .

وما اجمل ما قاله ابن الرومي في تسفيه الشكوى :

لا تظهرَنَّ لعاذرٍ او عاذلٍ   حالَيك في السرَّاء والضرَّاء

فلرحمةِ المتفجّعين مرارةٌ   في القلبِ مثلُ شماتةِ الاعداء

وثانيهما اني كمعتنق مبادىء تعاكس جلَّ ما تواضع عليه الناس يجب ان اتوقَّع منهم الصلب ، لذلك تظلُّ صفقتي رابحة مهما ينلني منهم مما هو دونه .

ولكي أستديم صحتي يجب ان أستديم زهوي ومرحي باستعاضتي عن كل ما فقدت بما انا واجد ، فأنا في جوٍّ عائليٍّ من منازل انسبائي الذين سبق ذكرهم ، وفي جوٍّ وديٍّ حميم من اصدقائهم ومعارفهم

ومَن كسبت ودّهم وأولوني عطفهم ممن جـدّدت صلاتي بهم او استجدّت لي بهم مختلف الصلات ، على ما تقدّم بيانه . فكأنني والحالة هذه لم أنتقل ولم اهجر ، حتى إني نقلت من سان باولو الى بيروت بعض المنازل التي لا يهون عليّ مفارقة سكانها طويلاً بإحلالي مكانهم من ينوب عنهم من ذوي قرباهم .

وإلى ذلك فانا موزّع القلب بين اخواني في الانسانيـة ، لا فرقَ عندي بين من يصادقني منهم او يعاديني ، عملًا مني بقول المسيح : اذا انتم احببتم الذين يحبونكم فأيُّ فضلٍ لكم ؟ واذا شقّ هذا على صديقي وساءه أن لا أُفرّق بينه وبين عدوّي فليذكر انّ الذي يحب عدوّه يستحيل إلا ان يكون حبه لصديقه أصدق الحب وأثبته وأنقاه.

وإذا قُيّدت ، كما جرى لي في لبنان ، بواجب الانتماء الى طائفة معينة لانني وُلدت فيها حرّرني المسيح نفسه بقوله صراحةً : « إذا اردت أن تصلي فادخل الى مخدعك واغلق بابك وصلّ لأبيك الذي في الخفاء وابوك الذي في الخفاء يجازيك علانيةً » ، ذلك أني برمت منذ زمن بعيد بالصلاة المشتركة لكثرة من تعجُّ بهم المعابد من المرائين الذين يندسون بين المخلصين اندساس الذئاب بين الخراف ، متخذين من مظاهرهم التعبُّدية ستاراً لما يرتكبونه من المحرّمات ، وتكون النتيجة المنطقية تزايد عدد الذئاب التي تفترس وتناقص عدد الخراف التي تُفترَس . وما اجمل ما قاله ابو العلاء بهذا المعنى ، وقد رواه لي الشيخ الفاضل احمد البشير الطيب هاشم السودانيُّ الذي مرّ ذكره :

اذا رام كيداً بالصلاة مُقيمُها فتاركها عمداً الى الله اقربُ

وتفسير الخلوة التي يأمر بها المسيح صراحةً هو في اعتقادي حصر الصلاة في ما ينبض به القلب لا بما يجري به اللسان لان الشعور هو اللغة التي تستغني عن الالفاظ ، وجميع البشر ، على تعدُّد لغاتهم ، في التعبير بها سواء . وعندي ان الله لا يصغي الى سواها ويوصد سمعه

دون اية لغة ينطق بها اللسان الذي لا يتلفظ بالصدق مرة حتى يتلفظ الفاً بالبهتان .

وهذا ما رميت اليه في الابيات التالية التي القيتها في حفلة تدشين دار المطرانية الارثوذكسية في سان باولو التي ابتناها وأثثها وقدّمها للطائفة آل عزّام عن نفس فقيدهم نعمة عبدالله عزّام الذي توفي منذ سنوات في الوطن :

ليس الصلاةُ وقرعُ الصدر مثوبةً   إذ طالما دينَ من صلوا ومن صاموا
إنّ المصليّ يروم الأخذَ عن طمعٍ   والأخذُ كالصفر والاعطاء ارقامُ
صلُّوا بأعمـــالكم واللهُ يأجركم   ها قد اراكم طريقَ الخلد عزّامُ

وقد نالت هذه الأبيات استحسان أخواي فـــارس دبغي والارشمندريت إيصائيا عبود ، فنشرها الاول في جريدة « برازيل — لبنان » التي يقوم على تدبيج إفتتاحياتها ، والثـاني في النشرة الكنسية التي يصدرها شهرياً عن دار المطرانية .

واكتفاء المسيح بالأعمال بيّن من قوله :«من ثمارهم تعرفونهم...» ولم يفرض اللجوء الى الوساطة والشفاعة بقوله : « تعـالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وانا أريحكم » .

وما رأيت كالاعتراف وإنالة الغفران مجرّئاً على العودة الى الخطأة ، لذلك اعتقد أن الذنوب يجب ان تظـلّ كأشواك وخزّازة تحت كل إبط . والا فما الذي يتركه الناس لرحمة الله وغفرانه اذا هم لم يُبقوا على ذنب الا غفروه بحيث ينتقل الجميع الى العالم الآخر مطهّرين من كل وزر ؟ واذا غفر زيدٌ لعمرٍ جريمةً ارتكبهـــا هذا ضدّ بكر فهل يسري هذا الحكم على بكر ، وهو الفريسة التي لا يجوز عقلاً وشرعاً أن يضيع لها حق ؟

وبالاختصار يكون مذهبي العمل جهدي كبشريٍّ ضعيف بما تأمر به الاديان المعروفة على اختلاف طقوسها وتقاليدها والامتناع مـــا

أمكنني عما تنهى عنه ، وإذن كنت من أشياع محيي الدين ابن عربي القائل :

لقد كنتُ قبلَ اليومِ أنكرُ صاحبي
اذا لم يكن ديني الى دينه داني
فأصبح قلبي قابلاً كلَّ صورةٍ
فمرعىً لغزلانٍ وديراً لرهبانِ
ومسجدَ اوثانٍ وكعبةَ طائفٍ
وألواحَ توراةٍ ومصحفَ قرآنِ
أدين بدين الحبِّ أنّى توجّهت
ركائبُهُ فالحبُّ ديني وإيماني

على أني لا افرض على أحد عقيدتي هذه او اسومه اتباعي فليعتقد كلٌّ بما شاء وليعبد الله على الأسلوب الذي تطمئن اليه نفسه ويصادق عليه وجدانه ، ولكنني لا أحترم إلاّ من يعمل بموجب معتقده ، من العوامّ كان ام من الكهان والأحبار .

ولمن شاء من المؤمنين ان يجرّمني بسبب عقيدتي هذه ويعتبرني من الهالكين ، ولكنني أطمئنه بأن المسيح تاركُهُ ومفتش عني ، عملاً بالمثل الذي ضربه عن الخروف الضالّ . والمهم عندي أنني اصدّق المسيح فوق تصديقي أيّاً من ممثليه على الارض

والآن أروي على سبيل المثال حكاية احد المنازل التي نقلتها من سان باولو الى بيروت ، وهي واقعية لا اثر للخيال فيها :

اتصلت على اثر وصولي بجورج بشاره كرم التاجر ، لا النائب ولا الوزير ، اولاً في مكتبه ثم في منزله ، وكنت قد سبق لي ان عرفته وقرينته الفاضلة سوسن طربيه كرم في منزل عديله صديقي عزيز نادر وقرينته الفاضلة إفلين طربيه نادر . ونتج عن معرفتي إياه في مقرّه في بيروت أنْ ثبت لي بالمقارنة أن العديلين ، باستثناء الفوارق الشكلية

الظاهرة ، صنوان بحيث يكاد كلٌّ منهما يكون نسخة طبق الاصل من الآخر : فكلاهما فينيقيٌّ طموح ، وبفضـل إقدامهما وجدّهما واجتهادهما أثريا الى حدٍّ كبير وابتنى كلٌّ منهما قصراً فخماً جرى فيه على مألوف الاجداد فكان « البيت المفتوح » ، كما يؤخذ من قولي في صديقي عزيز نادر بمناسبة ابتنائه القصر الذي يحلّه في سان باولو منذ سنوات ، ويجدر بكل من يبتني قصراً أن يطالب نفسه بمنطوقه :

ماذا يفيدكَ ما تبني بلا أسسٍ من الفضائل تبقيهِ وتعليهِ
لا كان قصرٌ يردُّ الطرفَ منحسراً إن لم يكنْ إسُّهُ من خُلقِ بانيه
بدأتَ بالنفس فاستصفيتَ جوهرَها وزِنتها بجميل الفعلِ توليه
وقد غنيت بها عن مسكنٍ نقشت يدُ الصناعةِ آياً في حواشيه
لكنْ لعلّكَ مستبقٍ به أثراً مما احتشامكَ يُخفيه ويَنفيه
جودٌ وذوقٌ وحبٌّ للجمال وما شريكةُ العمرِ توحيهِ وتمليه
ولست تملكُ هذا القصرَ منفرداً ما دُمتَ تُشركُ إخوانَ الوفا فيه

والى ذلك فقد تساويا في حسن الاختيار فاقترن أولهما بإفلين كريمة اللبنانيّ الكبير المغفور له وديـع طربيه والثاني بشقيقتها سوسن . والشقيقتان ايضاً متشابهتان في الهيئة والثقافة العالية والتهذيب الرفيع حتى لكأن الواحدة منهما صورةٌ مكبّرة او مصغّرة من الأخرى. وهما متباريتان بنوع خاص في حبهما لوالدتهما ماريانا طربيه فعلى اثر وفاة والدهما طارت إفلين من سان باولو الى طرابلس وعادت بوالدتها فأبقتها بقربها زهاء ست سنوات ، وفي الزمن الاخير طارت سوسن وأبحرت وعادت بها الى بيروت . وكلا الأختين انجبت ثلاثة ذكور.

وكلا العديلين لم تبطره الثروة ولم تنتزع من قلبه روح التقى والنزوع الى إتيان الصالحات ، ولهما على ذلك من قرينتيهما خيرُ معوان

وأصدق دليل على تأصل روح التواضع المسيحيّ في نفسيهما هو ان الحلية الفنيّة المفضّلة في قصر الاول في سان باولو صورة زيتية

لاسكافي" بريشة الفنانة اللبنانية الموهوبة هند خوري ابي جودة (وآخراً الغريّب) ، وفي قصر الثاني في بيروت صورة زيتية ايضاً لشيخ اسود البشرة جالس على الارض يعزف على الرباب . وكلا الصورتين بالغة حدّ الروعة والاتقان

من اجل كل هذا يُخيّل إليّ كلما أممت منزل جورج كرم في بيروت كأنني في منزل عزيز نادر في سان باولو ، على الأخص اذا اتفق ان يكون ذلك اليوم خميساً .

وما شقّ عليّ شيء كتلقيّ من سان باولو نعيّ صديقي وأخي ميشال نقولا مطران الذي لم يقلّ حزني عليه عن حزن شقيقيه فوزي وجورج وشقيقته اوجني الذين عرفتهم بواسطته ، لأنه رحمه الله كان عنوان الصدق والاخلاص في حبه إياي

خليل خوري – وكان طبيعيّاً على أثر وصولي ان أؤم مصيف بولونيا للتعرّف الى عائلة ابن الخال باترو يني ، واذا بي اكتشف في طريقي اليها بصحبته ان جاره الذي سأله عني ، وأبدى رغبةً ملحّة في مشاهدتي ، هو صديقي الطبيب الداموري الذي ساكنته وعايشته طيلة ثلاث سنوات في مستشفى بورت سودان منذ اربعين عاماً . فهو يملك بيتاً رحباً انيقاً فيها كما اصبح ملاّكاً ومزارعاً في الدامور ، وبذلك بعدت الشقة بيننا لانني ما زلت من الذين يبتنون في السماء ، وسرّني أني لقيته كما عهدته ، باستثناء ما يكلل هامته ويزين عارضيه من الخيوط الفضية . وهو مقترنٌ بسيدة ذات جمال ومهابة وذكاء من أسرة غُرَيّب اسمها حنينة . وقد احسن الزوجان استقبالي فوصلا بذلك بين ماضيّ السحيق وحاضري الراهن

ومن طريف ما حدث عندما كنت اشرح لهما وللأستاذ كفوري نظريتي في الادب وهي أنه كماء زلال في وعاء يندهق منه بقدر ما يطرح في الوعاء من الحجارة التي تمثل المادة ، سمعني البستانيُ الذي كان يعمل

في الحديقة على مقربة من النافذة فاطمأنّ الى أنه قد تمّ فيه الشرط الرئيسيُ في الاديب لان جيبه يشكو الفراغ . فعندما خرجنا جابهني برأيه هذا فأزلت توهُّمه بتوجيهي نظره الى شرط آخر اهمّ وهو أنه الى جنب فراغ الجيب يجب ان يكون ممتلىء الدماغ !

جورج كفوري – وكم سرّني ان يكون بين المصطافين في تلك الغابة الجميلة رجل العلم والفضل الاستاذ جورج كفوري الذي كان في زمن مضى وزير التربية في الحكومة اللبنانية . وكان الفضل للزوجين الكريمين المتقدّمي الذكر في الجمع بينه وبيني على مائدة سخية في منزلهما العامر فتحدّثت اليه طويلاً ورأيت فيه بحراً يغري بالاغتراف وتواعدنا على ان نستأنف ما تناولناه من المواضيع في جلسة مقبلة ولكن حالت موانع دون لقائنا حتى علمت بعودة قرينته الأديبة الثقيفة نجلاء صفدي من البرازيل حيث طمع بها مجموعنا للاستفادة من مواهبها واستبقاها زهاء عام كامل . ولكن الذي ساءني هو أني لم أزرها مهنئاً فقط بل معزّياً ايضاً بشقيقها توفيق الذي كان من العناصر الصالحة وقد قام في كلّ محيط حلّه في البرازيل بخدمات جليلة مقدورة بقلمه ولسانه ومساعيه الخيرية والوطنية الحميدة رحمه الله عداد حسناته .

اسكندر ميخائيل اليازجي – وكم سرّني أن لقيت اتفاقاً في بيروت هذا الاديب المهذّب الذي سبق له أنْ أمّ سان باولو من نيويورك حيث يتّجر وحلّ ضيفاً على نسيبه الصناعيّ والأديب يوسف نقولا اليازجي فعرفت فيه دماثة الاخلاق ولين الجانب وساءني أنه لا يتمتع بصحته الكاملة بسبب ما حلّ به على يد اليابانيين الذين اعتقلوه كسواه من الاجانب طيلة اشهر في الصين ، الى حيث كانت قد دعته مصالحه التجارية، وقد أمّ لبنان مستشفياً وهو الآن مقيم في بلدته الجميلة مرمريتا الحصن . وقد كان في نيويورك من نصراء الادب وصديقاً للأدباء ، وعلى الاخص اعضاء الرابطة القلمية ، وإنْ لم ينخرط في

سلكها ، وبنوع خاص منهم ميخائيل نعيمه ناسك الشخروب الذي طالما اضافه في منزله في بسكنتا وزاره في بيروت حيث اجتمعنا مراراً. وقد عرّفني الى اخيه التقيف الياس الذي ملّ التدريس فانتقل من جحيمه الى نعيم التجارة ، والى ابن عمه الأستاذ كمال اليازجي الاستاذ في الجامعة ، وقد كان نزيله طيلة مدة إقامته في بيروت .

شفيق نصر — هذا مغترب من بيت علم وأدب لذلك عاد منذ سنوات من البرازيل الى موطنه الشويفات خالي الوطاب ، ولكنه يعيش فيها منذ ذلك العهد عيشة راضية مطمئنة . وكان له الفضل في التفتيش عني وإكرام وفادتي لأنه في جملة المخدوعين بكفاءتي ، لا بل ربما كان في طليعتهم ، ولكن ليس لي إلا أن احمد اندفاعه في هذا السبيل لانه كان من العوامل الفعّالة في تشجيعي . وهو شقيق الاستاذ نسيم نصر المدرّس المعروف في حلب وقد نعمت بواسطته بالتعرّف الى شقيقه طنوس في مكتبه في بيروت .

اديب يوسف — هذا مغترب حكيم نشأت بيني وبينه صلة صداقة عائلية في سان باولو وسرّني أنه اغتنم ظرفاً مؤاتياً فصفى اشغاله على أثر انتهاء الحرب الاخيرة وعاد مع قرينته الفاضلة سلوى فواز وأنجالهما الأعزّاء الى لبنان ليستغلّ فيه ثمرة جهاده السنين الطوال ، وهو يقيم في بيروت على مقربة من الجامعة حيث يتلقى اولاده العلم ويقوم على زراعة الأشجار المثمرة وسواها في ارض صالحة يملكها في مسقط رأسه ميمس . وإلى جانب كل ذلك استعاد كنية فوّاز التي كان قد فقدها في البرازيل جرياً على مألوف الكثيرين من المواطنين في اختصار اسمائهم تسهيلاً للفظها على الوطنيين فأصبح اديب يوسف فوّاز .

الوساطة والشفاعة — كم تذكرت في بيروت وسواها ايام الصغر عندما كان لا يؤم قرية أفاقٌ بدبّ او سعدان ليستغلّ فضول الراغبين في التلهي والتسلية حتى يهرع الناس كبارهم وصغارهم لمشاهدة

الحركات المضحكة التي يقوم بها احد هذين الحيوانين المروّضين .

وكان في جملة الدعاة الذين اغروا المربيّ القدير الواسع الاطّلاع الاستاذ حسن فرّوخ بزيارتي في صومعتي مساعده في إدارة مدرسة حوض الولاية الزاهرة ابن العم ميشال الياس ضعون . وقدم هو والاستاذ في الموعد المعيّن فحمدت للزائر الكريم زيارته المشرّفة وكنت طيلة الوقت آخذاً لا معطياً ، ولم يكن هذا بالشيء المستغرَب ، ولكن حدث اتفاقاً ودون علم مني ما اكسب اجتماعنا ذاك معنىً خاصاً وجرّ الى موضوع ذي بال يصلح درساً وعبرةً . ذلك انه بدلاً من ان تقدّم القهوة صاحبة النزل او زوجها دخل بها احد النزلاء وهو فتىً يُدعى انيس زيدان فأبدى الزائر الكريم دهشته لتطوّعه لتلك الخدمة التي لم تكن من شأنه . ولكن على اثر انتهاء تلك الزيارة ابلغتني صاحبة النزل ان ذلك الفتى اصرّ على ان يقوم عنها بذلك الواجب وودّ لو اضاف اليه من عنده تقديم شيء من البرتقال استدراراً لعطف مدير ذلك المعهد التربويّ عليه لأنه من تلاميذه ، وأنه ينتظر مني لقاء خدمته تلك العمل على كسب عطف الاستاذ عليه. فأبقيت ذلك في ذاكرتي حتى جاء موعد قيامي بواجب ردّ الزيارة للاستاذ في مكتب المدرسة عينها فسألته ما اذا كان يتلقى احياناً مثل ذلك الاستدراج الصامت فجهر بما كنتُ اتوقّعه او اخشاه وهو أنه في مواعيد الامتحانات يستتر عن الاعين ويودُّ طالبي مقابلته بمختلف الأساليب والأعذار فلايلبي لأحدٍ طلباً الا اذا كان قانونياً ومشروعاً. فاطمأننت وازددت إعجاباً بنزاهة المربيّ القدير الحكيم وعدت فألقيت على ذلك التلميذ موعظةً كان لها وقع حسن في نفسه وما أحسبه ينساها . وقد اثبتُّ هذه الحادثة لكي يتعظ بها امثاله .

ولا يسعني في هذا المقام الا أن أستغرب ، ونحن في لبنان بلد الذكاء والمقدرة على التحصيل ،أن يتذرّع الدارسون بالوساطة والشفاعة

ليفوزوا بعلامات جيدة ، متناسين انهم بـذلك يجنون على انفسهم ومستقبلهم ويقفون موقف الذلة والاستجداء ، وفي استطاعتهم بالدرس والاجتهاد أن يتفوّقوا عن جدارة واستيهال ويظلوا اعزّاء موفوري الكرامة بـدلاً من ان يضيعوا زمن الدرس والتحصيل باللهو والاستمتاع بما يجني عليهم حاضراً ومستقبلاً ، وهو ما يجب ان يوجئوه ليكون لهم مكافأة مستأهلة على حسن جهادهم وتفوّقهم .

الاستاذ جبران مسعود — مدرّس بالقسم الفرنسويّ في الجامعة الاميركية وهو جار لابن العم ميشال وقد استدرجه كسابقه لزيارتي فوجدت فيه ذكاء وأدباً ولبيت طلبه فأعرته النسخة الوحيدة التي كانت لديّ من كتابي « ذكرى الهجرة » ريثما اتلقى بضع نسخ منه كانت في الطريق ، وقد برّت بوعدي . وقد اثبت لي بما اقتبسه من كتابي أنه من الدارسين المحققين فكان له عليّ بذلك فضل لا انساه .

الضالوّن الذين وجدتهم — وممن لقيتهم في بيروت من اصدقائي الأعزّاء في السودان إسكندر فريوه مزيل الهموم وابن حميّه اسكندر مرقص الذي قدم من اللاذقية لكي يراني . واسحق عطية زميلي في الدراسة في الكلية وفي الخدمة الحكومية في السودان ، قادماً من بينو . وفارس نصار الذي فتش عني وزارني في مكتب الريحاني . وأذكر للأخير فضل احلالي مكانه في مدرسة اليهود للصبيان في القاهرة سنة ١٩٠٤ ، ومن بعدها مدرسة البنات ، ولكنني افلحت في تلك وأخفقت في هذه لأنني لم اكن مثله « فارس ذلك الميدان » . على ان ما يسوءني هو انني لم استطع أن اذبح لهؤلاء الضالين الذين وجدتهم العجل المسمّن

وأعود بالذاكرة الى زحلة حيث لقيت ابنة العمة ليزا جحا ونجلها رشيد شاكر البركس الموظف في دائرة البريد وقد عرفني فيها اتفاقاً فعرّفني بقرينته الفاضلة وأنجاله الأعزّاء وشقيقته قرينة السيد اسعد ماروني . وقد هنأت هذين الزوجين بنجلهما ميشال الأديب الذكيّ ذي

النزعة الروائية والموسيقية، وهو صاحب مكتبة في حلب

عودة الى الجنوب – وممن عرفتهم في حاصبيا السيدة الكاملة كاملة يوسف ابو سمرة قطيط ارملة صديقي القديم في البرازيل المرحوم اديب قطيط وكريمتها ليلى ونجلها فيصل المنتظر سفره قريباً الى سان باولو ليعاون عمه لبيب في عمله، وكريمتها نبيهة عقيلة النطاسي اللبق رشيد حداد. كما عرفت الصديق القديم في سان باولو سليم دبغي وابن شقيقه فايز شقيق صديقي الكريم فارس دبغي. وما الطف الخدمة الصغيرة التي كلفني بها هذا الاخ إذ هي كانت السبيل لتعرفي الى ابنة شقيقه المذكور الآنسة الجميلة اللطيفة منى المتلمذة في مدرسة الاميركان في بيروت.

وكان لي الحظ أن لقيت في جديدة مرجعيون الاستاذ الفرد ابو سمرة صاحب «القلم الصريح» وفي بيروت اكثر من مرة الاستاذ راضي دخيل صاحب «صدى الجنوب». وإني مدين لكليهما بالفضل

وفي الكفير التي أقلنا اليها على سيارته الانيقة الشاب المهذب جميل حاوي، ابن حمي الصديق ميخائيل عزام، كان لي الحظ بالتعرف الى الاستاذ ايوب الخوري الشقيق الاكبر للنوابغ المعروفين فارس وداود وفايز وخليل يعقوب الخوري. وقد أسفت أشد الاسف للنكبة التي حلت بذلك الشيخ الجليل الوقور بفقده نجله الذكي اللامع في دمشق

اسعد اديب قطيط – هو الحقوقي اللامع الذي عرفته في سان باولو حيث قضى اشهراً بضيافة عمته الفاضلة سلوى ارملة المرحوم الياس محفوظ. وقد لقيته في بيروت على أثر إنهائه دروسه بتفوق في فرنسا وتقديمه أطروحة نالت منتهى الاستحسان، مما حمل حكومة الانقلاب على الاستفادة من علمه ومواهبه وتعمقه في الشرع الدولي فعينته مستشاراً حقوقياً في دائرة الطيران المدني

وقد كان له الفضل في حصولي على رسوم حاصبيا المنشورة في الصفحة

٢٣٥ من هذا الكتاب ، وقد اتت بحكم الضرورة في غير موضعها .

في وزارة الخارجية والمغتربين – قادتني الى هذه الوزارة رغبتي في قيد اسمي في عداد الذين اختاروا الجنسية اللبنانية ، وفيها لقيت رفاق سان باولو الذين تعاقبوا على تولي الشؤون القنصلية اللبنانية فيها وهم الاساتذة هكتور خلاط ونعيم الاميوني ومحمد فتح الله . كما تهيأ لي حظ التعرُّف الى مدير دائرة المغتربين النشيط الاستاذ فؤاد بريدي الذي عرّفني الى الاستاذ اديب نحـــاس سفيرنا السابق في الارجنتين والعتيد في البرازيل .

كذلك عرفت فيها الاستاذ مُنح براكيم الراسي بعد أن كنت عرفت في إبل السقي أخاه سلام القائم على توليد النور الكهربائي وتوزيعه على المشتركين فيها .

وكم سرّني أن اتعرّف فيهـا ايضاً الى اثنين من اشبال صديقي المغفور له إبرهيم المنذر ، ذلك الأسد في عزّته وإبائه ونبالته ، وهمـا الأستاذان بديع قنصل لبنان في العراق ، وصلاح احد موظفيهـــا النشيطين ، وكانت قد سبقت لي معرفته وقرينته وكريمته الثقيفتين على مائدة السيدة النبيلة حنينة الطرشا .

نادي المغتربين – يرئس هذا النادي الاستاذ إميل عضيمي احـد كرام المغتربين سابقـــاً ، وقد عرّفني به الاستاذ امين حتي صاحب مكتب السفريات الشهير الذي عرفته بواسطة الصديق البير الريحاني . وقد لمست في الاستاذ إميل غيرةً ونشاطاً ورغبةً صادقة في أن يجعل هذا النادي في مستوى يليق بلبنان ومغتربيه ، وقد رسم لبلوغ هـذا الغرض خطةً يقوم مع زملائه الأعضاء على دراستها بكل دقـة وروية ضماناً لتنفيذها فحبذا الفكرة التي اتمنى لها النجاح .

عزيز العبده – هو اول من عرفته إذ عـــلى اثر وصولي حللت فندقه وأنست إليه . كيف لا وهو ابن عم صديقيّ العزيزين وديـع

وشفيق ابرهيم العبده في سان باولو . وهو من الطف والبق من عرفتهم من الفندقيين ، وقد بلغ من عنايته بي أن تحوّلت من نزيل الى صديق حميم .

جورج عبّود الاشقر — هو ابن الصديق القسّ عبود الاشقر الذي عرفته في معلقة زحلة منذ خمسة وخمسين عاماً وفارقته حدثاً فجمعتني به الاقدار وهو كهل ذو قيمة ومقدار . والغريب انني لم التقِ به إلا في الزمن الأخير مع أنه الشريك الرئيسي في محل « اشقر وقربان وشركاه » الانيق الذي زرته عشرات المرّات دون ان ارى فيه سوى صديقي سليم داود قربان الشريك والمدير معاً ، ولم يخطر لي يوماً أن أسأله عن شريكه « الاشقر » المستتر او يُبلغني هو انه صهره . وكما عرفت الجدّ عرفت حفيده الشاب الذكي المهذب فؤاد جورج الاشقر الذي تخرّج آخراً من الجامعة الاميركية طبيباً .

وعلى اثر هذا اللقاء الذي سرّني كثيراً ضمّنا اجتماع عائليّ كان له اطيب الاثر في نفسي ، وكان واسطة عقده صديقي الاستاذ نصري داود قربان على اثر عودته من سان باولو ليستقر نهائياً في لبنان .

حليم رحباني — وفي المحل عينه عرفت ونعمت بطيب عشرة هذا الشاب المثقف الواسع الاطلاع في اللغة العربية وآدابها والحافظ لعهدها برغم اغترابه الطويل في إحدى الولايات الجنوبية من اميركا الشمالية . ولا بدعَ فهو من أسرة اشتهرت بالعلم والوطنية والفضل

ليندا عبدالله — وهذه مغتربة كريمة في نيويورك يصحّ عليها الحكم السابق عينه . وهي شقيقة صديقي يوسف عطيه وابنة شقيقة خاله توفيق مسرّة . قدِمت بعد غيبة عشرين عاماً في نيويورك حيث تعمل أمينةً في « المكتب العربيّ الأميركيّ للخدمة التجارية » . وكان فرح الوالدة والأهل والأنسباء بها كبيراً . وقد حضرت حفلتين ترحيبيتين بها أقام الأولى منهما شقيقها في سوق الغرب والثانية

خالها في بيروت . وفي هذه استحقت إعجابي فنوّهت في الحفلة عينها بفضلها ونصبتها مثلاً لسواها في كلمة الشكر التي القتها بلغة عربية فصيحة وعبارات منسجمة متزنة مليئة بالعواطف النبيلة فكانت مثالاً للمغترب المفاخر بأصله المعتزّ بوطنه المحافظ على تُراث اجداده .

وسيم **امين تقي الدين** – اكتشفته في إدارة « الجريدة » وعلمت أنه ابن زميلي في الدراسة منذ ستين عاماً الاديب والشاعر المجيد الشيخ امين تقيّ الدين ، وقد وجدت فيه الشيء الكثير من سمات والده ، وفي طليعتها الشاعرية ، بدليل هـذا النموذج الذي أثبته من شعره بعنوان « الهوى المحطم » :

كانَ لي حُبٌّ مدى الخاطرِ غنّاهُ صِبايا
أخضرُ اللحنِ منَ الطّيبِ بَرتهُ شفتايا
أشقرُ الأحلامِ ينسابُ على خفقِ مُنايا
كانَ دنيا رغبتي النّشوى وأفراحَ هنايا
فغدا اليومَ سراباً نفضتهُ مُقلتايا
فعلى جفنيَّ منهُ بعضُ الوانِ رؤايا

***

هكذا ضلَّ فؤادي هكذا مات هوايا
واستبدّت بي ظنوني وتولاّني أسايا

رفيق معلوف – وهذا صنوٌ لسابقه عرفته في إدارة « الجريدة » وفي منزل نسيبه وصديقي الشاعر قيصر نعمان المعلوف ، والى القارىء نموذجاً من شعره بعنوان « خيبة » :

أسفي ضاعَ كلُّ عهدٍ بليلى وغدا الحبُّ ذِكرياتٍ تَهيجُ
ذُبلَ الوردُ والليالي استحالت وتبقّى على يديَّ الاريجُ !

الياس قلفاط – جمعتني به الصدفة في منزل الصديق توفيق مسرّة فعلمت أنه صاحب المطبعة المتقنة التي ذكرها لي صديقي جبران قلفاط

يومَ ودعته في سان باولو . ولكن بعد ان سمعته يرتل بعض الالحان الكنسية بصوته المطواع الشجيّ الرنان وثقت من انه احد اصحاب المواهب الضائعة في الشرق وأسفت لانه احد المشتغلين بالطباعة بدلاً من أن يكون متفرّداً بفنه كمطرب

ثريا مسرّة بيضا – هي السيدة المثقفة شقيقة الاخ توفيق وأرملة العصاميّ اللبنانيّ جبران بيضا . والغريب انها الموهوبة الوحيدة بين اشقائها وشقيقاتها جميعاً في فن التصوير ولها فيه روائع ، ولكنها مارسته كهواية ، ولو اتفق لها ان احترفته لكانت في عداد المجلّين

عبد الحفيظ محمصاني – اديب وصحافيّ لقيته آخراً صدفةً على أثر عودته من رحلة في اميركا الجنوبية في سبيل كتاب اصدره عن لبنان فاحتفى بي أيما احتفاء وعرّفني ، كخطوة تمهيدية ، بنسيبه الحقوقيّ اللامع صبحي محمصاني ، على أن لا يدع ذا مقام وخطر في بيروت دون ان يعرّفني به . ولكنّ هذه النجدة غير المنتظرة جاءت متأخرة إذ بات يعوزني الوقت للتعرُّف الى وجوه جديدة .

وما أشبه موقفي مع هذا الاديب الكريم بموقف الطبيب المغصوب فهو يُصرّ على مبادلتي الخدَم الجليلة التي اديّتها له في سان باولو وأنا لا اذكر ولا واحدة منها . وقد ابى إلا ان أرافقه الى مكتبه حيث ساق اليّ صنوف الاكرام ثم اقتادني على رغمي كشاة للذبح والتقط لي على الرصيف عدة رسوم معه ومع معاونيه ونشر بعضها في جريدته الأسبوعية « العاصمة » .

ولست ادري ، وقد سامني كلّ ما لا يتفق وطبعي وخطتي ، أأشكره أم اشكوه !

سعيد عقل – هو الاديب الزحليّ المعروف بسعة اطّلاعه وعمق تفكيره وشعره الرمزيّ الذي ظللت حياله كما ظلّ جميل صدقي الزهاوي حيال ريق الحبيب ، بدليل قوله :

لم يذقهُ فمي ولكن ظنوني بلُغَتنيه من وراء اللثام

وما سعيت يوماً اليه وما كنت اودُ ان أجتمع به لبعد ما بيننا وعدم توقُعي التفاهم معه على امر . ولكن شاءت الاقدار ان تجمعني به في منزل الاستاذ جورج كفوري وعقيلته المارّ ذكرهما فندمت على ما فاتني لكثرة ما بينه وبيني من الشبه في التخيُّل ووضع النظريّات في المقام الاول فهو مؤمنٌ بقدسية الأدب يشجب التطفُّل على موائده ويحصر ممارسته بالأكفاء . ولا يُثبت الكفاءة في عرفه كمحك النشر في دُوره المعروفة وإلا كان الأديب مُداناً اذا هو نشر إنتاجه بنفقته او استعان بحكومة او متموّل او فريق من المتموّلين ، لذلك هو دان القرويّ لان فريقاً من مجموعنا الكريم في البرازيل والأرجنتين اعانه على طبع ديوانه « الألفي » وقدّم له على شكل يستفهه هو ويشجبه ، فلم أستطعْ إلا أن أوافقه على كل مـا ادلى به ، ولكنني ، وأنا في سبيل إصدار كتابي هذا على الأسلوبين عينهما اللذين عابهما على القرويّ ، لم يسعني الا انْ أصارحه بالواقع فيُجري عليّ الحكم عينه

والغريب ، وقد افهمته أنْ لا سبيل الى تصريف كتاب في ايّ مهجر إلا بطريق العرض ، أنه اصرّ على ان من واجب الادباء ان يقنعوا القادرين من المغتربين بأن ينشئوا بأموالهم داراً للطباعة والنشر !

والأغرب أنه قدّر مما قرأه لي أنني في الخمسين ، وقد أصرّ على صحة تقديره هـذا حتى بعد أن رآني .

« **مصائب قوم ...** » – قضت الاقدار بان أحرَم في حمص من لقاء رجل الفضل والمروءة وصديق الصبا محرز سلامة ثم اصلحت مـا افسدَت بأن حملته اليّ الى بيروت التي جاءها مع شقيقته اولغا لمرافقة مرض ابن شقيقتهما سيمون كبّاش في مستشفى الجامعة الاميركية حيث أجريت له عملية جراحية على عينيه كان نصيبها النجاح والبرء التامّ

وسيمون شابٌ مهذّب موظف في فرع البنك السوري في حمص

فيليب خوري — شابٌ ثقيف مهذّب يعمل في السفارة الاميركية في بيروت ، اجرى التعارف بينه وبيني ابن الخال باترو يني ، وكان لي خيرَ معوان للحصول على إذن لدخول الولايات المتحدة كما كان له الفضل في تعريفي الى شقيقته الثقيفة الراقية خرستين خوري رزق

خليل زيدان — بحكم الجوار عرفت هـذا الصناعيّ الاديب وقرينته الثقيفة إيفا صباغة وشقيقها فكتور الموظف في دائرة المحاسبة في الجامعة الاميركية ، وممن تحلو عشرتهم .

وخليل اديب كتب ونظم ولكنه ارعوى قبل ان يتوغل وانصرف الى الصناعة فأفلح وظل يتذوّق الادب . وهو محدّث لسن وذو حافظة ممتازة وراوية للجيد المعجب من المنظوم .

عبود نصرالله — مغترب مفلح في افريقيا وتحمله احياناً مصالحه التجارية الى اوروبا واميركا كما يؤم لبنان للاصطياف في ربوعه مع عيلته المقيمة في بيروت . وكان قدومه آخراً لهذه الغاية سبيلاً لتعرُّفي اليه بعد ان كنت عرفت في بيوت الأنسباء قرينته الاميركية المولد فدوى الفرّان وعرفت فيها الذكاء وخفة الظلّ وروح الدعابة . ولا بدع فهي ابنة المرحوم الياس الفرّان الذائع الصيت الذي اشتهر بروائعه في الشعر القوميّ كما اشتهر بوطنيته الصميمة وثقل وطأته على الحكم التركيّ ضمن دائرة إمكانه المحدودة حتى جاء وقت اضطر فيه لمغادرة لبنان الى اميركا حيث ظلّ يذكره ويحنُّ اليه حتى النفس الاخير . وهي تنظم الشعر القوميّ وتلقيه ولكنها تكتبه بالحروف الانكليزية ، واذا لم تحفظه تتعثر احياناً في قراءته .

واتفق أنْ زرت السيد عبود مسلّماً فاذا بي امام رجل مثقف متمكن من اللغات العربية والانكليزية والفرنسوية ، ومع ذلك رأيته يبيح مزج العربية ببعض الاوضاع الاجنبية يأساً منه من مجاراة لغتنا للتطوُّر العصريّ لتخلُّفها عن سائر اللغات الحية في النحت والاستعارة ،

ولكنَّ تلك الزيارة العابرة لم تتسع لاستيفاء البحث في هـذا الموضوع الحيويّ الخطير .

فؤاد النجار وأنيسة روضة ـ زوجان مثقفـان ثقافة عـالية عرفتهما في منزل الاخ البير الريحـاني . والسيد فؤاد مهندس زراعيٌّ مفلح . ومما سرَّني أنني علمت بالاستقراء أن الزوجين من الطـائفة الدرزية الكريمة وخـالهما كليهما صديقي القديم الـكريم في السودان يوسف النجار الذي توصَّل الى منصة القضـاء وكان مفكراً ومحدّثاً لبقاً وكاتباً لامعاً .

روز عطاالله شحفه ـ هي الاديبة والمفكـِّرة والخطيبة المعروفة ، وقـد صدرت لها آخراً مجموعة خطب قيّمة نشرت رأيي فيها في مجلة الشرق في سان باولو ، ولا بدعَ فهي من بيت علم وتقى وصلاح .

وتربطني بها صلة نسب من جهة امرأة الخـال صوفيا عطاالله يني ، وقد عرفتهـا في حداثتها ثم رأيتها بعد عودتي زوجاً لحمصيٍّ كريم هو السيد سرحان شحفه ، وقد انجبت له ثلاثـة ذكور هم وليم الطبيب قرين مينرفا ابرهيم عطاالله ابنة ابنة الخال ماري يني عطاالله ، وإميل والبير ، وأنثى واحدة هي سعاد قرينة السيد إدوار بشُّور

تهنئة بحماة ـ وهذه من الغرائب إذ أن المشهور والمتعارَف أن الحماة هي آخرُ من يُهنأ به ولكنني أستثني ، لا مجاملةً بل اقتناعاً ، الشيخة الجليلة لطيفة الصغيِّر شقير حماة الصديق البير ريحاني وأرمـلة المرحوم سليم فهد شقير الذي كان من الرعيل الاول الذي احرز رتبة ب . ع . من الكلية الانجيلية والجامعة الاميركية اليوم . ولكنـه توفي في سنّ مبكرة تاركاً لها أعزّاءهما وديع وفؤاد ولورين ، ونصرة المقيمة في بنغازي مع قرينها الموظف في السفارة البريطانية فيها .وقد قبلت مصيبتها بالشكر وجاهدت جهاد الابطال حتى ابلغت اولادها جميعاً اعلى مستوى ممكن من العلم . وقـد سبق لي وصف كريمتها

لورين كما علمت أن ابنها وديعاً صيدليٌ مفلح في الخرطوم وفؤاداً طبيب في السودان ومركز عمله في مديرية كردوفان .

وهي حاصبانية عزومة حزومة ، وإلى ذلك دمثة الطبع ذكية الفؤاد خفيفة الظلّ حاضرة النكتة ، تتذوق الادب وتجيد نظم المقطعات العامية ، فأسأل لها العمر المديد لتنعم طويلاً بثمرة جهادها في سبيل الفضيلة والكمال الانسانيّ وأهنىء بها الأخ البير تكراراً

برثا كابس ريحاني — كانت مفاجأة لي أن اعرف في تلـــك الليلة التي احياها الاخ البير ريحاني ، احتفاء بقـدوم الشيخ الطبيب هاشم ، هذه السيدة الاميركية الآخذة بناصية الادب والفن والتي تتمتع في محيطها الراقي بمنزلة رفيعة ، وأن أعلم انها الى ذلك زوجة امين الريحاني حبيبنا وحبيب العرب قاطبةً . وقد انسنا في تلك الليلة اليها ورأينـا من أدلة ذكائها وسعة اطّلاعها ودقة نظراتها الفنية الشيء الكثير ، كما كانت « الجريدة » سبّاقة الى استنزالها لحديث طريف ممتع بواسطة الاستاذ الجسر ، احد مخبريها الأذكيا الموهوبين

نينا عربيد يني — لقد شقّ عليّ ان لا أستطيع الانتقال الى القاهرة لمشاهدة ابن الخال العزيز بولس يني وعيلتـه العزيزة ، ولكنني تعزّيت نوعاً اذ تهيأ لي ان اتعرف الى نصفه الافضل نينا كريمة الطبيب إبرهيم عربيد ، وإذا بي أمام سيدة ذكية مرحة لبقة تجتذب اليها القلوب فلم يسعني بعد أن عرفتها وأباحت لي للمرة الأولى اقتطاف بضع قبلات من خديها الناعمين ، على سبيل المبادلة الضئزى ، إلا أن أهنىء ابن الخال العزيز بحسن اختياره وأتمنى لو تهيأ لي العيش بقية العمر في جواره !

هدية تولّد شعراً — بحكم العلاقـة التي نشأت بيني وبين شاعر الحياة قيصر نعمان المعلوف عرفت صهره المثري المعروف الفرد سكاف وقرينته الثقيفة نينا كريمة الشاعر ولقيت من لدنهما حفاوةً لا انساها، كما أني لا أنسى تلطف السيدة نينا عندما اعتزمت العودة من سان باولو

بحملها الى والدها مني هدية تبغ برازيلي ارفقتها بهذه الابيات :

من تِبغِ ارضٍ حلها | «اعطيتُ قيصرَ ما له»
فشكت طويلَ بعادهِ | عنها وقالت ما له
فأجبتها قِرّي فعطركِ | عنك قد اوما له
ومتى تمايلَ عطفهُ | قولي الحنينُ أماله

فتلقيت منه الأبيات التالية من نفسِ الوزن والقافية :

أعطيتَ تبغَكَ قيصراً | وجعلتَ ما لكَ ماله
وكذا الكريمُ فإنهُ | ابداً يجودُ بما له
أومأتَ للعاني وكمْ | عهدُ الوفا أوما له
لكنّهُ عن ميْلهِ | صرفُ المشيبِ أماله
شكراً أبا الافضالِ مَن | يتلفّتُ الأعمى له
نقلَ النسيمُ عبيرَهُ | وتلا الندى اعماله

عبد اللطيف اليونس – ما أخطأ من دعا هذا النائب السوريّ السابق «عبد اللطيف» ، إذ ما كاد يعلم بوجودي في بيروت حتى بعث إليّ بواسطة صديقي الشاعر صيدح بتحية معطّرة بشذا أدبه الرفيع أذكرتني الأثر الطيب الذي خلّفه في سان باولو كأديب لامع وخطيب ملسان . ثم اجتمعت به في بيروت التي أمّها قاصداً البرازيل والأرجنتين يصحبه مودّعاً شقيقه الذكيّ المهذّب محمود ، فنهلت من معين أدبهما وظرفهما طيلة يومين كما زرت برفقتهما إدارة جريدة الحياة فأعجبت بعصامية وإقدام صاحبها الأستاذ كامل مروّه وبكل ما شاهدته في دوائرها ومكاتبها الحديثة الطراز من ادلة النظام والدقة والترتيب . وفيها عرفت للمرة الاولى المربّي القدير الاستاذ حسن الأمين الذي سبق لي أن أعجبت بما نُشر له من جيّد الشعر عند ما كان زائراً في الارجنتين .

وحضرت جلسة أنس في قاعة «منصور» دعاه اليها صديق الأدباء

السيد جودت شبُّوع صاحب مكتب السفريّات الشهير ، تهيأ لنا فيها سماع قطع غنائية لطيفة ، كان اعذبها وقعاً ما شنّف به الاسماع المطرب الموهوب وديع الصافي الذي عرفته في البرازيل .

وتلت هذه الجلسة مأدبة عشاء وداعية فاخرة اقامها له السيد جودت في منزله العامر وفي صباح اليوم التالي ودّعناه في المطار آسفين لفراقه، مهنئين إخواننا في المهجرَين الكبيرين بطيب لقياه ومتمنين له طيب الاقامة بينهم والعودة الى مقرّه في صافيتا سالماً .

عصبة الزجل – اذكر من اعضائها اللامعين ، الى جنب رئيسها الشاعر والكاتب المجلّي الاستاذ وليم صعب صاحب لسان حالها مجلة « البيدر » ، الاخوانَ خطار إبرهيم وشفيق ابو نعيم وفؤاد مطر ، ابن شقيقة صديقي في البرازيل المرحوم اسكندر ماضي ، والشاعرة القوميّة المجلّية الآنسة حنينة ضاهر ، وهما اللذان تجري بينهما مساجلة شعرية طريفة من يدري ما اذا كانت لا تؤدي يوماً الى ما أتمناه لهما ! وأخيراً رجلَ الأخلاق والعواطف النبيلة والمدرّس الحاذق الأستاذ رزق الله قطيطه الذي كان له الفضل بتعريفي الى الشابّ المثقف الواسع الاطّلاع والاداريّ النابغة جوزيف رشيد متيني صاحب معهد العلوم التجارية والفنية الذي يُقبل عليه مئات الطلبة لحذق اللغات الحية والعلوم العملية على اختلافها . وبفضل جهاده وحسن تدبيره نما نموّاً مدهشاً وبات في حكم المقرّر إنشاء فروع له في بيروت وطرابلس وسواهما .

الفيكونت فيليب دي طرّازي – هو العالم العامل الذي بلغ التسعين ولا يزال بكامل وعيه ونشاطه الفكريّ مؤيّداً بذلك نظريتي في أن الحياة تبدأ في السبعين . وقد استعاض آخراً عن نور البصر بنور البصيرة فاستعان بتطوّع نبيل هو الاستاذ إبرهيم ناصر سويدان يقرأ له ويُملي عليه ما يعنّ له من المنثور والمنظوم .

وهو صاحب الفضل في تأسيس المكتبة الوطنية وتنظيمها ، وإثباتاً

لحبه للعلم ورغبته في انتشاره أهدى من مكتبته المحتوية على اثني عشر الف مجلّد ٥٦٠٠ مطبوع و ٣٤٤ مخطوط الى المكتبة الوطنية و٢٨٠٠ مطبوع و ٢٢٠ مخطوط الى مكتبة دير الشرفة

وفي مكتبته تحف أدبية نادرة أهمها ثلاث مجموعات من خطوط مشاهير الشرق ، ولا تقلُّ عنها اهمية مجموعة مؤلفة من العدد الاول من كل جريدة عربية صدرت حتى اليوم ، وعددها سبعة آلاف ومئتان

وقد زرته بصحبة الأخ البير الريحاني متبرّكَين وتمتعنا بعذوبة حديثه زهاء ساعتين وتلطف فأهدى الى كلٍّ منا مجموعة من بعض مؤلفاته القيّمة هي :

٣ مجلّدات من كتابه : « أصدق ما كان من تاريخ لبنان » ، « وخزائن الكتب العربية » الجزء الرابع ، وديوانه « قرّة العين » بالشكل الكامل .

وودّعناه شاكرَين وداعيين له بطول البقاء لكي يزداد إنتاجه ونفعه

كيف عرفت حميد فرنجيّة – حميد فرنجيّة حقوقيٌّ لامع ونائب جريء ، كما كان وزيراً خطيراً ومنافساً وحيداً للرئيس الحاليّ على أثر الانقلاب ، غير أنه وقف بتنزله طوعاً موقفاً نبيلاً كنت في عداد قادريه . ولكنّ كلاً من هذه الصفات ، وكلها مجتمعة ، على خطرها ، كان من شأنها ان تقصيني عنه ، عملاً بدستوري السابق الذكر . غير ان الأقدار شاءت ان تجمعني به على صعيد آخر ، ولسبب يكاد لهجته يكون من نسج الخيال ، فهو خطبة الحقوقيّ والصحافيّ حنا غصن للآنسة جاكلين صيدح . ذلك أني كنت في عداد شاجبي هذه الخطبة لعدم التناسب في السن ، وفقتهم بسبب تهمة الصقها به نسيبٌ لي وافقني على خطرها والد الخطيّبة صديقي الكريم الشاعر جورج صيدح ، ولو هي ثبتت عليه لامتنعت عن حضور حفلة الزفاف ، وربما حال دونه والد العروس نفسه . فلما اتصل خبر تلك التهمة بالعريس

أحالني على حميد فرنجية كمفوّض عنه في إبطالها وتقديم الترضية المطلوبة

وكان أن زرت هذا اللبنانيّ الكبير في مكتبه فأحسن استقبالي الى حدٍّ لم اكن اتوقعه وكان طيلة مدة تلك المقابلة التاريخية التي لم تكن قصيرة لا يتمالك نفسه من الضحك لان حكاية تلك التهمة لم تخرج عن دائرة المزاح البريء، ولم أنصرف من حضرته الا بعد أن اثبت لي وراء كلّ شك بطلانها ،حتى إني ، وانا وكيلٌ مكلّف لا أصيل، رأيت من واجبي ان أكفّر عنها بالعدول عن موقفي وحضور حفلة الزفاف ، كما حضرتها فعلاً .

والى القارىء القصيدة الرشيقة التي اعلن بها الشاعر جورج صيدح خطبة ابنته ليلة رأس السنة ، وقد أعجبت كل من سمعها وطالعها الى حد ان تغني ببعض ابياتها سوّاقو السيارات المرابطون حول فندق نورماندي :

ربّيتها بين اجفاني وبي جزعٌ — من أنْ تعثّرَ بين الهدبِ والجفنِ
حتى إذا أعبلت واشتدّ ساعدُها — حنّت الى أفُقٍ تنأى به عني
مضى الزمانُ الذي أشبعتُها لعباً — فيه وجاء زمانُ اللعب في ذقني
كانت تروحُ وتغدو إن أذنت لها — فأصبحت ترقصُ «السامبا» بلا إذني
يبني على الرمل من يبني على ولدٍ — قصورَ آمالهِ ، يا غُبنَ من يبني
قلبُ العذارى بياضٌ حالمٌ بفمٍ — يُملي عليه الهوى في الشرح والمتن
اللهُ في عون حسناء يراودها — عن نفسها صحفيٌ حاذقُ الفنّ
باللفظِ يُسكرها باللحظ يسحرها — وأيُّ إنسيّةٍ تقوى على الجنّ

* * *

ياخاطبَ الحسن والاخلاق فزتَ بها — لا خاب ظنُّكَ في العقبى ولا ظني
هذي الوحيدةُ أنت اليومَ واحدُها — عن الغنى بهناء الحبّ تستغني
مهرتها أدباً يعلو على أدبي — فاستعذبت منك ما لم تستطب مني
ماساومت في انتخاب الكفء بل عمدت — الى انتخابٍ بلا رشوٍ ولا طعن

خيّرتُها وهي تدري ذوقَ والدِها   فاختارت الصهرَ من لوني ومن وزني
إني أفاخر أصهـارَ الملوكِ بهِ   والحدُّ أفضلهُ في حـدّةِ الذهن
أقولُ للقلبِ أنزلهُ على سَعـةٍ   فأنتَ يا قلبُ بيتٌ لابنتي وابني

وهذه هي الأبيات التي وجهتها الى ذوي العروسين على أثر انتهاء حفلة الزفاف :

بهذا العرسِ راعيتم   طِباقاً عزّزَ الفنّا
فصيدحُ في الهوى طيرٌ   على « غصنٍ » النقا غنّى
وفرخـةُ عشّهِ فرعٌ   لمجتمِ أصلهِ « حنّا »

الاستاذان البير اديب وشكري بخاش — بحكم الصلة التي ربطتني بهذين الأديبين كممثل في البرازيل لمجلة الاديب وجريدة زحلة الفتاة لقيتهما مراراً في ادارتيهما ومنزليهما العامرين وحظيت منهما ومن عيلتيهما الكريمتين بكل رعاية وإكرام اذكرهما بالامتنان .

« ما فاز باللذة الا الجسور » — هذا قول ينطبق على صديقي العزيز جان ابو منصور فانه ما كاد يحلُّ زحلة زائراً حتى لقي الآنسة الثقيفة المهذّبة عائدة كريمة الاسنانيّ إبرهيم شحادة وقرينته منيرة ضومط شحادة فأقدم واقترن بها وصحبها الى مقرّ عمله في سان باولو ، وقد هنأته بالأبيات التالية :

غادرتَ ارضَ الغربِ تبغي نزهةً   في الشرقِ لا تبغي سواها فائده
لكن هداكَ لدى وصولكَ هاتفٌ   في الصدر : يا جانُ الحقيقة واحده
ما دمتَ من بعد التمتعِ عائداً   شرطُ التوافقِ أن توافقَ «عائده»

كيف عرفت مارون عبود — كنت ذات يوم في مقهى الجمهورية وإذا بجليسي الأستاذ أحمد مهدي حيدر يسألني ما اذا كنت اودُّ أن التقي الناقد النابغة مارون عبود لانه مرَّ من امامنا في تلك اللحظة منصرفاً ، فاستعجلته في اللحاق به فأدركه وأقبل الناقد الساخر المخيف قائلاً : « ما كنت لأعود تلبيةً لرغبة مغترب من اساطين المال ، اما

والداعي الاديب ضعون فعودي مضمون »

وكان لقاء قلت بعده مع سمعان : « أطلق الآن عبدَك يا ربّ بسلام ... » ! ولكنّ الربّ لم يُطلقني فاجتمعت به ثانيةً كما مرّ

محاضر فذّ — لم أسمع بعد حبيب اسطفان محاضراً ذا بيان مشرق خلاّب يأسر سامعيه ويستولي على مشاعرهم كالحقوقيّ الشهير مصطفى السباعي الذي سمعته في قاعة الميتم الاسلامي مشيداً بالاسلام مؤيداً لرسالته فكان إعجابي به كبيراً .

صفقة رابحة — من الرسالات التي عادت عليّ تأديتها باللذة والفائدة، كما اثمرت عبرةً لسواي ، التحيةُ التي حملتها من صديقيّ الاديبين الياس الوف في سان باولو وأخيه جان في الريو الى والدتهما وأخويهما: نقولا احد صاحبي نزل قادري في زحلة ، وإبرهيم الموظف في بيروت، فقد خفّفت من لوعة تلك الأم الفاضلة بذكري لها أمهات فارقهنّ جميع اولادهنّ ، كما هنأتها بعودة ابنها نقولا من سان باولو ليكون مع عيلته بقربها بصورة دائمة في زحلة ، وقد وجدت فيه انا نفسي اخاً .

وفي النزل عينه لقيت رفيق الصبا والدراسة نجيب نكد الذي سرّني أنه اصبح من كبار رجال المال والأعمال دون ان يجفّ ويفقد نزعته الأدبية . والصديق نخله رابيه صاحب التجارة الواسعة في شمالي البرازيل وقد كان مثال المغترب الحكيم ، إذ بعد أن أضنكه وأضناه طول الجهاد القى عبء أعماله على سواه وآثر على التداوي الدائم في البرازيل العيش مع زوجته وأولاده في لبنان متمتعين بالصحة والزهو والنشاط.

زد الى ما تقدّم تعرُّفي الى شريك النزل الآخر خليل قادري المجونيّ الذي لا يجارى في سخريته وخصوبة خياله وإجادته الخارقة في التعبير والالقاء بحيث يغذّي نزلاءه جسديّاً وروحيّاً في وقتٍ معاً .

سامي سليم — عرفته كهلًا وديعاً بشوش المحيا لين الجانب يتردّد على مكتب الريحاني وله فيه حبّ واحترام لانه من رجال الله

الصالحين ، ولكنه صاحب عقيدة ينافح عنها ويكافح في سبيلها في صلابة وإصرار ضمن دائرة إمكانياته المحدودة ، وأقصاها إصدار نشرات وتوزيعها بنفقته بتوقيع « الرجل المجهول » ، يهدف فيها الى خير وطنه ومواطنيه وإحياء ذكرى شهداء لبنان وسوريا بإقامة أنصاب لهم في البلدَين . وقد عُرف بهذه الصفات حتى اصبح بها « معلوماً » . ومما جاهد في السبيل الاخير استحق ما رشح له الشهداء إذ ناله مثلُ مصيرهم على يد بعض ذوي قرباه الطامعين بقليله ، رحمه الله .

رأيٌ في القرية اللبنانية — بعد ان تنقل الشيخ أحمد البشير الطيب هاشم في بعض انحاء لبنان عاد برأي وجيه هو أن مستوى العيش في لبنـان أعلى منـه في ايّ قطر عربيٍّ آخر زاره ، مستنتجاً ذلك من حياة الفلاح اللبنانيّ مأوىً وكساءً وغذاءً ، الى جنب كرمه كمضيف

جديدة مرجعيون — اعود الى ذكرها بمناسبة حصولي على الرسم التالي منها بهمة صديقي الكريم وابنها البارّ وديع جباره الذي عـاد اليها منذ اشهر من سان باولو ، وسعي مُساكِني جميـل فهد راشد الموظف في العدلية . وكاد يكون أصعب منالاً من النوق العصافيرية



(جديدة مرجعيون مركز محافظة الجنوب)

فضلٌ لا انساه – لقد أسعدني ان لقيت في لبنان ثلاثين شخصاً تكرّموا بقبول كتابي « ذكرى الهجرة » هديةً كما أمضني أن احدهم، وهو صديقي الشاعر الياس حنيكاتي ، اكرهني ، تحت طائلة تقبيل يدي ، على أن اقبل منه فلس الأرملة لقاء هديتي .

وقد تلقيت من اصدقائي الأدباء والشعراء المؤلفات التالية التي لا مجال لديّ لتناولها بما تستأهله من الاسهاب فأكتفي اضطراراً بالاشارة اليها والشكر عليها :

« **قلبٌ يغنّي** » – شعر للاستاذ وديع ديب الذي يحفظ ويروي الشيء الكثير لأفذاذ شعرائنا في المهجر ، وقد أعجبتني في ديوانه هذا بنوع خاصّ الأبيات التالية :

والذي صيّرَ الملوكَ ملوكاً شممٌ مات في نفوسِ العبيد

لستُ ارضى عنكَ بُعداً واغتراب في سبيل الكسب ما دام الشباب
ثروتي يا موطني هذا التراب

« **الغريب** » – شعر منثور للاديب نقولا يوسف حلبي ، ويتلخص بالعبارة التالية المدوّنة على غلافه : « وطني هذا الكون ، لكني غريب حيث يعتبرون الظلام نوراً والكفر ديناً والظلم عدلاً والشر خيراً وابن البلاد غريباً » . وفضله الآخر عليّ أنه لم يستنكف مما ابديته له من الملحوظات اللغوية ، بل هو أقرّها وشكرني عليها ، وهذا نادر !

« **تحرُّر وتجدُّد** » – للشاعر الطرابلسيّ جميل الحاج ، وهو يتضمن رواية شعرية تلهب العواطف وتثير الشعور بالعزة والكرامة القومية ، على الاخص اذا هو القاها بأسلوبه الأخّاذ .

موعد مع التاريخ – كتاب يتناول « تجارب الامم في ثلاث سنوات » ، كله نضج وعمق تفكير وحسن توجيه ، ولا بدع فهو من إنتاج فؤاد صروف وكفى .

رفيف الأقحوان – مجموعة من خيرة ما نظم الطبيب والشاعر نقولا فياض الذي لا يحتاج الى تعريف ، وكل ما نظمه مما يُقرأ ويعجب ويطرب .

لمن – مجموعة من الشعر الرمزي للاستاذ البير اديب صاحب مجلة « الاديب » الشهيرة ، اصدرتها دار المعارف بمصر فجاءت تحفة فنية بما يزينها من رسوم رمزية ملوّنة واستأهلت من راسخي القدم في تفهم الشعر الرمزيّ ما يفوق حجمها من التقريظ والاطراء .

ديوان الملاط – يتضمن جل ما نظمه شاعر الأرز الموهوب شبلي ملاط ، وجله من الروائع التي لم تفتني منها واحدة . وكان الفضل لصديقي الطبيب وليم نعمة في اجتماعي بناظمه اللبنانيّ الكريم بعد ان كنت عرفته سنة ١٩٠٩ .

رباعيات وتأملات – وهي سلسلة نثرية شعرية للصديق الشاعر الناثر حليم دموس يُصدرها في عشرة اجزاء متتالية وفيها الشيء الكثير من المفيد ومما يحفز الى التأمل والتفكير .

وقد أبى إلا أن أقولَ شيئاً في سلسلته فكان الأبيات التالية :

نثرتَ روائعاً من كلِّ قولٍ حكيمٍ ناشراً معهُ شذاكا
وشعرٍ مشرقٍ فكراً ونظماً ينمُّ بأنَّ داهشَ قد هداكا
فما أدري وقد أشبهتَ بحراً أأطري فيك دُرَّكَ امنداكا

جعبة الصياد – مجموعة لطيفة للكاتب اللبق الفكه الاستاذ سعيد فريحه صاحب مجلة « الصياد » ، وخير ما اعجبني فيها اخبار رحلاته الى مختلف البلدان ، وقد استندت الى بعضها في مستهلّ هذا الكتاب .

على دروب الحياة – لرشاد دارغوث الاديب الذي يهدف في كل ما يكتب الى ما يرقّ ويقوّم ويفيد ، وقد لمست في ما سبق لي أن قرأته له خُلقاً كريماً ونبالة طبع ادركت من كتابه الاخير هذا سرّهما مما ذيّله به الناشرون من سيرته والأصل العريق الذي يمتّ اليه .

مواضع النقد والتخطئة في هذا الكتاب

اذا انا قمت بهذه المهمة فما الذي أتركه للنقّاد والمخطّئين ؟ ولكنني أتناول نقطتين على سبيل التصحيح والتبرير : الأولى في الصفحتين ٢٠ و٢١ حيث أقفلت باب ذكر الاشخاص ثم جنحت الى التوسُّع فيه إذ خطر لي فيما بعد القولُ العاميُّ المأثور : « الجنة بلا ناس ما بتنداس » فبدا لي الكتاب دون اشخاص يُشيعون فيه الحياة كالقفر البلقع ، الى جنب أن الافلاس الذي رضيت به عِبء ليس من السهل حمله . والثانية قولي في الآنسة ابتهاج قدُّورة إنها « معدودة بحق السيدة الأولى في لبنان في مضامير الثقافة والوطنية والاجتماع » ، وقد اكون انسقت الى هذا الحكم بالعاطفة الأخوية التي ذكرت حكايتها ، لأنني لم أعرف جميع سيدات لبنان ليحقّ لي مثل هذا البتّ . ولكنّ الذي ينقذ موقفي هو لفظة « المعدودة » التي تفيد أنني دعمت رأيي الخاصّ برأي الكثيرين والكثيرات في هذه اللبنانية المثالية .

وأعتبر أنني كفّرت عن الأولى بما سبّبته لي من آلام لان قراري الأول أغناني عن تدوين الحوادث والاسماء في مفكرتي ، لذلك كان نبشها من مدافن الذاكرة اشدّ إجهاداً من عملية الولادة التي هوّنتها في الزمن الاخير المخدّرات الحديثة ، على أن فعل هذه في حالتي من شأنه أن يأتي بعكس النتيجة المطلوبة ، إذ كنت احوَج الى المنبّهات .

ومما يجعل موقفي رهيباً هو تقديري ما ستتبيّنه عين البغض في مولودي هذا من المعايب بعد أن تبيّنَت بعضَها عين الحب .

اللغة والمجامع اللغوية

لا ادلّ على أهمية اللغة في الربط بين الاقوام وتوحيد الأماني والأهداف من سعي المستعمرين لاحلال لغاتهم محلّ لغات البلدان التي يحتلّونها . على انها ليست بالآصرة الوحيدة بدليل إنقسام أبناء اللغة الواحدة الى شعوب متعدّدة ، كما هي حال الشعوب او الدول التي تتألف منها اليوم الجامعة العربية ، وعددها سبع . ومثلها انكلترا والولايات المتحدة الأميركية ، والبرتوغال والبرازيل ، وإسبانيا وبقية جمهوريات اميركا الجنوبية

ولكنّ حرمة اللغة وقداستها ظلّتا مرعيّتين في جميع البلدان المفتتحة او التي وقعت تحت نير الاستعمار ، برغم انفصالها عن الوطن الأم ، فجلا الفاتحون والمستعمرون عن جميع هاتيك البلدان وبقيت لغاتهم مرعيةً فيها ، شأنهم قبل ان يناصبهم الوطنيون العداء ويحاربوهم حربَ المستميت .

وبرغم كون اللغة ، ككل كائن حي ، قــابلةً للنموّ والتطوّر والتأثّر فقد ظلّ فصيح جميع هاتيك اللغات وجوهرها مصونين ، كما روعيت نسبتها الى أهلها ، فلغة أميركا الشمالية الانكليزية ، والبرازيل البرتوغالية ، وبقية جمهوريات اميركا الجنوبية الاسبانية او القشتالية .

وهذا ما خطر لي عندما انشأت في التشيلي سنة ١٩٣٤ جريــدة « الاعتدال » فوقع اختياري على عنوان يصحّ ان يشمل البلدان العربية بأسرها فكان « أخبار البلدان العربية اللسان » ، إذ لم يكن في ذلك العهد ، وحتى هذه الساعة ، وطنٌ يصحّ القول إنه دولة عربية ، ولم تكن فكرة الجامعة العربية نفسها قد وُلدت بعد ، ومع ذلك اعتبر بعض المهوّسين ذلك العنوان نفياً للعروبة عن جميع هاتيك البلدان ، وكانت

الكارثة التي قضت بأن لا تعمّر جريدتي تلك سوى سنة واحدة .

ولما كانت اللغة العربية في طليعة ما يوحّد بين الاقطار العربية كافةً فالذي استغربته ولا أزال أستغربه هو إغفال الجامعة العربية شأنها وتسامحها بإنشاء عدة مجامع لها في حين أنها كانت يجب أن تقدّمها على كل صلة أخرى فتفرض إنشاء مجمع واحد يضم مندوبين من جميع الاقطار مهمتهم التداول والمناقشة والتمحيص والتصحيح والوضع والنحت وتوحيد المصطلحات باختيار الأدلّ والأقرب منها الى الفصحى . فاذا ما استوفوا البحث في لفظةٍ ما وأقرّوها بالاجماع او بالاكثرية عمموه في كل مكان تفادياً من البلبلة وتنقيةً للغة من كل شائبة .

وإذا قيل إن لنا في تعديد المجامع أسوةً بجميع البلدان التي ذكرتها فحجة المستندين الى هذا الواقع مردودة بأن لنا شأناً خاصاً بحكم التجاور وسهولة الانتقال والاتصال ، بينما جلُّ هاتيك البلدان فروع تفصلها عن أصولها اوقيانوسات وأبعاد شاسعة . ناهيك بأن المجامع فيها علمية اكثر منها لغوية ، ومع ذلك فعندما رأت البرازيل ضرورة تبسيط التهجئة حبّاً بالاختصار وحرصاً على الوقت والمجال ظلّ مجمعها يخابر المجمع البرتوغاليّ طيلة سنوات حتى توصل المجمعان الى اتفاق نهائيّ .

هذا رأيٌ ابديته ولعله مصادفٌ يوماً أذناً صاغية .

اما الكتابة فقد سرّني وأنعش آمالي سعي الشاعر الأستاذ يوسف غصوب وعمله الجديُّ لوضع حروف عربية يسهل وصلها بحيث يُكتفى بستين حرفاً لتنضيد الجرائد اليومية ، مستعيناً لتحقيق مسعاه المحمود هذا بالخطاط الأشهر الشيخ نسيب مكارم . وقد رأيت من هذه الطريقة الطريفة نموذجاً مرضياً ، وسعي صاحب الفكرة والخطاط الموهوب متواصل في سبيل التحسين .

حكاية فهرس الاعلام

كما كان للشروع في إصدار هذا الكتاب حكاية ، قضت الاقدار بان يكون لختامه حكايةٌ ايضاً ، إذ تبين لي أن الصفحات الستّ التي خصّصتها لهذا الفهرس لم تكن كافية لاستيعاب نصفه ، لذلك اقتضاني تضمينه هذا الكتاب زيادةَ ملزمة كاملة عليه ، خلا ما بذله الأخ البير ريحاني وبذلته من الوقت والجهد والعناء في وضعه وترتيبه

وبعد ان تجلّى لي بشكله النهائيّ رأيت فيه خيرَ عِوَض عن الوقت المضيّع والجهد المبذول، وحمدت للأخ البير فكرته النيرة ورأيه الصائب إذ هما أدّيا الى الجنوح عن المألوف وتحقيق نزعتي الشعبية فالأكثرية الساحقة من الذين ورد ذكرهم فيه يمثلون الاكثرية التي تمشي على الارض وتكدح في سبيل الارتزاق ولاتضحي بسواها من اجل انانيتها وجشعها، معرضةً عن المظاهر الغرّارة والعظمة الفارغة ، مؤثرةً التواضع وخفض الجانب وخدمة المجموع بتفانٍ وإخلاص ضمن نطاق الحق والواجب ، دون أيّ تذمر او شكوى . وإذن اكون قد بلغت من حيث لم اقصد غرضاً اجتماعياً إنسانياً يرضي شعوري ويرتاح اليه وجداني

وبفضله اكتشفت أنْ قد ندّ عن ذهني اشخاص هم أجدر بالذكر والتنويه لِما في حياتهم من بوادر البطولة والتضحية اللتان تثيران الاعجاب وتوجبان عليّ أن أحصيهم في عداد أبطالي الذين سبق ذكرهم وأشيّد لهم رواقاً حديثاً . زِد الى ذلك ما تتضمنه حكايتي مع بعضهم من عِبر وعظات وذكرياتِ عذاب :

مراد بهيج البارودي — هو سميُّ جدّه الكبير الذي اشتهر بكثرة فضائله ، وما احراني بأن أطلق عليه لقب « روزفلت لبنان » إذ هو كالرئيس العظيم مصاب بشلل الاطفال . وبرغم ما اشتهر من ان

العاهة الجسدية تضعف النفس وتغري بالقعود او تبرّره ، كما قد تُتخذ وسيلة لاستيهال الشفقة واستدرار العطف ، فقد ادّت في حالة «مرادنا» الى إثبات ناموس التعويض إذ تحوّلت قوى نصفه المشلول الى نصفه السليم فنشأ ذا نفس جبّارة تزخر بالطموح والتوثّب والاقدام . فهو ذكيٌّ ثقيف عالي الهمة يقوم بأعمال كبيرة تقتضيه احياناً الانتقال الى مختلف الاصقاع النائية . وهو الى ذلك زوج ووالد لثلاثة اطفال

إملي فارس إبرهيم — لم تكن هذه السيدة مجهولةً مني فقد عرفتها كاتبةً بليغة لبقة ، وزادها الخُبرُ قيمةً إذ رأيت فيها صفات يندر اجتماعها : كالجمال والذكاء والرصانة وعمق التفكير . وإلى ذلك علمت أنها عاملةٌ نشيطة وربة بيت مدبّرة ومربية قديرة استطاعت كبعض الأعضاء الرئيسية المزدوجة في الجسم أن تقوم في اثناء غياب قرينها الطويل في فنزويلا بوظيفة الأم الرؤوم والأب العطوف معاً . فقد عاكست الأقدار قرينها المجاهد ، وكم له في كل مغترَب من أنداد .

لذلك استحقت هذه السيدة إعجابي واحترامي ، فكيف وهي الى كل ما تقدم في طليعة المجاهدات في الحقلِ النسويّ الاجتماعيّ لخير لبنان وإسعاد بنيه والحؤول دون هجرتهم الى الاقطار الدانية والنائية

سلام جهجاه — اذا استثنينا بعض الخصائص والمؤهلات فهذه السيدة ندّةٌ لسابقتها في جلّ صفاتها البيتية وقيامها بمثل أعبائها في غضون تغيُّب قرينها في فنزويلا ايضاً ، وهو المهندس اللامع جوزيف جهجاه الذي ابت الاقدار الا ان تحبط حتى اليوم جلّ مشاريعه التي كان مقدّراً لها النجاح . ولذلك استحقت كنّتها إعجابي واحترامي.

توفيق وهبي — عرفته شخصياً للمرة الاولى في سان باولو ، وكنت قبلُ من المعجبين بأسلوبه السهل الممتنع في ما كانت تنشره له الصحف عن باريس . وقد زعم أني قمت نحوه بخدمة في مغترَبي ذاك فعرض عليّ خدماته في كل ما احتاج اليه في بيروت ، مستهلاً باقتراح

مأدبة احتفائية تقام لي وتضم عدداً من رجال الفكر والقلم ونخبة من ارباب السياسة والمناصب العالية . وبالاختصار شاء ان يفصّل ثوباً فضفاضاً لجرمي الضئيل الذي جسّمته في تقديره عين الحب فشكرت له عاطفته النبيلة واعتذرت اليه بتنكبي في كل مكان ولأية مناسبة عن المظاهر التي تساوي بين الأشخاص بفعل النفخ والتضخيم ، دون مراعاة ايّ مبرّر أو وزنٍ او قياس . وإزاء رفضي البات الحاسم اكتفى بما رضيت عنه كلّ الرضا وقبلته بكل ارتياح وامتنان وهو اجتماع حول مائدة سخية في جوٍّ عائليّ ضمّ عدداً محتشماً من الأنسباء والاصدقاء فلم نصدع هدوء الليل ولا اقلقنا راحة الجيران ، كما تركنا لسوانا مهمة ملء الفراغ في الصحف السيارة بما لا يهم احداً سوانا



صباح او شحرورة الوادي – هي اللبنانية الفذّة بتعدُّد مواهبها ، وقد جمعتني بها الأقدار في حفلة خطبة ابنة بنت الخال ديانا غنطوس الغبابية الى الشاب حبيب أندراوس الموظف في عدن . وعنّ لي أن أغتنم تلك الخطبة المستهجنة فأقوم في لبنان بمغامرة كبرى على غرارها

وهي أن أستنزل الفاتنة والمطربة والممثلة اللبنانية اللعوب الطروب بأبيات من الشعر فأطبع على خدّها النديّ قبلة إعجاب . وها إني أبدو في الرسم الى جانبها محتراً تلك القبلة المسكرة ، وفي الوسط ابن الخال باترو يني مكتفياً اضطراراً باعتناق ابنة شقيقته بيمناه وقرينته بيسراه . والى اقصى اليسار الخطيبة وأمامها رسم خطيبها

ثم إنه بفضل التأخر صدر المرسوم الحكوميُ بحلّ المجلس النيابيّ ونشطت حركة التوشيح واتسعت دائرته فتهيّأ لي أن ألاحظ اساليب التذييع . وقد أذكرني ازدحام وتلاصق رسوم المتنافسين على الجدران بيتَ ابي العلاء ، ولكن بينما اللحد في بيته العامر يضحك من تزاحم الأضداد تبدو جدران المدينة كالحةً مكفهرّةً .

وقد ادركت من بعض هاتيك الاساليب مغزى قولهم في من يرشح نفسه إنه « نزل » او هو « نازل » . ولما كنت قد اكتسبت بعد عودتي الجنسية اللبنانية ، وكان التصويت قد أصبح بموجب القانون الجديد إجبارياً ، فسأكون في عداد المصوّتين وسأنتخب اثنين من النازلين مجازاً او اصطلاحاً لا فعلاً .

حادثٌ فذّ في المهاجر — وشاءت الأقدار أن لا أُغادر لبنان دون أن أشاهد وألمس أعظم أُعجوبة حدثت او يمكن أن تحدث في أيّ مهجر ، وهي إسناد منصب السفارة الى مهاجر متجنس ، وفوق ذلك أن تبلغ ثقة وطنه الثاني به أن يؤتمن على أسراره ومصالحه ويمثله لدى وطنه الأول ، برغم كثرة منافسيه من الوطنيين الأقحاح . هذا المهاجر الفذُ هو حافظ اللبان الحمصيُ الذي انتدبه رئيس جمهورية تشيلي للقيام بأعباء منصب السفارة في سوريا ولبنان وظفر بموافقة لجنة مجلس الشيوخ بالاجماع ، والنواب بأكثرية عشرين صوتاً من ثلاثة وعشرين .

وحافظ اللبان هو الذي نعمت بصداقته في تلك الجمهورية النائية منذ خمسة عشر عاماً ومثّلته تجارياً زهاء عام ونالني من فضله وفضل

قرينته الفاضلة وجيهة بِحِر ما لا أنساه . وقد كان لي الحظ والسرور بأن أرحّب بهما في نزل برِستول ترحيبَ الأخ بأخوَين ، كما استوثقت من بادرة فذّة كنت لمعرفتي بحافظ اللبنان أتوقعها وهي تنزّله عن مرتبه الشهريّ البالغ الفي ريال أميركيّ لقرينة رئيس جمهورية تشيلي لتنفقه على مشاريعها الخيرية العديدة . ولا بِدعَ فالأريحية سجية عريقة فيه بدليل قولي يوماً بلسان طالب رفده من ابيات :

فيعودُ بسّامَ المحيّا راضياً ويقولُ ذا اللبّانُ قد لبّاني

اما وجهتي ، في طريق عودتي الى مقرّي الدائم في البرازيل ، فالولايات المتحدة وكندا حيث أتعرّف الى مهجرَين من خيرة مهاجرنا وأتصل بالاخوان المغتربين فيهما فتتسنى لي بذلك المقارنة بينهم وبين إخوانهم في جمهوريات اميركا الجنوبية ، وفي الوقت نفسه اقوم ضمن دائرتي الخاصة المحدودة بالتذييع للبنان وسوريا وحمل مهاجري البلدَين القدماء واعقابهم على زيارتهما والتمتع والاستجمام في ربوعهما

ويعود الفضل في عزمي هذا الى حب ولهفة ابن العم العزيز نجيب عساف ضعون لكي نجتمع بعد فراق دام ستين عاماً ، فقد طفق منذ وصولي الى بيروت يراسلني مزيّناً لي زيارة كندا ويحمل بعض كرام المواطنين فيها على تأييد دعوته . وقد أجبته كما أجبتهم جميعاً شاكراً لهم العطف ومعترفاً بالفضل الى أن تمنّ عليّ الأقدار بلقائهم والاعراب لهم شخصياً عما أكنه لهم من الامتنان والاخلاص وصادق الود .

اما كلمتي الوداعية للبنان ومَن سأغادرهم فيه من الأنسباء الأحباء والاصدقاء الأعزّاء فتمني الخير له ولهم ، مؤكداً للجميع جسامة خسارتي بالنسبة الى كلّ منهم لان خسارتهم موزّعة عليهم جميعاً

لقد بثّ لبنان في هذا الجذع اليابس الحياة وأجرى فيه ماء الشباب ، وهما خير ذخر يحمله الى الأصقاع النائية لينفقه في سبيله حتى يعود مجدّداً الى يبسه ويلتهمه لهيب الحنين الى « أول منزل » .

لائحة بأسماء المساهمين

وهم الاخوان الذين شاطروني شرف الخدمة التي قمت بها نحو وطني فموّلوا رحلتي اليه وإقامتي فيه زهاء عام لاصدار هذا الكتاب على قاعدة:

منكَ الدقيقُ ومني النارُ أوقدُها مني المياهُ ومنكَ السمنُ والعسلُ

عدد الاسهم

٩٠ **بتسعين سهماً** : جورج يوسف ابو سمره – إبل السقي

بعشرين سهماً : عزّام عبدالله عزّام – ميمس . حبيب عبدالله عزّام – ميمس . نجيب نعمة يافث – الشوير . سليم

١٠٠ سمعان الراسي – إبل السقي . عزيز نادر – القبيات

بعشرة أسهم : مهنا صهيون – حاصبيا . فيليب وفؤاد وسليم لطف‌الله اصحاب الشركة العقارية « لطف‌الله » – بسكنتا إسكندر عيسى معلوف – زحلة . شفيق عيسى معلوف – زحلة . ميشال وجبران قلفاط (شركة النسيج قلفاط الغفلة) – بيروت . كامل عنصره – الكفير . جورج ونسيب محفوظ (شركة « لابور » للاقمشة) – حاصبيا . أدما مقدسي يافث – بيروت .

٩٠ توفيق ابو جمره – الكفير

٦ **بستة اسهم** : فدوى عطية نصر – بينو (عكار)

بخمسة اسهم : جورج عضيمي – جونية . سليم رزق – بيروت . نعمة قازان – جديتا . يوسف حبيب نكد الخوري

٢٠ قنصل لبنان الفخري في بارايبا – زحلة

٤ **بأربعة اسهم** : جورج وأندره جرمانوس – زحلة

٣ **بثلاثة اسهم** : وديع قطيني معلوف – زحلة

بسهمين : قيصر طعمـــة – قرنة الحمراء . وصفي جبرين – الكفرون (ولكن نصفه الأفضل لبناني) . جورج غصن – دوما . إميل داود توما – بحمدون . الياس جبران الخوري – بيروت . وديع ابرهيم العبدة – زحلة . سامي داود جبارة – جديدة مرجعيون . ميشال خليـل سكاف – زحلة . نقولا جحا – زحلة . ميشال اسعد التبشراني – بسكنتا . فيليب سمعان الراسي – إبل السقي . فـايز جرجس الزرزور – معلقة زحلة . جورج صيـدح الدمشقي الذي لا يستنكف
٢٦ من اكتساب الرعوية اللبنانية .

بسهم واحد : نقولا حنا لبان – راشيا الوادي . سمعان سمعان الراسي – إبل السقي . يوسف وديع جبارة – زحلة . وديع سعادة – ريو . الياس قاصوف – زحلة . جان صدي – زحلة . لويس صدي – زحلة . إميـل شربباتي – بيروت . انطون جبـارة – قرنة شهوان . ريشار وإدوار صائغ – بيروت . سعيد مسعود مراد – راشيا الفخـار . ميخائيل
١٤ عتل – زحلة . توفيق غبريل – حـاصبيا . لبيب اسعد قطيط – حاصبيا .

٣٥٣ المجموع (ثلاثمئة وثلاثة وخمسون سهماً) .

اما صديقي الحميم الكريم إبرهيم الدوماني فقـد رأى أن يضمن لي البقاء ، أجزاء وجملة ، فقدم لي صك ضمان من شركة « إنديانا » التي يعمل فيها ومنه علمت أن جسدي الفاني بجملته يساوي خمسة آلاف ليرة لبنانية ، وهذا كثير .

ورأى صديقي اسعد سعادة من إبل السقي أن يحافظ على مـالي فقدم لي محفظة نقود لطيفـة لا ازال أحتفظ بها لأنهـا حتى اليوم لم تفرغ تماماً .

فهرس الفصول والمواضيع

آراء بعض الادباء والصحف في كتابي «ذكرى الهجرة»

الاستاذ المحامي صبحي محمصاني – بيروت : « وقد تصفحت هذا السفرَ الجميلَ المفيد فوجدته ممتعاً حقاً مما يدلُّ على جهود مؤلفه العظيمة، فضلاً عما يثيره في القارّىء العربيّ من شعور الفخر والاعتزاز بأبناء قومه المغتربين وبتضامنهم الموفّق بأعمالهم الطيبة في ديار المهجر ».

مجلة «الحديث» الحلبية : « وربما كان هذا السفر أوفى كتاب عن المهاجرين في مختلف احوالهم فلم يترك شاردةً ولا واردةً إلا دوّنها بأسلوب حيّ . وقد عمد مؤلفه الى الصراحة المتناهية فكتب نشأة الكثيرين وما خفي من احوالهم . وإنْ دلَّ هذا على شيء فعلى أن ضيق الكاتب بدولة الرياء جعله أن يطّرح كلَّ عوامل المحاباة والصداقة ليرسمَ حقيقة الاشخاص مجرّدةً من كل برقع . ولا شكَّ أنه أغضب الكثيرين ولكنه أرضى ضميره بهذه الصراحة التي اعتمدها حتى في كتابته عن نفسه »

مجلة الساعة ١٢ المصرية : « والحقُّ إنه السفرالعربيُّ الاول والكتاب الاوحد الذي يجمع شتات هـذا الموضوع... فنرجو له سعة الانتشار حتى يُلمَّ الجميع بما فيه من المعلومات الدقيقة التي لا شكَّ في أنها ستفيد العالمَ العربيَّ أجمع وتلقي شعاعاً على ما يكتنف عالمَ الهجرة من غموض»

الاستاذ جبران بجعازي ، عن إدارة مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت : « وإنني قد تصفحته بلذة وشوق قبل وضعه بين ايدي اساتذة وطلاب الجامعة فوجدته حاوياً ما لذَّ وطاب من الادب الرفيع العالي ومن أخبار إخوان أعزّاء لنا في الهجرة . فأرجو أن تتقبلوا شكرنا لهذه الهدية التي ستفيد الكثيرين عندنا ، وعلى الاخص الذين يهتمون في دراسة الادب العربيّ »

الكاتبة الاديبة السيدة نبيهة ناقوز في حلب : « وأعجبني فيه خصوصاً صراحتكم وتصويركم اصدقاءكم بحقائقهم العارية مما لم يألفه ادبنا العربيّ . وقد حبّبني بالكتاب أنني ممن يؤمنّ بهذه النظرية – نظرية الصراحة – والبعد عن جوّ الملق والرياء الذي يسود مجتمعاتنا »

الاستاذ وديع فلسطين في جريدة المقطم المصرية : « وكتاب « ذكرى الهجرة » وان كان تاريخيّ النزعة واقعيّ الاتجاه ، غير انّ فيه صفتين بارزتين يلحظهما القارىء على الفور : وأولاهما ان الكاتب يستوحي مبادىء الخلق القويم في كتابته فلا يغلّب الرياء والمخادعة على الاخلاص والامانة . وثانيتهما أن الاتجاه الادبيّ غلاّبٌ على موضوعات الكتاب . وآية ذلك احتفال الاستاذ ضعون بسِيَر الأدباء والشعراء ورجال الفكر من أصدقائه »

الآنسة جميلة العلايلي رئيسة مجمع الادب العربيّ في القاهرة : « ولأول مرة في تاريخي الأدبيّ أطالع كتاباً دون أن أنقطع او أستريح ، ذلك أنه نقلني من دنياي الى دنياكم الساحرة العامرة بالنشاط والتوثُّب والكفاح والاخلاص وخير ما يتمناه الانسان من مُثُل عُليا »

الاستاذ عزة حافظ، في المفوّضية السورية في عاصمة البرازيل : « فبدأت بالمقدمة وإذا بجمال الاسلوب وروعة العرض وطرافة المواضيع تحملني جميعاً على متابعة قراءته والانكباب على مطالعة فصوله فصلاً فصلاً فقضيت مع مؤلفك وقتاً هو أمتع ما قضيت من اوقات وأفدت منه نفعاً عميماً » .

الاستاذ نزيه الحكيم قنصل سوريا السابق في عاصمة البرازيل ، من مقال مستفيض نشرته له مجلة « عصا الجنة » الدمشقية : « وأعترف أن توفيق ضعون كان لديّ ، منذ قدمت البرازيل في العام الماضي ، أحدَ ألغاز جاليتنا في هذا المغترَب ، بمدى تناقض الآراء التي أثارها عنه كتابه البرتوغاليُّ عن الهجرة ، فجاءت صراحته المثالية في مجلده الجديد

الضخم تحلُّ هذا اللغز وتوضح أسبابه . ولعلّك واجدٌ معي في هـذه الصراحة السببَ الاول الذي من اجله اتوقّع أن يكون هذا الكتاب بين مراجع كل تواريخنا المقبلة »

الاستاذ نقولا الحدّاد العالم والكاتب الاجتماعيُّ الشهير في مصر :
« فما زلت اقرأها صفحةً بعد صفحة كلما سنحت الظروف حتى أتيت على آخرها فأعجبت بثلاثة أمور فيها : اولاً جزالةُ إنشائها وصفاء التفكير فيها . وثانياً حريةُ الضمير في رواياتها والصراحة في وصف الاشخاص والتقرير عن احوالهم والصدق في نشر اخبارهم . وثالثاً الجَلَد المتناهي في جمع هذه الاخبار وسردها وضمها وترتيبها . ولا اظنك تركتَ شاردةً او أغفلت واردةً ».

« فلا بدعَ ان يكون كتابك « سفر اخبار الايام الاول » الذي يكون المرجع الاصحَّ لتاريخ الهجرة السورية واللبنانية الى اميركا الجنوبية . فعسى ان تتحف قراء العربية بسفر « اخبار الايام الثاني »

« وأعتقد ان الذين سيدوّنون تاريخ الهجرة السورية واللبنانية الى اميركا سيجعلون « ذكرى الهجرة » أمامهم على مكتبهم لكي يعودوا اليه لتحقيق التاريخ والتوسع فيه والاستناد اليه ، كما يرجع المؤرخون للتاريخ القديم الى التوراة التي لا تاريخ قديم قبلها » .

الاستاذ م . س . ع، في مجلة « المنهـل » التي تصدر في مكة المكرمة ، من مقال استغرق اربع صفحات : « هذا كتاب لا نبعد كثيراً اذا قلنا إنه اول كتاب من نوعه في ادبنـا العربيّ الحديث ، فهو كتاب ادب اذا شئت . وهو كتاب تاريخ . . . وهو كتاب يصح ان تضيفه ايضاً الى كتب التراجم او الرحلات او الاعترافات »

« أما بعد فإنك تقرأ هذا الكتاب فكأنمـا تقرأ قصةً من نسج الخيال ، ولولا علمك بأن هذا الذي تقرأه « حقائق » ليس لهـا في

ميدان الخيال الفسيح اي ناقة او جمل او « موتوسيكل » . . .
فأكبر الظن انك لا تكاد تنتهي من قراءته حتى تجد نفسك تقول :
ما أروعها من قصة ! وما احذقه من مؤلف واسع الخيال ! » .

الاستاذ عيسى ابرهيم الناعوري ، في عمان شرقي الاردن الذي اشتهر بدراسة الأدب المهجري : « تلقيت نسخة من كتابكم « ذكرى الهجرة » مهداة الي من الشاعر الكريم الاخ نعمة قازان . ولقد طالعت الكتاب في حينه واستفدت منه وأشرت اليه في دراساتي العديدة للادب المهجري ، لانه في الواقع المرجع الأوفى والأوحد الذي يمكننا ان نعرف منه شيئاً من التفاصيل عن المهجر الجنوبي » .

« ولقد أطلعت عليه صديقي قنصل العراق في عمان الذي يهتم مثلي بدراسة الادب المهجري ويعد عنه أطروحة لنيل رتبة « معلم علوم » من احدى جامعات لندن ، وهو يسألكم بواسطتي أن تتحفوه بنسخة من هذا المؤلف القيم ليستعين بها في دراسته »

مجلة الكتاب المصرية الشهيرة — « هذه موسوعة عظيمة تنطق بأحوال المهاجرين السوريين واللبنانيين في حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والفكرية ، وتسجل كثيراً من المعلومات والطرائف عنهم ، وعن جهادهم في سبيل الغنى ، وعن مآثرهم في سبيل الوطن الثاني ، كإنشائهم المعابد والمصانع والمشافي والملاجىء والجمعيات الخيرية والاندية الادبية . فهي رسالة عامة وسجل شامل يقدمه المؤلف باسم المجموع المهاجر الى المجموع المقيم ، ممثلاً الفريق الاول ، معبراً عن رأيه ، راسماً منه صورة لحقيقته قبل الهجرة وفي مختلف مراحلها وأدوارها وحوادثها حتى اليوم ... إنها اثر ناطق ينبىء الاجيال المتعاقبة بما كان من جهاد الاسلاف الذين نزحوا الى مختلف البلدان تخلصاً من قيود الفقر والجهل والظلم التي كانت تنكبهم في مساقط رؤوسهم » .

« وهو الى ذلك موسوعة جمعت بين الادب والتاريخ والسير

والرحلات ، ففيها ادب رفيع يمثل ادب المهجر اصدق تمثيل ، وفيها تاريخ الهجرة وأسبابها وإشادة بالعناصر القوية من المهاجرين ، ولاسيما المهاجرون الاوائل الذين رادوا سبيلها وعبّدوا طريقها ، وفيها وصف للأهوال التي عاناها أولئك المهاجرون الابطال ، ووصف لكفاحهم النبيل الذي تُوّج بنجاحهم المنقطع النظير في ميادين شتى ، وفيها تراجم كثير من اعيان المهاجرين ، تجاراً كانوا ام اصحاب قلم او رجال صناعة ، مزينة برسومهم . ولقد كان المؤلف في تسجيله هذه التواريخ والاحداث صريحاً كلَّ الصراحة ، فلم تحل عوامل الصداقة والود دون ان يرسم حقيقة المهاجرين مجردةً عن كل زيف خالية من كل تزيين ، فأغضب بعضهم ، وإن ارضى ضميره بهذه الصراحة التي اصطنعها حتى في كتابته عن نفسه ، فله الشكر جزاء ما قدم لأهله ووطنه ، وكتب الله لأولئك الاخوان المغتربين كلَّ توفيق ونجاح » .

شهادة رمزية — وجاء سان باولو زائراً الصحافيُّ المعروف الاستاذ جبران مسوح فأهديت اليه نسخةً وراح يأتيني يومياً في مكتبي فيبدي لي رأيه في ما يكون قد طالعه ليلاً من الفصول ويدفع إليَّ بعنوان احد اصدقائه في الارجنتين لأبعث اليه بنسخةٍ هديةً منه يأبى إلا أن يؤدي ثمنها . حتى اذا ما اتى على الكتاب جاءني سائلاً ما اذا كان لا يزال لديَّ عددٌ وافٍ من النسخ . فلما علم أن الباقي يُحصى بالمئات اكتفى بأن نعى على جالية البرازيل الغنية فقرَها الروحيَّ . . .

وبإشارة من صديقي الدارس المحقق وصاحب اكبر مكتبة عربية خاصة في البرازيل الاستاذ يوسف الخوري بعثت بنسخة الى الدكتور. جيل بن أميّة في سفارة إسبانيا في تشيلي فأنفذها هذا بدوره الى دائرة الاذاعة الاسبانية في مدريد فاطّلع عليها رئيس قسم الاستشراق وأذاع تقريظاً لها استغرق زهاء عشر دقائق .

فهرس الاعلام ، والترتيب الهجائي فيه متبع في الكتب

اسماء الأشخاص والمؤسسات

ا

اذا عنّ لك أن تبدي رأياً في هذا الكتاب فتكرّم به
مخطوطاً او منشوراً الى العنوان التالي :

T. DUOUN
CAIXA . 467
BRASIL São PAULO

من منشورات مطابع صادر ــ ريحاني ــ بيروت سنة ١٩٥٣

